الدكتور عبد القادر حسين

القرآن
والصورة البيانية

عالم الكتب

الطبعة الثانية
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

بيروت - المزرعة بناية الايمان - الطابق الاول - ص.ب. ٨٧٢٣
تلفون : ٣٠٦١٦٦ - ٣١٥١٤٢ - ٣١٣٨٥٩ - برقياً : نابعلبكي - تلكس : ٢٣٣٩٠

مقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

قد يجد القارىء شيئاً من العنت حين يطلع على كتب البلاغة القديمة ، ليجني منها ما يفيد ، وقد يبذل الجهد العظيم ثم لا يحظى إلا بشيء زهيد لا يتفق وما بذله من جهد ، فما زالت علوم البلاغة تفتقر إلى عزيمة المشتغلين في هذا الحقل لتتحول من علوم البلاغة إلى فنون البلاغة ، وبذلك تخرج من هذه العزلة التي أطبقت عليها من أقطارها كافة ، وتغري القارىء بدراستها والإفادة منها ، فكان لزاماً على المشتغلين بعلوم البلاغة ـ مع احتفاظهم بطابعها القديم ـ أن يزيلوا العوائق التي وضعت في طريقها ، وأن يعملوا على تنشيطها وتجديد معالمها، حتى تدب في عروقها ماء الحياة، وتتدفق في شرايينها دماء الشباب .

والتجديد ينبغي أن ينهض على دعامة من التراث الذي تركه لنا الأسلاف ، ويرتفع بناؤه على أساس مما خلفه لنا الأعلام من ذوي المكانة في هذا الفن ، حتى لا يبدو منقطعاً عن الماضي ، أو منسلخاً عن الأصل ، فلا يثبت له قرار ، ولا تقوم له قائمة .

ومن يفتش في هذا الركام الهائل من تراثنا البلاغي يجد بغيته ، ويحصل على مراده ، فإذا ابتغى التفسير والتحليل عثر عليه ، وإذا قصد العلل والأسباب رآها نصب عينيه ، وإذا أراد التقعيد والتقنين كان بين يديه ، ويمكنه

أن يختار من بينها ما يرضي طباع المتذوقين ، أو تنبو عنه أذواق المتعلمين .

وفي كتب البلاغة القديمة اتجاهات ومدارس تتنافر ، وتتداخل . وتتواصل ، فمنها ما يسعى إلى إبراز الجمال ، وصقل المشاعر ، ومنها ما يلقي بثقله في تحديد القواعد ، وتشعب الفروع ، ولا يبالي بما هو أبعد من ذلك ، ومنها ما يمزج بين هذه وتلك ، فجمع إلى جمال النص ، وبيان أثره في النفس ذكر المصطلحات ، وتنوع التقسيمات ، ويضيف التفسير والتحليل إلى التقعيد والتحديد ، فحيثما توجهت في كتب البلاغة ألفيت طرقاً ومسالك ، وفي وسعك أن تختار بين طريق للنزهة والرياضة ، فيصفو ذهنك ، وتنتعش روحك ، وبين مضيق وعر فتدمي قدميك قبل أن تبلغ نهاية الشوط .

ونحن حين نتناول البلاغة في كتب الأقدمين ، نفضل أن نختار طريق التفسير للنص وتحليله ، والعناية بالصورة البلاغية وجمالها ، من حيث اثرها في النفس ، وتحريك المشاعر ، وانفعال الوجدان ، وما دون ذلك من الجوانب الاصطلاحية لا يشغلنا كثيراً ، لأننا لا نضعها في المنزلة الأولى ، وإنما نشير إليها فحسب لنعبر من فوقها إلى الغرض الأهم من التعبير بالصورة ، أو التعبير بالمجاز ، إما لتوضيح المعنى ، وتأكيده ، وبيان أثره ، وإما لجلاء ما تحمله العبارة المجازية من معنى بعيد يشف عنه التعبير المباشر القريب ، قاصداً من ورائه تذوقاً جمالياً ، أو تأثيراً نفسياً ، أو شحنة انفعالية ، وهو مطلب قد يعز على التعبير المباشر أن يتعمق أغواره ، أو يلمس أطرافه .

والصورة البيانية ـ على اختلاف أنواعها ـ غزيرة في القرآن الكريم ، ونرجو أن نجلوها ، ونبين أسرارها وجمالها وقيمتها ، عسى أن ندرك وجهاً واحداً يسيراً من الوجوه العديدة لإعجاز القرآن .

والله أسأل أن يوفقنا سواء السبيل .

١٩٧٥/١/٧
عبد القادر حسين

البَابُ الأوّل

ويشمل :

١ - التشبيه والجانب النقدي
٢ - التشبيه والجانب التاريخي
٣ - التشبيه والجانب البياني

التشبيه والجانب النقدي

التشبيه فن من فنون الكلام ، وعنصر من عناصر الأسلوب ، يرسم صورة للحس والشعور ، فينقل المعنى في وضوح ، كأننا نراه بأبصارنا ، ونلمسه بأصابعنا ، ويعد التشبيه « من أشرف كلام العرب ، وفيه تكون الفطنة والبراعة[1] بل هو بحر البلاغة وسرها ولبابها وإنسان مقلتها »[2] والشاعر أو الكاتب ينقل إلينا صورة مما تقع عليه حواسه ، أو مما تحيط به معارفه ، أو يكتسبها من خبرته وتجاربه ، وربما اختزن هذه الصورة فترة تطول أو تقصر ، حتى يجد الباعث لإيقاظها ، فتطفو على سطح الذاكرة من جديد ، ولذلك تضمنت أشعار العرب كثيراً من التشبيهات التي أدركتها بوعيها أو حسها « فشبهت الشيء بمثله تشبيهاً صادقاً على ما ذهبت إليه في معانيها التي أرادتها ، فإذا تأملت أشعارها ، وفتشت جميع تشبيهاتها وجدتها على ضروب مختلفة بعضها أحسن من بعض ، وبعضها ألطف من بعض ، . . ومما أدركته العرب من التشبيهات فكثير لا يحصر عدّه »[3] .

والتشبيه عند المبرد من أكثر كلام الناس ، وقد وقع على ألسن الناس من

---

(١) البرهان في وجوه البيان ١٣٠ ابن ددب تحقيق د. مطلوب .

(٢) الطراز للعلوي ٢/٣٢٦ .

(٣) عيار الشعر لابن طباطبا ١١ .

التشبيه المستحسن أن شبهوا عين المرأة والرجل بعين الظبي أو البقرة الوحشية ، والأنف بحد السيف ، والفم بالخاتم ، والشعر بالعناقيد ، والعنق بإبريق فضة فهذا جار على الألسن في كلامهم المنثور ، وشعرهم المنظوم[1] فالتشبيه يطلعنا على مظاهر الحياة والحضارة ، ومدى نظرتهم للجمال سواء في الطبيعة أو الانسان ، كما يجعلنا نقف على العادات والسلوك والتقاليد ، وما يستخدمه الناس في معاشهم وسلمهم وحربهم .

والشعر الجاهلي يزخر بالصور الحسية التي تشير إلى حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، فيصفون الفرس والناقة والبقرة الوحشية ، والرمح والسيف ، والديار والأطلال ، وما يشاهده البدوي في رحلته من آثار الكون ومشاهد الطبيعة ينقلها إلينا بإحساسه الساذج البريء من التفلسف والتعقيد ، فالتشبيه في العصر الجاهلي كان أقرب إلى الواقع الحسي وأدنى إلى طبيعة الشعر بحالته التي عرف عليها من البساطة والسذاجة « حتى إنه في كثير من الحالات يعتبر مظهراً من مظاهر البدائية في التفكير ، والسذاجة الأولية في التعبير »[2] .

ثم تطور أمر التشبيه ولم يعد مجرد نقل ما يقع في دائرة الحس ، وإنما صار إلى أمر آخر أقرب ما يكون إلى اللذة بالإبداع ، والاستمتاع بالصورة ، وقد برز هذا الاتجاه على يدي ابن المعتز الذي أولع بالتشبيه ولوعاً شديداً حتى صار يضرب المثل بكثرة تشبيهاته . وسار العرب في تشبيههم على هذا المنوال إلى أن تحول التشبيه من دائرة الحس إلى رحابة الذهن ، ولم يستمر على وضعه في التماثل سواء في الصورة أو ما يدرك بالحواس ، وإنما ظهرت جوانب أخرى تجهد لابراز فيض المشاعر والأحاسيس ، أو تعمل

---

(١) الكامل للمبرد ٢/ ٩٠ .

(٢) أنظر مقدمة الجمان في تشبيهات القرآن .

على مخاطبة العقول والأفكار إلى أن طغى الاستمتاع العقلي بالتشبيه ، واستبد بفن القول . وقد ظهر هذا الاتجاه جلياً في شعر أبي تمام الذي يعد رائداً في هذا المضمار ، وسانده في ذلك كثير من النقاد ، حتى صار التشبيه فلسفة فنية ؛ لها قواعدها وأصولها على يدي عبد القاهر الجرجاني .

ومن السهل أن نقرأ شعراً ينقل إلينا تشبيهاً ينبىء بصورته وخياله أن قائله من أهل البادية ، أو سكان الحاضرة ممن يرفل في نعيم الحياة ، أو ينوء بشظف العيش ، فما التشبيه إلا صورة من الصور التي يقع عليها الحس أو تقرأ في الذهن ، والحكاية المشهورة التي رددتها كتب الأدب عن تشبيهات ابن المعتز وابن الرومي تؤكد علاقة التبشبيه بالبيئة وارتباط الشاعر بها ، فقد سأل ابن الرومي سائل : ألا تشبه تشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه وضرب له مثلاً بقوله في الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال له زدني فانشده قوله في الآذريون ـ زهر أصفر في وسطه خمل أسود ـ .

كأن آذريونها والشمس فيها كالية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

فأجاب ابن الرومي بأن المعتز إنما كان يصف ماعون بيته ، لأنه ابن خليفة ، وأنا أي شيء أصف ؟ ولكن انظر إذا وصفت ما أعرف أين يقع قولي من الناس ، فاعتذار ابن الرومي عن مجاراته لتشبيهات ابن المعتز لا يرجع إلى نقص في الشاعرية ، أو ضحالة في الابداع ، وإنما يصف ما يقع عليه بصره ، ويشبه بما تلحظه حواسه ، وأنى له أن يرى الزورق الفضي ، ومداهن الذهب ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

وقد وضع النقاد كثيراً من الصور النموذجية ، ليتأسى بها المتعلمون ، وينشئوا على غرارها ، كتشبيه الجواد بالبحر ، والشجاع بالأسد ، والجميل

بالشمس ، وكتشبيه المهيب الماضي في الأمور بالسيف ، والعالي الهمة بالنجم ، والحليم بالجبل ، والحيي بالبكر . . وتشبيه أضداد هذه المعاني بأشكالها على هذا القياس : كاللئيم بالكلب ، والطائش بالفراش ، والذليل بالوتد ، والقاسي بالحديد والصخر ، وربما يشتهر أمر بعض الناس بخلال من الخير أو الشر وصاروا أعلاماً يشار إليهم كالسموءل في الوفاء ، وحاتم في السخاء ، والاحنف في الحلم ، وسحبان في الفصاحة وقس في الخطابة ، ولقمان في الحكمة ، ويكون التشبيه بهم مدحاً كالتشبيه بالبحر والشمس والقمر والسيف ، وكذلك أضدادها ، وقوم يذمون فيما شهروا به يشبه بهم في حال الذم كما يشبه بهؤلاء في حال المدح : كباقل في العي ، وهبنقة في الحمق ، والكسعي في الندامة »[1] .

ولم تكن هذه الأوصاف قيداً لا يمكن الفكاك منه ، بل كانت بمثابة معان يدركونها بخبرتهم وتجاربهم في الحياة فيصفونها كما يرونها ، وليست حجراً على الكتاب والشعراء بحيث لم يلتفتوا إلى غيرها ، وإنما كانوا يضيفون إليها كل ما يطرأ عليهم من عوامل الحياة وجديد الخبرات ، فهم لا يصورون إلا ما يرونه أو يدركونه ، فإذا نقل ما لا يحسه ، ولا ينبثق من شعوره ، بدا فيه الزيف والبعد عن الصدق الفني ، مما يعد نقصاً في شاعريته ، وعيباً في بديهته ، وهو حريص على أن يبعد عنه سهام النقاد ، وازدراء السامعين ، وقصة ابن الرومي السالفة الذكر تعتبر شاهداً حياً على أن لكل موقف ظروفه الخاصة واحساسه المنفرد .

ونظرة النقاد القدامى إلى التشبيه وجمالة تختلف في جوهرها عن نظرة النقاد المحدثين ، فالقدامى لا يرون الصدق أو الحسن في التشبيه إلا إذا تطابق فيه الطرفان ، وكان أحدهما مثل الآخر في أوصافه ، فقدامة يرى أن

(١) عيار الشعر ٢٢ ، ٢٣ .

« أحسن التشبيه ما أوقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيهما ، حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد »[١] فاذا عري التشبيه من التطابق فاته الحسن ولم يتسم بالصدق ، فما على الشاعر إذا أراد أن يكون صادقاً إلا أن يبحث في الطبيعة عما هو بشأنه من الكلام ، فإذا وجد ما هو شبيه به أو قريب منه فقد أصاب التشبيه ، وتسنم ذروة البلاغة بقطع النظر عن أي اعتبار آخر من انعكاس الشعور ، أو تداعي الموقف . فالمرزوقي يفسر لنا معنى الصدق في التشبيه « بأنه الأشد مطابقة لما في نفس الأمر ، بحيث لو عكس التشبيه فجعل المشبه مسبهاً به لكان صادقاً ، لأنه يتأتى عن شدة المشابهة »[٢] وهو نفس الإدراك لمعنى الصدق والجمال الذي كان سائداً عند النقاد من قبل « فأحسن التشبيهات عند ابن طباطبا ما إذا عكس لم ينتقض ، بل يكون كل شبه بصاحبه مثل صاحبه ، ويكون صاحبه مثله مشتبهاً به صورة ومعنى »[٣] وابن ناقيا البغدادي وصف التشبيه في قوله تعالى :(وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام) ، بأنه حسن ، « ودليله على حسن وقوع هذا التشبيه وصحته أنه يصح على العكس وقلب المشبه بالمشبه به[٤] فلم ير الجمال إلا في صحة القلب ، وامكان العكس . فالحسن في التشبيه يرجع إذن إلى مدى مطابقة المشبه للمشبه به في الشكل والصورة ، وما دام التطابق واضحاً بين الطرفين ، هان عندئذ أن تجعل المشبه به مشبهاً ، والمشبه مشبهاً به ، وتحوله إلى التشبيه الذي يسمى معكوساً ، فتشبيه الخد بالورد ، والشعر بالليل ، والوجه بالصباح ، يجري فيها التطابق عند ملاحظة الحمرة والسواد والضياء ، ولو عكس فشبه الورد بالخد ، والليل بالشعر ، والصباح بالوجه

---

(١) نقد الشعر ١٠٨ .

(٢) شرح المقدمة الأدبية ٨٧.

(٣) عيار الشعر ١١.

(٤) الجمان ٢، تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادي ٣١٥ الرحمن آية ٢٤ .

على جهة المبالغة لكان شاهداً على جمال التعبير وفن التشبيه وحسن القول .
وهذه الفكرة في تطابق الصورة لم يضعفها ويقلل من شأنها سوى عدم ارتباطها بالشعور ، وبعدها عن العاطفة ، فليس من الضروري عند الأقدمين أن تلحظ الموقف ، ثم تأتي بصورة تؤكد فيها معنى من المعاني كالحزن مثلاً ، وتعبر فيها عن عاطفتك ، ولكن الأهم من ذلك أن تبحث حولك حتى تعثر على شبيه لما تود أن تصف . خذ مثلاً قول أبي نواس في جنان المغنية المشهورة :

تبكي فتذري الدر من نرجس وتلطُم الورد بعنّاب

حين يريد أن يصف الدموع ، والعيون ، والخدود ، والأنامل ، فتش فيما يماثلها في الحسن فوجد الدر والنرجس ، والورد ، والعناب ، فشبه هذه بتلك في الصورة والشكل ، ولكنه أغفل مشاعر الحزن والأسى وما تعانيه من آلام تدعوها إلى البكاء . لاحظ أبو نواس هنا الشكل الظاهري وحده ، دون أن يصل إلى الأغوار ، فوصف لمعان الدموع ، وجمال العيون ، وحمرة الخدود والأطراف ، وتناسى الموقف كلية دون أن يشاركها الأحزان وينفعل بآلامها ، فافتقد الشعر بهذا الجذب في الشعور روحه الأساسية من الانفعال والوجدان ، ولم يبدِ اهتماماً إلا بالقشور والطلاء ، مثل هذا التشبيه يجلب المتعة عند النقاد الأقدمين ، ويعتبرونه حسناً ، لأن الشاعر وصف فأجاد ، وشبه فأصاب ، فليس من العجيب إذن أن نلحظ طغيان الجمال الشكلي على الأثر النفسي في كثير من قصائد الشعر العربي .

أما النقاد المحدثون فلهم سبيل آخر فهم ينعون على الشاعر أن يقف عند حدود الحس لا يتعداه إلى الوجدان ، أو يرتكز على التشابه الحسي دون أن يربطه بالشعور ، فهذا يقلل من شأن الصورة ، ويضعفها فنياً ، ويصيبها بالخواء والسطحية ، فقول ابن المعتز المشهور في وصف هلال الفطر عقب

رمضان والذي يعد قمة في التشبيهات المتطابقة ، واطنب في التغني به الأقدمون لجماله وخلابته ، لا ينقل إلينا شعوراً صادقاً بجمال الهلال وروعته ، لأن الشاعر بحث عن نظير حسي لما يراه دون أن يتصل هذا النظير بشعور محدد ، أو فكرة معينة ، وقد يكون في هذا التشبيه دلالة نفسية على رغبته في الهرب من عالم الواقع ، أو دلالة على بيئة الترف التي ألفها ابن المعتز ، ولكن هذه الدلالة نفسيـة لا شعورية ، ولا صلة لها بالمنظر الطبيعي الذي يقصد ابن المعتز إلى تصويره ، فالتطابق الشكلي بين الهلال في السماء والزورق الفضي واضحاً ، وعناصر المشبه متفقة مع عناصر المشبه به مما يدعو إلى القول بنجاح التشبيه عند القدامى ، ولكن هل يثير الهلال في النفس نفس الشعور الذي يثيره الزورق الفضي المحمل بالعنبر؟ كلا ، ومن ثم يكون التشبيه فاشلاً ، لأن ما يثيره المشبه لا يثيره المشبه به ، وهكذا يكون التشبيه فاشلاً من وجه ، وناجحاً من وجه ، ناجحاً حيث أدركنا المطابقة الذهنية بين الطرفين في الشكل وفاشلاً إذا أردنا أن نلاحظ مدى الاتفاق بين ما تثيره صورة الهلال في السماء ، وصورة الزورق الفضي المثقل بالعنبر من مشاعر في نفس الإنسان ، إذ أن المشاعر جد مختلفة بين ما يثيره المنظر من إحساس هنا وهناك .

« فما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها ، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس ، وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لا لغيره كان كلامه مطرباً مؤثراً ، وكانت النفوس تواقة إلى سماعه واستيعابه ، لأنه يزيد الحياة حياة كما تزيد المرآة النور نوراً . . . وصفوة القول أن المحك الذي لا يخطىء في نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره فان كان لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وإن كنت تلمح وراء الحواس شعوراً حياً ، ووجداناً تعود إليه

المحسات ، فذلك شعر الطبع الحي والحقيقة الجوهرية »[1] .

وتتأكد وجهة النظر هذه عند لفيف من النقاد المعاصرين حتى لا نكاد نجد واحداً منهم قد اعتبر أهمية التشبيه وقيمته ترجع إلى وجود التماثل الشكلي ، بل إننا نجد من يشتط في تسفيه هذا القول ورمي أصحابه من النقاد بفقدان التذوق الأدبي فيقول : « والمحقق أن براعة المجاز القرآني لم تصور تصويراً مشرفاً في عصر من العصور ، وأن القرآن لم يتذوق تذوقاً خالصاً ، ولو فعلوا لما قالوا إن التشبيه الأدبي يقوم على المشاركة بين الأشياء في ظواهرها وألوانها وأقدارها ، ولجاز أن يستنكر التقليد السائر الذي يهفو أصدقاؤه الكثيرون إلى أن يروا تشبيه شيئين بشيئين أو خمسة بخمسة في البيت الواحد ، فلم يكن القرآن يسلك مسلكاً شبيهاً »[2] . وبذلك يكون النقاد المحدثون قد اتفقوا على وجهة نظر واحدة وهي « أن الشعر ليس همه تجسم الموصوفات ، بل التعبير عن وقع هذه الموصوفات في نفس الشاعر ، وتفاعلها في وجدانه ، وكأن الوصف قد صار ضرباً من الوجدان لا ضرباً من المحاكاة الجمالية ، حتى ليلوح لنا أحياناً كثيرة أن الشاعر الحديث لا يلجأ إلى الوصف للتجسيد الحسي ، بل كمحك للوجدان وامتزاج بالطبيعة ، وتجاوب معها ، وانفعال بها يصل إلى حد فناء الشاعر في الطبيعة وامتزاجه بها وخلع وجدانه عليها »[3] وبذلك أصبحت قيمة التشبيه ليست في كونه مطابقاً وجميلاً وإنما في كونه مؤثراً وعميقاً .

---

(١) أنظر النقد الأدبي الحديث ٤٥٢ د. غنيمي هلال . والأسس الجمالية في النقد العربي ٢١٢ د. عز الدين اسماعيل ، والديوان : العقاد ، وابن الرومي حياته من شعره ٣٦٠ ، ومطالعات في الكتب والحياة ٢٣٥ العقاد ، وفن الشعر ١٠٩ ، ١١٠ د. مندور ، والشعر المصري بعد شوقي ٥ د. مندور ، .

(٢) الصورة الأدبية ٨٧ د. مصطفى ناصف .

(٣) فن الشعر ١٠٩ ، ١١٠ د. مندور طـ ١٩٧٤ .

التشبيه والجانب التاريخي

١ ـ لم يقتصر الخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ) في ملاحظاته على بعض أوجه علم المعاني ، وإنما تناول صوراً من علم البيان ، ومنها التشبيه ، وفي حديثه عن التشبيه لم يصب الغرض ، وإنما رمى فيه بسهم طائش ، ومن ثم فإن سيبويه يضعف قول استاذه ويقبحه « فقد زعم الخليل أنه يجوز (له صوت صوت الحمار) لأنه تشبيه فمن ثم حسن أن تصف به النكرة ، وزعم الخليل أيضاً أنه يجوز أن يقول الرجل : هذا رجل أخو زيد ، إذا أردت أن تشبهه بأخي زيد . فيقول سيبويه مفنداً زعم الخليل : وهذا قبيح ضعيف لا يجوز إلا في موضع الاضطرار . ولو جاز هذا لقلت : هذا قصير الطويل تريد مثل الطويل »[١] .

والذي يعنينا هنا أن الخليل قد تناول التشبيه ، ونص عليه ، كما ذكر طرفيه . وبذلك يتضح فساد الزعم « بأن سيبويه هو أول من ذكر التشبيه من العلماء »[٢] .

ويتحدث الخليل أيضاً عن أداة من أدوات التشبيه وهي (كأن) يقول

---

(١) الكتاب لسيبويه ١/١٨١ .
(٢) الصور البيانية ٥٩ د. حفني شرف .

سيبويه : وسألت الخليل عن كأن فزعم أنها إنّ لحقتها الكاف للتشبيه ، ولكنها صارت مع إن بمنزلة كلمة واحدة »[1] .

٢ ـ عندما تناول سيبويه (ت ١٨٠هـ) التشبيه والتمثيل منه بصفة خاصة لم يتناوله منفرداً بحيث قصد أن ينبه إلى هذا النوع من التعبير ، وإنما تحدث عنه من خلال موضوع آخر ، هو أن الكلام : منه ما يأتي على جهة الاتساع والإيجاز . وما فيه اتساع وايجاز يشمل أبواباً كثيرة بحيث يحتوي المجاز العقلي مثل قوله تعالى ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ ، والمجاز المرسل كقوله تعالى : ﴿واسأل القرية﴾ ، والتشبيه التمثيلي كقوله تعالى : ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء﴾ . فهذه الخيوط الثلاثة يضمها عنده نسيج واحد هو الإيجاز والاتساع ، أو هي صور من التعبير في إطار واحد . والحق أن سيبويه عندما تحدث عن التشبيه ذلك اللون البلاغي المشهور تحدث عنه بطريقة بسيطة ساذجة لم يكن لها التأثير الكافي على البلاغيين من بعده . بل إننا لو عقدنا مقارنة بين ما قاله سيبويه عن التشبيه وبين ما قاله المبرد مثلاً لوجدنا هوة واسعة عميقة بين نظرة الأثنين إليه . وعلى الرغم من ذلك فلا بد من إلقاء نظرة على ما تركه سيبويه من ملاحظة على فن التشبيه . (ففي باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتساعهم في الكلام وللايجاز والاختصار يذكر سيبويه ألواناً من التعبير يطلق عليها هذا الوصف كالمجاز العقلي والمرسل ثم يقول « ومثله في الاتساع قوله عز وجل ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلاّ دعاء ونداء﴾ فلم يشبهوا بما ينعق ، وإنما شبهوا بالمنعوق به وإنما المعنى مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع ولكنه جاء على سعة الكلام والايجاز لعلم المخاطب بالمعنى[2] فالآية فيها ايجاز ، والمخاطب يعلم أن في الآية ايجازاً .

---

(١) الكتاب ٤٧٤/١ .

(٢) الكتاب ١٠٨/١ ، ١٠٩ .

ولولا هذه القرينة لما جاز الاتيان بالايجاز في الآية ، حتى لا يغمض الأمر على المخاطب . فمن غير المعقول أن يشبه الكافر بالداعي للايمان ، ولا يجد من ينصت إليه أو يلبي دعوته . ولكن المعقول أن يشبه وعظ الكافرين الذين لا يستجيبون بدعوة الأغنام التي لا تعي ، ومن يسمع الآية يقفز إلى ذهنه هذا المعنى فيعلم أن في الآية اختصاراً . والزجاج (ت ٣١٦هـ) يعقب على ذلك بقوله « قال سيبويه ، وهذا من أفصح الكلام ايجازاً واختصاراً ، ويلتمس وجهاً آخراً للايجاز فيقول ، ولأن الله تعالى أراد أن يشبه شيئين بشيئين ، الداعي والكفار بالراعي والغنم ، فاختصر ، ولكنه اكتفى بذكر الكفار من المشبه ، والراعي من المشبه به فدل ما أُبقي على ما أُلقي وهذا معنى كلام سيبويه »[1] .

وكتاب سيبويه لا يخلو أيضاً من ذكر بعض أدوات التشبيه فهو يروي لنا أنه ، سأل الخليل عن كأن »[2] كما يتحدث عن الكاف الزائدة وأن ناساً من العرب إذا اضطروا في الشعر جعلوها بمنزلة مثل قال حميد الأرقط فصيروا مثل كعصف مأكول[3] فقصد المبالغة في التشبيه فجمع بين الكاف ومثل . فالقول ـ إذن ـ بأن « الجاحظ أول من تنبه إلى أدوات التشبيه كالكاف وكأن ومثل[4] ظاهر الفساد . ويتحدث أيضاً عن وجه الشبه وأن الطرفين لا يكونان متشابهين ومتساويين في كل الأمور ، وإنما التشبيه ليس من كل وجه فيقول : « وقد يشبهون الشيء بالشيء ، وليس مثله في جميع الأحوال وسنرى ذلك في كلامهم كثيراً »[5] وهكذا يمكن القول ـ بعد شرح التشبيه عند سيبويه والكيفية التي

---

(١) أعراب القرآن المنسوب للزجاج ١/٤٧ .
(٢) الكتاب ١/٤٧٤ .
(٣) الكتاب ١/٢٠٣ .
(٤) البلاغة عند الكاكي ٣١٠ د. أحمد مطلوب .
(٥) الكتاب ١/٩٣.

يقول شبه فعله بجناح سماني في دقتها وصغرها ، يقول أنه غير تام الخلق »[1] وفي قول الفرزدق :

وأنت كليبي لكلب وكلبه   لها عند أطناب البيوت هرير

يقول يخاطب جريراً ويشبهه في قلة خيره بالكلب »[2] .

فواضح من هذه الأمثلة وتعقيب أبي عبيدة عليها بأن التشبيه كان عنده واضحاً تمام الوضوح بما فيه من الطرفين ووجه الشبه ، بل أن أبا عبيدة أيضاً كان يعرف التشبيه المقيد بوصف لا بد من مراعاته حتى يصبح التشبيه في قول الشاعر :

يمشون في حلق الحديد كما مشت   جرب الجمال بها الكحيل المشعل

مقيداً بأنه تشبه الرجال لعظمهم ولون الحديد عليهم بالجمال المهنؤة بالقطران[3] وأمثلة أخرى كثيرة نستطيع أن نسوقها لنؤكد وجهة النظر التي نهدف إلى تحقيقها وهي أن أبا عبيدة كان يعرف طرفي التشبيه والوجه ، تمام المعرفة ولم يقتصر على القول بأن « مجازاه مجاز التشبيه والتمثيل » غير أننا نكتفي بهذا القول من الاستشهاد .

٤ ـ فإذا تقدمنا مع الزمن لنرى نظرة الفراء (ت ٢٠٧هـ) إلى التشبيه نجده قد فهمه كما فهمه من قبل أبو عبيدة ، بل ربما كان مقصراً عن أبي عبيدة وسيبويه ، حيث لمسا ألواناً من التشبيه لم يعرفها الفراء ، وأبو عبيدة أشار إلى التشبيه المقيد ، والفراء خلا كلامه من هذا وذاك ، واكتفى في بعض المواضع بذكر الطرفين فقط كما في قوله تعالى : ﴿ مَوجٌ كَالظُّلَلِ ﴾[4] حيث

---

(١) النقائض ١/٤٢ أبو عبيدة .
(٢) النقائض ١/٣٢ ، ١٢٤ .
(٣) النقائض ١/١٧٠ .
(٤) سورة لقمان آية ٣٢ .

أظهره بها ، وتناوله لبعض أنواعه وأدواته بأن سيبويه قد أسهم بنصيب ما في باب التشبيه ، وهو نصيب ضئيل الأثر زهيد القيمة ، إلا أننا نلتمس له العذر حيث إنه كان يهتم بوضع القواعد العلمية النحوية ، وليس بارساء الأسس الفنية البلاغية حتى يحصي الأبواب ، ويفصل فيها القول إذا صادفه لوناً بلاغياً كالتشبيه أو غيره من الفنون البلاغية .

٣ ـ ذكرنا فيما سبق من القول أن الخليل هو أول من أشار إلى التشبيه . وقلنا أيضاً إن سيبويه قد عرف التشبيه في صورته الساذجة البسيطة . كما عرف أن الطرفين لا يتشابهان في كل شيء ، أي أن التشبيه ليس من كل وجه ، وإنما في بعض الوجوه دون بعضها الآخر . ومن ثم فإننا نعجب عندما نطالع لأحد الباحثين أن الفراء أول من تفهم التشبيه بمعناه البلاغي وأنه كان أسبق من الجاحظ ومن أجل ذلك فهو يدعو الباحثين في نشأة البلاغة أن يعيدوا النظر فيها من جديد »[1] وليس مصدر العجب عندنا أن نعلم أن الخليل وسيبويه قد سبقا الفراء إلى التشبيه ، فربما كان تصور الاثنين للتشبيه كان في معرض الحديث عن القواعد النحوية ، ولم يركزا عليه بوضوح ، وإنما مصدر العجب أن الفراء حين تناول التشبيه لم يكن إدراكه له أكثر اتساعاً من إدراك أبي عبيدة (ت . ٢١٠هـ) بحال من الأحوال ، بل نستطيع أن نقول إن أبا عبيدة كان حديثه عن التشبيه أوضح بكثير من الفراء . حقاً إن أبا عبيدة في مجاز القرآن كان يكتفي أحياناً بالقول «هذا مجازه مجاز المثل والتشبيه»[2] ولكنه في النقائض بين جرير والفرزدق ، يـذكر طرفي التشبيه ووجه الشبه فمثلاً في قول الشاعر :

فألقى عصا طلح ونعلا كأنها   جناح سماني صدرها قد تخدّما

---

(١) أبو زكريا الفراء ٢٧٧ ، ٣١٢ د. أحمد مكي الأنصاري .

(٢) مجاز القرآن ٣٥٩/١ ، ٣٧٥ .

قال نشبهه بالظلال واكتفى بذلك[1] أو في قوله : ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ المَاءَ فَأخرَجْنَا بِهِ مِنَ كُلِّ الثَّمراتِ كَذٰلِكَ نُخرِجُ المَوتَىٰ ﴾ [2] كما أخرجنا الثمار من الأرض الميتة[3] . بل أنه أحياناً يخلط بين المشبه والمشبه به ، فيذكر أحدهما في موضع الآخر ، ولم يكن ذلك على سبيل العكس ، كما نعرفه من التشبيه المعكوس ، كما في قوله تعالى :﴿ أو كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُماتٌ ورعدٌ وبرقٌ ﴾[4] يقول فشبه الظلمات بكفرهم ، والبرق . إذا أضاء لهم فمشوا فيه بإيمانهم »[5] وكان الأولى عكس التشبيه كما لاحظ الشيخ النجار رحمه الله . فالكفر مشبه بالظلمات والايمان مشبه بـالبرق[6] . فالفراء قد أخطأ في هذا اللهم إلا إذا كان قد سها عليه . غير أن الفراء في مواضع من الكتاب يذكر طرفي التشبيه ووجه التشبه كما في قوله تعالى : ﴿ طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّياطِينِ ﴾[7] يقول إن فيه ثلاثة أوجه : أحدهما أن تشبه طلعها في قبحه برؤوس الشياطين لأنها موصوفة بالقبح وإن كانت لا ترى[8]» فلم يقتصر هنا على الطرفين ، وإنما ذكر وجه الشبه وهو القبح . وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَإذا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ ورْدَةً كَالدِّهانِ ﴾ [9] يقول شبه تلون السماء بتلون الوردة ، وشبهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه[10] حيث شبه السماء بالوردة أو

(١) معاني القرآن ٢ /٣٣٠ .
(٢) سورة الأعراف آية ٥٧ .
(٣) معاني القرآن ٣٨٢/١ .
(٤) سورة البقرة آية ١٩ .
(٥) معاني القرآن ١٧/١ .
(٦) المرجع السابق والصفحة .
(٧) سورة الصافات آية ٦٥ .
(٨) معاني القرآن ٣٨٧/٢ .
(٩) سورة الرحمن آية ٣٧ .
(١٠) معاني القرآن .

الوردة بالدهن في التلون فذكر الطرفين والوجه . وعندما وضع الدكتور زغلول سلام يده على هذا النص الذي ذكر فيه الفراء الطرفين والوجه ، ظن أن الفراء قام بمحاولة جديدة وخطوة متقدمة في فهم التشبيه قد عجز أبو عبيدة عن فهمها والوصول إليها ، فهو عند الدكتور لم يشر إلى التشبيه غير إشارات عابرة باعتباره مجازاً ولم يفصل فيه تفصيل الفراء عن فهم ودراية[1] ويقول الدكتور الخولي « إن الفراء قد تعرض لبيان طرفي التشبيه بشيء من التفصيل لم نر مثله لأبي عبيدة الذي اكتفى بذكر كلمة تشبيه أو تمثيل من غير زيادة أو تفصيل[2]» وقد رأينا أبا عبيدة قبل الفراء قد تناول التشبيه بذكر الطرفين والوجه ، ولم يكن الفراء سباقاً في هذا المضمار ، وإنما كان سالكاً طريق أبي عبيدة ، وليس صاحب الفضل الأول في ذلك . وربما كان الفراء أكثر تفصيلاً من سابقه أبي عبيدة ، ولكنه بهذا التفصيل لم يضف شيئاً إلى ما قاله أبو عبيدة من ذكر الطرفين أو الوجه ، فكان اختلافه عنه مجرد اختلاف في الأسلوب دون الفائدة ، أو بعبارة أخرى اختلاف في الكم لا في الكيف .

٥ ـ لعل أبرز مجهود شخصي بذله المبرد (ت ٢٨٥هـ) فيما يتعلق بالبلاغة العربية ذلك الباب الطريف الذي عقده للتشبيه ، فهو في هذا الباب كله لم يعتمد على أسلافه من علماء البلاغة والنحو واللغة كسيبويه والفراء ، وأبي عبيدة وابن قتيبة ، وإنما اعتمد على استقراءاته في الشعر العربي ، وجمع الشواهد الشعرية التي تحقق له أفراد باب بأكمله في موضوع واحد ، ونعني به : التشبيه ، والحقيقة أن التشبيه قبل المبرد كان موزعاً في كتب السابقين يصادفنا خلال حديث المؤلف عن موضوع بعينه قد يكون بعيداً

---

(١) أنظر أثر القرآن ٥٧ د. سلام .

(٢) أثر القرآن ٣٩ ، وصور من تطور البيان ٥٩ د. الخولي .

والمبرد نفسه يشعر أن هذه الاسماء على كثرتها متداخلة ، فيرجعها في النهاية إلى أربعة أضرب . « فيقول والعرب تشبه على أربعة أضرب : فتشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج التفسير ، ولا يقوم بنفسه ، وهو أحسن الكلام » .

والمبرد يقصد بالتشبيه المفرط التشبيه المبالغ فيه ، ونراه يعجب بهذا اللون من التشبيه ، ويؤازر اعجابه بما يذكره من تشبيهات القرآن وشعر الفحول . يقول : ومن التشبيه المتجاوز المفرط قول الخنساء :

وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

فجعلت المهتدي يأتم به ، وجعلته كنار في رأس علم ، والعلم الجبل .

قال جرير :

إذا قطعن علماً بدا علم

وقال الله جل ثناؤه ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾(1) .

والمبرد كان على فهم ودراية حين أعجب بالتشبيه المفرط الذي يتسم بالمبالغة ، ويستند في تبرير هذا الإعجاب بتفسير عقلي يقنع به من يحاول رد هذا القول ، بالإضافة إلى أنه قد أتى بنص من القرآن علينا أن نقبله دون مناقشة ، وعلينا بعد ذلك أن نتقبل تفسيره ، لا عن صحة المبالغة والإفراط في التشبيه فحسب ، بل على جماله أيضاً يقول : « واعلم أن للتشبيه حداً ، فالأشياء تشابه من وجوه ، وتباين من وجوه ، فإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع ، فإذا شبه الوجه بالشمس ، فإنما يراد الضياء والرونق ، ولا يراد العظم والإحراق ، قال الله عز وجل ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾(2) والعرب تشبه النساء

---

(1) الرحمن ٢٤ .
(2) سورة الصافات آية ٤٩ .

كل البعد عن التشبيه ، فيستطرد منه إلى مثال في التشبيه ، أو تعقيب على بيت من الشعر تضمن تشبيهاً ، أو بعض آيات من القرآن حفلت بالتشبيهات ، وعلى كل ، فلم يكن الحديث عن التشبيه قبل المبرد هو القصد الأول الذي يرمي إليه المؤلف ، وإنما نراه داخلاً في طيات غيره .

والمبرد في هذا الباب يورد أمثلة لا تنتهي ، وشواهد لا حصر لها من شعر العرب في كل لون من ألوان التشبيه على تنوعها ، وشدة اختلافها ، لأن التشبيه جار كثير في كلام العرب حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد »[1] ويبدو أن المبرد كان مولعاً بالإكثار من الأسماء التي يطلقها على التشبيه وأنواعه ، ولكنه لم يكن دقيقاً في اطلاق هذه المسميات المختلفة ، إذ أننا لا نلاحظ فروقاً جوهرية بين كثير من هذه الألوان ، مما يجعلنا نظن أنه لم يكن يقصد من وراء هذا الإفراط في التسمية إلا التنوع في الأسماء ، دون أن يتعدى ذلك جوهر المسميات حيث لا اختلاف بينها ، فنراه يطلق أسماء مثل التشبيه العجيب ، والمصيب ، والحسن ، والحسن جداً ، والجيد ، والحلو ، والمليح ، والمفرط ، والقاصد ، والطريف ، وغير المطروق ويسميه الغريب ، والمطرد ، والسخيف ، والمتعدد ويسميه الجامع ، والمختصر ، وغير ذلك مما يشتهي ، دون أن يضع حدوداً تميز كل لون عن الآخر . فالتشبيه الجيد ، والحسن ، والمليح مثلاً كلها بمعنى واحد ، ولكنه يكتفي باطلاق الاسماء بما يحتمه عليه ذوقه ، وإحساسه بهذا التشبيه ، أو ذاك ، فهو يسجل انطباعاً في نفسه بحسن التشبيه أو قبحه ، بما يطلق عليه من اسم ، ولكنه لا يعطينا دليلاً على سبب هذا الحسن أو ذاك القبح . وهكذا يمضي المبرد في باب التشبيه من بدايته إلى نهايته على كثرة صفحاته التي استغرقها .

---

(١) الكامل ٢/٦٩ ، ٩٠ .

ببيض النعام تريد نقاءة ونعمة لونه ، والمرأة بالشمس والقمر ، والغصن والغزال ، والبقرة الوحشية ، والسحابة البيضاء والوردة ، والبيضة ، وإنما تقصد من كل شيء إلى شيء[1] . وحازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) يطلعنا على السر في أن الإفراط لا يعدو الصدق ، وان شأنه في الصدق شأن التشبيه المقتصد الذي لا إفراط فيه ، يفسر ذلك بصورة أوضح من المبرد فيقول « فما وضع من الأوصاف والمحاكاة مقتصداً فيه غير متجاوز فهو قول صدق . فإذا قيل في الشيء انه كالشيء ، وكان فيه شبه منه فهو قول حق ، لأن الكاف وحروف التشبيه إنما وضعت لأن تدل على الشبه من حيث إنه موجود قل أو كثر ، لا من حيث الكمية ، فقد يقوى الشبه ، ويضعف ، وتكون المحاكاة مع ذلك صادقة إلا أنها في أحد الحالين أوضح .

وكثير من الناس يغلط فيظن أن التشبيه والمحاكاة من جملة كذب الشعر ، وليس كذلك ، لأن الشيء إذا اشبه الشيء فتشبيهه به صادق ، لأن المشبه مخبر أن شيئاً أشبه شيئاً ، وكذلك هو بلا شك ، ولأن التشبيه باظهار الحرف واضماره قول صادق ، إذا كان في أحد الشيئين شبه من الآخر ـ ورد التشبيه في القرآن ، لأن الماء يشبه السراب بلا شك يشير إلى قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ [2] والهلال شبيه بالعرجون القديم ولا بد يشير إلى قوله تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾ وكذلك جميع تشبيهات الكتاب العزيز الشبه فيها ظاهر »[3]. فالعبرة في التشبيه ليست من حيث الكمية ، أو القوة أو الضعف بل في الطرفين من وبه شبه بأي حال من الأحوال ، قل أو كثر ، قوي أو

---

(١) الكامل ٢/٤٧ ، ٤٨ .

(٢) سورة النور آية ٣٩ .

(٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني ٧٥ . ونظريات أرسطو في الشعر والبلاغة د. عبد الرحمن بدوي ١٧ .

ضعف ، عظم أو صغر . فالافراط في التشبيه ليس كذباً ، وإنما هو قول صدق موشى بزينة المبالغة ، تلك التي لاحظها المبرد وأعجب بها أيما اعجاب ، وسايره في ذلك حازم القرطاجني .

والتشبيه المصيب عند المبرد يعني به الذي لا يتجاوز الواقع ، وإنما يصيب به القول دون إفراط . فمن التشبيه المصيب قوله :

بيضاء في دعج صفراء في نعج　　كأنها فضة مسها ذهب

فالتشبيه المصيب ما يتفق الناس على صدقه ، وعدم تجاوز الحدود المتعارف عليها ، وهو على النقيض من التشبيه المفرط الذي يتجاوز الحدود ، ويتخطى ما تعارف الناس عليه ، فأبو القاسم الزجاجي (ت ٣٤٠هـ) يعقب على قول الشاعر :

ويوم عند دار أبي النعيم　　قصير مثل سالفة الذباب

يعقب بقوله « وأنا أقول إن هذا نهاية في الإفراط ، وخروج عن حدود التشبيه المصيب »(١) .

أما التشبيه المقارب فهو التشبيه الصريح الذي يقوم بنفسه ولا يحتاج إلى تفسير أو تأويل ، لأنه ظاهر مكشوف يتسم بالبساطة والوضوح فمن ذلك قوله :
« ومن حلو التشبيه وقريبه وصريح الكلام قول ذي الرمة :

ورمل كأوراك العذارى قطعته　　وقد جللته الظلمات الحنادس(٢)

أما التشبيه البعيد فهو الذي يفتقر إلى تفسير ولا يقوم بنفسه كقول الشاعر :

بل لو رأتني أخت جيراننا　　إذ أنا في الدار كأني حمار

---

(١) أمالي الزجاجي ١٩٥ .
(٢) الكامل ٢/٧٧ .

التشبيه وأقسامه ، والاكتفاء بذكر شيء منه ، وأن التشبيه معنى من المعاني ، وأنه قد أكثر من تناول الصناعة اللفظية في كتابه الكامل ، ثم تناول التشبيه لئلا يخلو الكتاب من شيء من المعاني . وهذا يفيد أن التشبيه ليس بمجاز عند المبرد ، بل هو حقيقة ، فالزنجاني (ت٦٥٥هـ) « يقول التشبيه ليس بمجاز لأنه معنى من المعاني »[1] .

فالمبرد ـ إذن ـ أول من قسم التشبيه إلى هذه الأقسام المتعددة التي ذكرناها ثم جمعها وجعلها أربعة فقط : مفرط ، ومصيب ، ومقارب ، وبعيد ، وفي كل قسم من هذه الأقسام كان يتمثل بالشعر ، ويكثر من الاستشهاد به ، وهو في كل ذلك لم يذكر تعريفاً بهذه الأقسام حتى تتميز عن بعض ، ولم يضع لها الضوابط والحدود ، ولكن شواهده التي ساقها كانت دليلاً على كل قسم وتمييزاً له عن غيره ، فنرى في شواهد التشبيه المصيب انطباقاً يجري في حدود الممكن والواقع ، وفي دلائل التشبيه المقارب نوعاً من الوضوح والصراحة ، وفي التشبيه البعيد حاجة إلى التأويل والتفسير ، ولعله اكتفى بهذه الشواهد وما بها من دلائل على الفرق بين قسم وآخر دون أن يلجأ إلى التمييز بطريقة التعريف أو تحليل الشاهد وبيان كونه من هذا القسم دون ذاك .

وكم كنا نود أن نرى لاطناب المبرد في باب التشبيه أثراً يذكر على الذين تناولوه بعده . فابن طباطبا (ت٣٢٢هـ) الذي عاش في نهاية القرن الثالث ومطلع القرن الرابع ، أي أنه عاش فترة ليست بالوجيزة معاصراً للمبرد ـ حين تناول التشبيه ، وخص ضروبه بمزيد من العناية لم نلحظ عليه شيئاً من التأثر بالمبرد ، وكأن كل ما ذكره المبرد فقاقيع هواء انقشعت في حينها ، ولم تصمد أمام تيار التفكير العلمي المنظم الذي بدا واضحاً في معالجة ابن طباطبا

---

(١) البرهان ٤١٥/٣ .

فإنما أراد الصحة ، فهذا بعيد ، لأن السامع إنما يستدل عليه بغيره ، وقال الله جل وعز وهذا البين الواضح ﴿ كَمَثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفارا ﴾[1] وقال ﴿ مَثَلُ الَّذينَ حُمِّلوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَم يَحمِلوها ﴾[2] فالذي جعل التشبيه بعيداً في هذا البيت أن قصد الشاعر يختلف عما يفهمه السامع من التشبيه ، فالسامع يتبادر إلى ذهنه ، ولأول وهلة إنما القصد من التشبيه بالحمار وصفه بالبلادة ، والغباء ، وسوء التصرف ، ولا يطرق ذهنه أن مراد الشاعر من تشبيه نفسه بالحمار أنه في غاية الصحة ، وكمال القوة ، ولا شك أن الوصول إلى هذا المقصد مما يعوذه التفسير والتأويل ، لأنه غير بين ، وغير واضح ، والسامع يستدل عليه بغيره كما يقول المبرد . (واعتبر ابن طبا ت ٣٢٢ هـ) هذه التشبيهات البعيدة نوعاً من الغلو ، والتي لم يلطف أصحابها فيها ، ولم يخرج كلامهم في العبارة عنها سلسلاً سهلاً)[3] .

وعلى الرغم من غزارة الأسماء التي أطلقها المبرد على ألوان التشبيه ، والأقسام التي عددها ، فإنه لم يشر أية إشارة إلى التشبيه المعكوس الذي ظفر فيما بعد بنصيب وافر من الحديث وخاصة عند عبد القاهر في كتابه أسرار البلاغة ، وربما يكون المبرد قد تركه ، لأن الحديث عن التشبيه بكافة أقسامه ـ على حد قوله ـ لا ينتهي .

ونلاحظ أن المبرد يعتبر التشبيه معنى من المعاني ، وليس مجرد صنعة لفظية ، وركناً من أركان البديع كما كان عند السابقين ولذلك فهو يقول « والتشبيه كثير وهو باب كأنه لا آخر له ، وإنما ذكرنا منه شيئاً لئلا يخلو هذا الكتاب من شيء من المعاني »[4] وكأنه بذلك يعلل عدم ذكره لكل ألوان

---

(١) الجمعة ٥ .
(٢) سورة الجمعة آية ٥ .
(٣) عيار الشعر ٨٩ .
(٤) الكامل ٢/١٠٠ .

للتشبيه في ألوانه المختلفة ، وضروبه المتباينة « فقد تحدث المبرد في كتابه الكامل عن التشبيه قبل ابن طباطبا ، ولكن لم يبد أثر واضح لهذا الفصل في كتاب عيار الشعر »[1] . وهو ما نقوله أيضاً بالنسبة للتشبيه عند عبد القاهر .

٦ ـ يتحدث الرماني (ت٣٨٦هـ) عن باب التشبيه ضمن أقسام البلاغة العشرة وهو في هذا الباب لم يكن متأثراً بأسلافه الذين تناولوا التشبيه في إفاضة مثل المبرد (ت٢٨٥هـ) الذي لاحظ أن تشبيهات العرب أربعة أضرب : مفرط ، ومصيب ، ومقارب ، وبعيد ، وقد تبعه في ذلك أبو أحمد العسكري (ت٣٨٢هـ)[2] . كذلك لم يعبأ بما ذكره ابن طباطبا (ت٣٢٢هـ) من ألوان التشبيه في الهيئة ، أو الحركة أو اللون ، أو الصورة ، أو المعنى[3]. لم يهتم الرماني بهذه النظرة أو تلك ، وإنما اتجه اتجاهاً جديداً خالف فيه السابقين ، فبرزت فيه شخصيته ، واتضحت كل الوضوح ، فقد نظر إلى التشبيه نظرة جديدة لعلها كانت هي النظرة الأساسية التي اهتم بها العلماء والأدباء من بعده ، فنراهم يأخذون بأقواله في هذا الباب ، وقد يضيفون إليها آراء غيره ، وربما لا يضيفون كما سنرى عند أبي هلال وابن أبي الأصبع والرماني ينظر إلى التشبيه فيرى « منه ما هو حسي كمائن وذهبين يقوم أحدهما مقام الآخر ونحوه . ومنه ما هو نفسي نحو تشبيه قوة زيد بقوة عمرو فالقوة لا تشاهد ولكنها تعلم[4] ومعنى هذا أن هذا التشبيه الحسي عند الرماني ما كان طرفاه حسيين، والنفسي أو العقلي ما كان طرفاه معنويين، ولم يعرض الرماني للتشبيه الذي يكون أحد طرفيه حسي ،

---

(١) من النقد والأدب : المجموعة الخامسة ١٥٩ .
(٢) الكامل ٨٧/١ ، المصون في الأدب ٥٧ .
(٣) عيار الشعر ١٧ .
(٤) النكت ٧٤.

والآخر عقلي . وهل يدخل في النوع الأول أو الثاني ، لأن الرماني لم يتوغل في الجزئيات في هذه الرسالة الصغيرة ، وإنما كان مشغولاً بوضع الأسس ، وإقامة القواعد الكلية ، ولذلك فهو يعطينا قاعدة عامة نعرف بها بلاغة التشبيه في يسر وسهولة « فالتشبيه البليغ يتحقق عنده في إخراج الأغمض إلى الأظهر بأداة التشبيه مع حسن التأليف »[1] وهو المحك الذي يتفاضل فيه الشعراء ، وتظهر فيه بلاغة البلغاء ، ولذلك فقد جعل الرماني وجه الشبه في خدمة التشبيه لأنه يكسب الطرفين بياناً ، ويعمل على تخطيه من الغموض إلى الوضوح . فالتشبيه البليغ ـ إذن ـ عند الرماني ليس كما هو معروف عند المتأخرين بأنه التشبيه المحذوف الأداة ، وإذا اقترن بها خرج عن هذه الدائرة . وتجرد من صفة البلاغة والحسن ، بل التشبيه القبيح عند الرماني ، هو الذي لا تتوافر فيه صفة الخروج من الأغمض إلى الأظهر » « وهو ما قرره أيضاً ابن رشيق ، واعتبره من الحق الذي لا يدفع »[2] . والرماني لا ينظر إلى جمال التشبيه وبلاغته نظرة متفصلة عن بقية أجزاء الكلام ، لأن الكلام يكون وحدة شاملة ، فلا بد أن يكون التشبيه متآخياً مع بقية العبارة ، فاشترط في التشبيه البليغ أن يجمع إلى ما ذكرنا حسن التأليف ، وهذا الرأي غاية في الوجاهة ، لأن التشبيه لا تظهر قيمته الحقيقية من حسن أو قبح إذا كان مبتوراً عن بقية الأجزاء الأخرى ، وإنما تظهر إذا كان كل لفظ من ألفاظ العبارة يخدم الآخر ويضفي عليه مزيداً من الحسن والجمال . ورب لفظ واحد متنافر لا انسجام بينه وبين غيره من الألفاظ ، يطيح بالعبارة كلها ، ويلقي بها من حالق ، وإن كانت بقية ألفاظها تزخر بالتشبيهات

(١) النكت ٧٥ .
(٢) العمدة ١/٢٨٧ .

ومنها اخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها : ويريد بهذا الوجه المبالغة في التشبيه كقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الجَوارِ المُنشَآتُ فِي البَحرِ كَالأَعلَامِ ﴾[1] .

والرماني في باب التشبيه يتميز بغزارة الاستشهاد من القرآن الكريم فهو يسير على منهج محدد لابراز اعجاز القرآن فلم يخرج عن آيات القرآن إلى شواهد الشعراء . فالتزام الرماني بالشواهد القرآنية لاظهار بلاغة القرآن من صميم المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه الباحثون في كل زمان ، وهو شيء يضاف إلى قيمة الرماني العملية فيرجح كفته على غيره من العلماء الذين لم يلتزموا بهذا المنهج في سرد أدلة الإعجاز ، كعبد القاهر الجرجاني الذي حشد كتابه الدلائل بشواهد من الشعر حتى ضاعت بينها آيات القرآن وهي التي عقد الكتاب لأجلها ولابراز ما فيها من إعجاز . كما نرى الرماني في كل شاهد من شواهده يضع أيدينا على (وجه التشبيه) ويحلله تحليلاً واضحاً وصادقاً حتى يبين لنا الجهة الجامعة بين الطرفين ، ولا يهمه بعد ذلك إذا كان وجه الشبه عقلياً أو حسّياً وإنما القصد عنده أن تتوافر في التشبيه إحدى الصفات المشروطة من إيضاح أو غرابة ، أو تقريب ، أو مبالغة ، سواء توافر هذا في التشبيه الحسي أو العقلي ، فكلاهما يصل بذلك إلى درجة البلاغة .

ومما ينبغي الإشارة إليه أن أبا هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) قد سلب أقوال الرماني وآراءه في التشبيه بوجوهه الأربعة . كما سطا على أمثلته سطواً ذريعاً[2] مما نعده منقصة تهز كيانه العلمي في الوقت الذي يرفع فيه هذا النهب والسلب من قدر الرماني الذي لم يشر إليه العسكري من قريب أو بعيد ، وكأن هذه الآراء هي ثمرة جهده الشخصي الذي توصل إليه بقريحته

---

(١) سورة الرحمن آية ٢٤ .
(٢) الصناعتين ٢٤٠ ـ ٢٤٢ .

التي هي في قمة الجمال ثم يرى الرماني أن التشبيه البليغ على وجوه أربعة : منها : اخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة : أي تتوافر فيه صفة الوضوح والبيان حتى لا يبقى فيه شك لمرتاب ، ويضرب لذلك بعض الأمثلة من القرآن كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَروا بِرَبِّهِم أَعْمالُهُم كَرَمادٍ اشتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ في يَومٍ عَاصِفٍ لَا يقدِرُونَ مِمَّا كَسَبوا عَلى شَيء ﴾[1] ويتحدث عن وجه الشبه بقوله « فقد اجتمع المشبه والمشبه به في الهلاك وعدم الانتفاع ، والعجز عن الاستدراك لما فات ، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة .

ومنها : اخراج ما لم تجربه العادة إلى ما قد جرت العادة . أي يتوافر فيه عنصر الطرافة والغرابة كقوله عز وجل ﴿ إنَّما مَثَلُ الحَياةِ الدُّنيَا كَماءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِن السَّماءِ فَاختَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرضِ ﴾[2] فقد اجتمع المشبه والمشبه به في الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده ، وفي ذلك العبرة لمن اعتبر ، والموعظة لمن تفكر في أن كل فان حقير ، وان طالت مدته ، وصغير وان كبر قدره .

ومنها : إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم : أي يقصد به التقريب كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الذِينَ حُمِّلوا التَّوراة ثُمَّ لَم يَحمِلُوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحمِلُ أَسْفَاراً ﴾[3] فقد اجتمعا ـ الطرفان ـ في الجهل بما جملا ، وفي ذلك العيب لطريقة من ضيع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير دراية .

---

(١) سورة ابراهيم آية ١٨ .

(٢) سورة يونس آية ٢٤ .

(٣) سورة الجمعة آية ٥ .

النفاذة ، ولا شك أن ابن أبي الأصبع (ت٦٥٤هـ) كان أكثر احتراماً لنفسه ، وأشد حفاظاً على الأمانة العلمية من العسكري حين نقل آراء الرماني بحذافيرها ـ نعم بحذافيرها ـ ولم يغفل الإشارة إليه . نقل آراء الرماني في التشبيه مرتين : الأولى في كتابه تحرير التحبير ونسبها إلى الرماني ، والثانية في بديع القرآن ، دون أن ينسبها إليه مكتفياً بالإشارة إليه في المرة الأولى[1] ، ولا يغض ذلك من شأنه ، لأن كتاب تحرير التحبير يعتبر أصلاً لكتابه بديع القرآن . وابن رشيق (ت٤٥٦هـ) ينتفع بآراء الرماني في التشبيه، ويذكر بعضها ، ويؤيدها ويرى فيها الحق الذي لا يدفع ، وبذلك يكون الرماني قد فتح باباً جديداً في التشبيه كان موصداً من قبله ، ووسع نظرة العلماء إليه من بعده ، فكانت آراؤه محل تقديرهم وحفاوتهم ، وأعظم تحية توجه إلى عالم أن تؤخذ آراؤه وينتفع بها ، بقطع النظر عن إضافتها ، أو عدم إضافتها إلى صاحبها .

٧ ـ تناول ابن جنى (ت ٣٩٢هـ) في باب من غلبة الأصول على الفروع التشبيه المعكوس فيقول عنه هذا فصل من فصول العربية طريف تجده في معاني العرب ، كما تجده في معاني الإعراب ، ولا تكاد تجد شيئاً من ذلك إلا والغرض منه المبالغة »[2]. فابن جنى يحدد في هذه الفقرة أربعة أشياء . طرافة هذا اللون واستحسانه من ألوان التشبيه ، وأننا نجده في معاني العرب النثرية والشعرية ، وأن قواعد العربية قد حفلت بعكس المعاني ، واهتمام النحاة بهذا العكس ، وأن الغرض الثابت من هذا التشبيه المعكوس هو المبالغة ، وبذلك يضع ابن جنى أمامنا مفاتيح هذا الباب الذي لم يستغرق منه أكثر من اثنتي عشرة صفحة .

---

(١) تحرير التحبير ١٥٩ ـ ١٦١ ، بديع القرآن ٥٨ ، ٥٩ .
(٢) الخصائص ١/٣٠٠ .

وربما كان التشبيه المعكوس ، والحديث عنه ، وأفراد باب له ، لم يذكره أحد من السابقين على ابن جنى ، الذين تناولوا التشبيه في عديد من الوجوه كالمبرد (ت٢٨٦هـ) وابن طباطبا (ت ٣٢٢هـ) والرماني (ت٣٨٦هـ) فكل واحد من هؤلاء الثلاثة قد تناول التشبيه من زاوية خاصة تختلف عن الزوايا التي تناولها الآخرون ، إلا أن أحداً منهم لم يقترب من هذا اللون من التشبيه ونعني به التشبيه المعكوس . وابن جنى يستشهد في هذا الباب بقول ذي الرمة :

ورمل كأوراك العذارى قطعتُهُ إذا البسته المظلمـات الحنادس

ثم يقول « أفلا ترى ذا الرمة كيف جعل الأصل فرعاً ، والفرع أصلاً » وذلك أن العادة والعرف في نحو هذا أن تشبه اعجاز النساء بكثبان الانقاء .

فقلب العادة والعرف في هذا فشبه كثبان الأنقاء بأعجاز النساء ، وهذا كأنه يخرج مخرج المبالغة ، أي قد ثبت هذا الموضع وهذا المعنى لاعجاز النساء ، وصار كأنه الاصل فيه ، حتى شبه به كثبان الانقاء . ومثله للطائي الصغير :

في طلعة البدر شيء من ملاحتها ولـلقضـيب نـصيـب من تـثنّـيهـا

ويبين لنا ابن جنى أن التشبيه المعكوس ليس غريباً على العربية ، وإنما قد استقاه من القواعد النحوية التي وضع أسسها سيبويه . فالفكرة أساساً نابعة من النحاة ، ثم استغلت أحسن استغلال على أيدي البلاغيين من أمثال ابن جنى ثم تبعه في ذلك عبد القاهر الجرجاني حين أفرد باباً طويلاً في جعل الفرع أصلاً والأصل فرعاً استغرق أربعين صفحة ملأها بقواعد شعرية في التشبيه المعكوس[1] . يقول ابن جنى « وهذا المعنى عينه ـ جعل الأصل فرعاً

---

(١) الأسرار ٢٣٢ ـ ٢٧٣ .

والفرع أصلاً ـ قد استعمله النحويون في صناعتهم ، فشبهوا الأصل بالفرع في المعنى الذي أفاده ذلك الفرع من ذلك الأصل ، ألا ترى أن سيبويه أجاز في قولك « هذا الحسن الوجه أن يكون الجر في الوجه من موضعين ، أحدهما الإضافة ، والآخر تشبيهه بالضارب الرجل الذي إنما جاز فيه الجر تشبيهاً له بالحسن الوجه . والذي سوغ هذا لسيبويه . . أن العرب إذا شبهت شيئاً بشيء مكنت ذلك الشبه لهما ، وعمرت به الحال بينهما ، ألا تراهم شبهوا الفعل المضارع بالأسم فأعربوه ، تمموا ذلك المعنى بينهما بأن شبهوا اسم الفاعل بالفعل فأعملوه . . . وكما حمل النصب على الجر في التثنية والجمع الذي على حد التثنية ، كذلك حمل الجر على النصب فيما لا ينصرف . . .
وكما وضع الضمير المنفصل موضع المتصل في قوله :

إليك حتى بلغت اياكا

كذلك وضع المتصل موضع المنفصل في قوله :

فما نبالي إذا ما كنت جارتنا   ألا يجاورنا إلّاك ديّار

ويؤيد ذلك ما قدمنا ذكره : من عكسهم التشبيه وجعلهم فيه الأصول محمولة على الفروع في تشبيههم كثبان الانقاء باعجاز النساء ، وغير ذلك مما قدمنا ذكره .

ولما كان النحويون بالعرب لاحقين ، وعلى سمتهم آخذين ، وبألفاظهم متحلين، ولمعانيهم وقصودهم آمين جاز لصاحب هذا العلم ـ يعني سيبويه ـ أن يرى فيه نوعاً مما رأوا ، ويحذوه على امثلتهم التي حذوا . . . فاعرف ـ إذا ـ ما نحن عليه للعرب مذهباً ، وان سيبويه لاحق بهم ، وغير بعيد فيه عنهم »[1] .

---

(١) أنظر الخصائص ١/٣٠٣ ـ ٣٠٩ .

وبهذا أمكن لابن جنى أن يطبق القواعد النحوية التي لا ترفض العكس ، أو حمل الأصل ، على الفرع ، والفرع على الأصـل ، على التشبيهات المعكوسة إذ لا يجد فيها شذوذاً أو خرماً لقاعدة ، وإنما هي تتمشى مع القواعد العربية التي وضعها النحاة وفي مقدمتهم سيبويه . ولكن ابن جنى لا يرى في هذا العكس مجرد أسلوب من الأساليب يتمشى مع القواعد العربية ، بل رأى فيه سراً بلاغياً ، ولفته فنية ، إذ أن العرب إذا شبهت شيئاً بشيء مكنت ذلك الشبه لهما ، وأصبح المشبه في موضع يصلح أن يكون هو المشبه به ، أن يكون هو الأصل ، وهو الأقوى بعد أن كان هو الأضعف ، وهو المثال الذي يحتذى ويقاس عليه ، وفي ذلك من المبالغة والطرافة ما لا نراه لو وضع المشبه في موضعه حيث يبقى ضعيفاً كما ينبغي أن يكون عليه من الضعف ، هذه الفكرة بعينها أخذها عبد القاهر من ابن جنى ، وأفرد لها فصلاً شائقاً احتذى فيه حذو ابن جنى وأضاف إليه الكثير من الموازنات بين التشبيه والتمثيل من جهة العكس .

والاهتمام بالتشبيه والعناية به ، كما تظهر في حمل الاصل على الفرع والعكس ، تتمثل أيضاً في وضع أداة التشبيه نفسها ، ومكانها في الجملة . فوضع الأداة في أول الجملة ينبىء عن العناية بالتشبيه ، ونفتقد هذه العناية لو أن الاداة لم تكن في أول الجملة ، بل في وسطها ، ومن ثم يتحتم إبراز الفرق بين الكاف وكأن ، وقيمة كل منهما في درجة الاهتمام بالتشبيه . يتحدث ابن جنى عن معنى الكاف في كأن زيداً عمرو فيقول « أما أحدهما فقولنا كأن زيداً عمرو ، ان سأل سائل فقال ما وجه دخول الكاف هنا ، وكيف أصل وضعها وترتيبها ؟ فالجواب أن أصل قولنا : كأن زيداً عمرو ، إنما هو إن زيداً كعمرو . فالكاف هنا تشبيه صريح ، وهذه متعلقة بمحذوف فكأنك قلت : إن زيداً كائن كعمرو ، ثم أنهم أرادوا الاهتمام بالتشبيه الذي عليه عقدوا الجملة ، فأزالوا الكاف من وسطها ، وقدموها إلى أولها ، لافراط

عنايتهم بالتشبيه ، فلما أدخلوها على إن من قبلها ، وجب فتح إن ، لأن المكسورة لا يتقدمها حروف الجر ، ولا تقع إلا أولاً أبداً ، وبقي معنى التشبيه الذي كان فيها وهي متوسطة ، بحالة فيها وهي متقدمة ، وذلك قولهم كأن زيداً عمرو »[1] وكأن ابن جنى يقول لنا إن أدوات التشبيه لا توضع اعتباطاً ، وما علينا إلا أن نضعها حيثما يحلو لنا ، بل إن ذلك له قواعده ، وأصوله المرعية في صحة النظم ، ودرجة اهتمامنا به ، وهذا القدر من الاهتمام هو الذي يحدد مكان (الكاف) في البداية أو في الوسط وعبد القاهر نقل هذا المعنى بنصه وأفرد له فصلاً خاصاً لبيان أهميته في إبراز فروق النظم[2] .

٨ ـ تحدث ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) في باب المطلق والمقيد[3] عن التشبيه المطلق ، والتشبيه المقيد ، وضرب لكل منهما الأمثلة ، وقارن بينهما في وضوح تام ، وليس معنى هذا أننا نتنكر لجهود السابقين في هذا الباب ، فقد قلنا آنفاً في حديثنا عن الفراء إن أبا عبيدة قد اتضح عنده التشبيه أكثر مما اتضح عند الفراء ، بل إن أبا عبيدة قد عرف التشبيه المقيد وأشار إليه في قول الشاعر :

يمشون في حلق الحديد كما مشت ... جرب الجمال بها الكحيل المشعل

حيث شبه الرجال لعظمهم ولون الحديد عليهم بالجمال المهنوءة بالقطران[4] وكانت هذه مجرد إشارة تنم عن التشبيه المقيد دون أن تضع له الحدود ، بخلاف ابن فارس الذي وضح التشبيه المطلق والمقيد توضيحاً لا مزيد عليه حين يقول « أما الاطلاق : فأن يذكر الشيء باسمه لا يقرن به صفة

---

(١) سر الصناعة ٣٠٣/١ .
(٢) الدلائل ١٩٩ .
(٣) الصاحبي ١٦٥ .
(٤) النقائض ١٧٠/١ .

ولا شرط ولا زمان ولا عدد ولا شيء يشبه ذلك ، والتقييد : أن يذكر بقرين من بعض ما ذكرناه ، فيكون ذلك القرين زائداً في المعنى . من ذلك أن يقول القائل (زيد ليث) فهذا إنما شبهه بليث في شجاعته ، فإذا قال (هو كالليث الحرب) فقد زاد الحرب وهو الغضبان الذي حرب فريسته أي سلبها ، فإذا كان كذا كان أدهى له ومن المطلق قوله : ترائبها مصقولة كالسجنجل .

فشبه صدرها بالمرآة ، لم يزد على هذا ، وذكر ذو الرمة أخرى فزاد في المعنى حتى قيد فقال :

ووجه كمرآة الغريبة أسجح

فذكر المرآة كما ذكر امرؤ القيس السجنجل ، وزاد الثاني ذكر الغريبة فزاد في المعنى ، وذلك أن الغريبة ليس لها من يعلمها محاسنها من مساويها فهي تحتاج أن تكون مرآتها أصفى وأنقى لتريها ما تحتاج إلى رؤيته من سنن وجهها ». ويمضي ابن فارس على هذا النحو يعرض علينا أبياتاً فيها تشبيه مقيد بوصف من الأوصاف ، ويبين أثر هذا القيد مما لم نعرفه عند أبي عبيدة أو غيره من السابقين ، وهو في ذلك لم يشر إلى أنه استقاه من أحد من العلماء حتى يمكن أن نرد الفضل إليه . فذكر التشبيه المطلق والمقيد ، وأثر القيد في الكلام يعد بلا ريب من حسنات ابن فارس .

٩ ـ يفرق عبد القاهر بين التشبيه والتمثيل : [١] .

فالتشبيه : هو الذي لا يحتاج فيه إلى تأول كتشبيه الشيء المستدير بالكرة من جهة الشكل ، والخد بالورد من جهة اللون ، والقامة بالرمح من جهة الهيئة ، وصوت الرجل بالفراريج من جهة الصوت ، والفاكهة بالسكر من جهة الذوق ، والبشرة الناعمة بالحرير من جهة الملمس ، ورائحة بعض الرياحين

---

(١) الأسرار ١٠٠ .

برائحة الكافور من جهة الشم .

ويدخل في هذا النوع من التشبيه ما كان من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة ، والأخلاق كلها في الغريزة نحو السخاء والكرم واللؤم .

فالشبه في هذا كله بيّن واضح لا يفتقر إلى تأويل ، لشدة وضوحه ، وسهولة تحصيله ، وأي تأول يجري في مشابهة الخد للورد في الحمرة ، وأنت تراها ههنا كما تراها هناك ؟ وكذلك تعلم الشجاعة في الأسد كما تعلمها في الرجل .

والتمثيل : هو الذي يجري بضرب من التأول ، وهذا التساؤل يتفاوت تفاوتاً شديداً .

١ ـ فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه ، كقولك حجة كالشمس في الظهور ، فالشبه هنا لا يتم إلا بتأول ، وهو أن الحجة ليس ثمة مانع من العلم بها ، أو التوقف عندها ، أو الشك فيها أو انكارها ، كما أن الشمس الطالعة وليس بيننا وبينها سحب أو حجب ، لا يشك فيها ذو بصر ، ولا ينكرها ذو حس ، فالشبه الذي اثبتناه بين الحجة والشمس يحتاج في تحصيله إلى مثل هذا التأول .

٢ ـ ومنه ما يحتاج إلى قدر من التأمل كقولهم : ألفاظ كالماء في السلاسة وكالنسيم في الرقة ، وكالعسل في الحلاوة ، أي أنه واضح ليس فيه غرابة أو تنافر ، فأشبه الماء الذي يسوغ في الحلق ، والنسيم الذي يسري في البدن ، والعسل الذي يميل إليه بالطبع ، ففي هذا النوع شيء من التلطف ، وحاجته إلى التأول أشد من الضرب الأول .

٣ ـ ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج في إستخراجه إلى النظر والتأمل والتفكير .

كما في قول كعب الأقشري يصف للحجاج أبناء المهلب (بأنهم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها) فوجه الشبه هنا يحتاج إلى شيء من الدقة والتأمل فالحلقة مستديرة ولا يعقل أن يصف أبناء المهلب بالاستدارة شأن الحلقة ، ولكننا نصل إلى وجه الشبه المراد بشيء من التلطف والتحايل ، وفكر يرتفع عن طبقة العامة حتى نعرف أن المراد هو أنهم سواء في قدراتهم وملكاتهم وطباعهم بحيث لا نستطيع أن نميز أحدهم عن الآخر .

ويصل عبد القاهر من هذه التفرقة بين التشبيه والتمثيل إلى أن التمثيل أخص من التشبيه ، فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلاً ، « ولعل الذي دعاه إلى هذا التقسيم أنه وجد بعض أنواع التشبيه يمتاز بالدقة واللطف ، والحاجة إلى شيء من الترفق وحسن التأني ، وبعضها ليس بهذه المثابة. . . فأراد أن يفرق بين الضربين ليخص هذا الضرب باسم التمثيل ليبين أسباب امتيازه وتأثيره في النفوس »[1] .

والتشبيه التمثيلي عند عبد القاهر ليس هو التشبيه المركب[2] . وغير التمثيلي هو ما خلا من التركيب كما عهدناه عند المتأخرين ، واستقرت عليه كتب البلاغة ، بل التشبيه هو ما لا يحتاج إلى تأول وإن كان مركباً ، فقول ابن المعتز :

وأرى الثريا في السماء كأنها   قدم تبدت من ثياب حداد

تشبيه عند عبد القاهر وليس تمثيلاً رغم أنه مركب من شيء أبيض لامع ينبعث من سواد ، لأنك قد شبهت المبصرات بعضها ببعض مما لا يحتاج إلى تأويل أو تفكير بخلاف قوله :

---

(١) عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده ١٣٣ د. مطلوب ط ـ بيروت . وأنظر أيضاً دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر ٢٦ عبد الهادي العدل.

(٢) الأسرار ١٠٨ ـ ١٠٠ .

اصبـر على مضض الحسـو ـد فـإن صـبـرك قـاتـلهْ
فـالـنـار تـأكـل نـفـسـهـا إن لـم تـجـد مـا تـأكـلهْ

فهذا تمثيل ، لأن تشبيه الحسود إذا صبر عليه وسكت عنه ، وترك غيظه يتردد فيه ، بالنار التي لا تمد بالحطب حتى يأكل بعضها بعضاً ، مما يحتاج إلى تأويل ، وهذا واضح ظاهر . فكل ما احتاج إلى تأول فهو تمثيل عند عبد القاهر ، وإن كان مفرداً لا تركيب فيه ، كما في الأمثلة السابقة التي ساقها الينا مثل : حجة كالشمس في الظهور ، وألفاظ كالماء في السلاسة فهذه الأمثلة تشبيه مفرد بمفرد ، وليس تشبيه مركب بمركب ، ولكنها في نظر عبد القاهر تمثيل ، لأنها تفتقر إلى شيء من النظر والتفكير والتأويل .

فالتشبيه يشمل المفرد والمركب ما دام لا يفتقر إلى تأويل .
والتمثيل يشمل المفرد والمركب أيضاً ما دام يفتقر إلى التأويل .

والمراد بالمركب ما ينتزع من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها الشبه ، فيكون سبيله سبيل الشيئين يمزج أحدهما بالآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لها في حال الأفراد ، لا سبيل الشيئين يجمع بينهما وتحفظ صورتهما[1] وكأنه بذلك يضع لنا حداً فاصلاً بين المركب والمفرد من جهة ، وبين المركب والمتعدد من جهة أخرى « كما إذا قلت زيد كالأسد بأساً ، والبحر جوداً ، والسيف مضاء ، والبدر بهاء ، بل لو بدأت بالبدر وتشبهه به في الحسن ، وأخرت تشبيهه بالأسد في الشجاعة كان المعنى بحاله . ويزيد التشبيه المتعدد وضوحاً في موضع آخر من الكتاب وبياناً للفرق بينه وبين المركب فيقول : وذلك أن يكون الكلام معقوداً على تشبيه شيئين بشيئين ضربة واحدة إلا أن أحدهما لا يداخل الآخر في الشبه ، ومثاله قول امرىء القيس :

---

(١) الأسرار ١١٣ .

كأن قلوب الطير رطباً ويابسا لدى وكرها العنّاب والحشف البالي[1]

ولكن التشبيه الذي هو الأولى بأن يسمى تمثيلاً لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة الكلام ، أو جملتين ، أو أكثر ، حتى إن التشبيه كلما كان أوغل في كونه عقلياً كانت الحاجة إلى الجملة أكثر[2].

والتمثيل الذي يجيء في أعقاب المعاني[3] يرفع من أقدارها ، ويحرك النفوس لها ، ويدعو القلوب إليها ويضرب لذلك الأمثلة فيقول :

وانظر إلى قول البحتري في هذا البيت :

دان على أيدي العُفاة وشاسعٌ عن كلِ ندٍّ في الندى وضريب

وفكر في معناه لا تجد له من التأثير في نفسك وتوقيره لأنسك ما تجده لو عقبته بالبيت الذي يليه :

كالبدر أفرط في العلو وضوؤه للعصبة السارين جِدّ قريب

ويفتش عن العلل والأسباب التي تدعو لهذا التأثير للتمثيل إذا وقع في أعقاب المعاني ، فيراها في أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي ، وان تنقلها من العقل إلى الإحساس ، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام ، مما يفيد الصحة ، وينفي الريب والشك[4].

ويذكر أيضاً أن التمثيل أخص شيء بتصوير الشبه بين المختلفين في

---

(١) الأسرار ٢٢٠ .
(٢) الأسرار ١٢٢ - ١٢٣ .
(٣) الأسرار ١٢٨ .
(٤) الأسرار ١٣٦ - ١٣٩ .

الجنس ، والتشبيهات سواء كانت عامية مشتركة أم خاصية مقصورة على قائل دون قائل ، تراها لا يقع بها اعتداد ، ولا يكون لها موقع من السامعين ، ولا تهز ولا تحرك ، حتى يكون الشبه مقرراً بين شيئين مختلفين في الجنس[1] ولذلك تجد البنفسج في قول الشاعر :

ولاز وردية تـزهـو بـزرقـتـهـا   بين الـرياض على حمر اليواقيت
كـأنهـا فـوق قـامـات ضعفن بهـا   أوائـل النـار في أطـراف كبـريت

وهو يشبه نباتاً غضاً يرف ، وأوراقاً رطبة ترى الماء منها يشف ـ بلهب نار مستول عليه اليبس ، أغرب وأعجب ، وأحق بالولوع وأجدر ، من أنه لو شبه البنفسج نفسه ببعض النبات فلن تجد له هذه الغرابة ، ولن ينال من الحسن هذا الحظ ، لأنه صور الشيء بالشيء في جنسه وشكله .

ونراه يقرر أن الحسن لا يجري في كل تشبيه لمجرد اختلاف الطرفين في الجنس ، وإنما هناك قيود وشروط لا بد من مراعاتها في هذا التأليف بين الأشياء المختلفة وهي « أن تصيب بين المختلفين في الجنس وفي ظاهر الأمر شبهاً صحيحاً معقولاً . . . فأما أن تستكره الوصف ، وتروم أن تصوره حيث لا يتصور ، فلا ، لأنك في ذلك تكون بمنزلة الصانع الأخرق يضع في تأليفه وصوغه الشكل بين شكلين لا يلائمانه ولا يقبلانه ، فتخرج الصورة مضطربة فيها نتوء ونفور . . وإنما المراد أن هناك مشابهات خفية يدق المسلك إليها ، فإذا تغلغل فكرك إليها فقد استحققت الفضل »[2] .

وهكذا نجد عبد القاهر يتميز بالتحليل والعمق والاستقصاء فيما يعرض لنا من صور بلاغية ، وفيما يتناول من فروق بين الشيء ، وبين ما نظن أنه مثله

---

(١) الأسرار ١٤٦ ـ ١٤٨ .
(٢) الأسرار ١٧٤ ـ ١٧٥ .

حيث يبرز لنا الفرق واضحاً جلياً ، وهو يسترسل ويدقق ويفصل ويضيء لنا البحث من جميع جوانبه ، بحيث لا يدع شيئاً إلا وقد وفاه حقه من العرض والتحليل ، لذلك كان عبد القاهر قمة شامخة من القمم البلاغية ، بل هو في الذروة العليا من هذه القمم إذا قيس باضرابه وأنداده من العلماء وأهل الفن .

وهكذا نجد عبد القاهر في كل ما يتناول من مسائل التشبيه وفروعه مبتكراً أو مجدداً » وقد جدد في عرضه وتقديمه لآراء الآخرين بعد أن استفاد منها وامتزج بها ، وامتزجت به ،وأعطاها من روحه مما جعلها تبدو كأنها ملك له وحده لم يشركه فيها إنسان ، لطغيان شخصيته ، وسيطرته على الفكرة ، وقدرته على التعبير[١] .

(١) التشبيه بين عبد القاهر وابن الأثير ١٠٧ ، د. الكردي .

التشبيه والجانب البياني

التشبيه عرفه جماعة بأنه الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى وقال آخرون : أن يثبت للمشبه حكماً من أحكام المشبه به .

أو : إلحاق صاحب وصف غير بين وصفه ، بصاحب وصف مشتهر به بواسطة حرف يدل على ذلك ظاهر أو مقدر(١) .

أو هو : إخراج الأغمض إلى الأظهر(٢) .

والتعريفات كلها ذات مضمون واحد إلا أن التعريف الأول هو التعريف المصطلح عليه في كتب البلاغة . ونقتصد به الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى ، فالأمر الأول هو المشبه ، والثاني هو المشبه به ، ويسميان طرفين ، والمعنى المشترك بينهما هو وجه الشبه ، ولا بد من شيء يدل على التشبيه وهو الأداة ، إذن أركان التشبيه أربعة : المشبه ، المشبه به ، والأداة ، ووجه الشبه . وبهذه الأركان يتم التشبيه .

وينقسم التشبيه باعتبار الطرفين إلى أربعة أقسام :

الأول تشبيه محسوس بمحسوس .

---

(١) شرح المقدمة الأدبية ٨٣ .

(٢) بديع القرآن ٥٨ .

الثاني : تشبيه معقول بمعقول .

الثالث : تشبيه معقول بمحسوس

الرابع : تشبيه محسوس بمعقول .

١ ـ تشبيه المحسوس بالمحسوس

قوله تعالى ﴿ وَالقَمَرَ قَدَّرنهُ مَنَازِلَ حَتّى عَادَ كَالعُرجُونِ القَدِيمِ ﴾[١] أي قدرنا سير القمر في منازل حتى إذا كان آخر منازله دق وتقوس حتى صار كأعواد النخيل العتيقة اليابسة ، فقد شبه القمر بالعرجون في دقته وتقوسه واصفراره ، والطرفان وهما القمر والعرجون حسيان .

وقوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إنَّا أَرسَلنَا عَلَيهِمْ رِيحَاً صَرصراً فِي يَومِ نَحسٍ مُستَمِرٍ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُم أَعجَازُ نَخلٍ مُنقَعِرٍ ﴾[٢] .

أي كأنهم حين تقلعهم الريح من الحفر ، وترميهم صرعى ، جذور نخل منقلع من مغارسه ، ساقط على الأرض ، وشبهوا بها ، لأن الريح كانت تقلع رءوسهم فتبقيهم أجساداً بلا رءوس ، وكانوا ذوي أجساد عظام طوال . فالمشبه هنا عاد وهم قوم هود ، والمشبه به أعجاز النخل ، وهما حسيان .

ومنه قوله تعالى ﴿ وَيَستَعجِلونَكَ بِالعَذَابِ وَلَن يُخلِفَ اللهُ وَعدَهُ ، وَإنَّ يَوماً عِندَ رَبِّكَ كَألفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾[٣] .

أي وإن يوماً عند ربك من أيام العذاب في الثقل والاستطالة كألف سنة مما يعد البشر ، فكيف يستعجلونك بالعذاب لولا أنهم جهال ، وهذا

---

(١) يس ٣٩ .

(٢) القمر ١٨ ـ ٢٠ .

(٣) الحج ٤٧ .

كقولهم : أيام الحزن طوال ، وأيام السرور قصار . فمقدار العذاب في ذلك اليوم لشدته وعظمه كمقدار عذاب ألف سنة من أيام الدنيا .

وقوله تعالى ﴿ وَيَومَ يُنفَخُ في الصُّورِ فَفَزِعَ مَن في السَّمٰوَاتِ وَمَن في الأَرضِ إلاَّ من شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوهُ دَاخِرِينَ * وَتَرىٰ الجِبالَ تَحسَبُها جَامِدَةً وَهي تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنعَ اللهِ الذِي أتقَنَ كُلَّ شَيءٍ ﴾[1] .

يريد أن الجبال من هول ذلك اليوم تزول عن مواضعها ، فلا يكون لها ثبات ، وإنما تمر في الجو مر السحب التي تسيرها الرياح سيراً حثيثاً ، وذلك تعبير عن شدة الأمر ، وهول الموقف عند النفخ في الصور وبعث الأموات ، ورغم سيرها إلا أنك تحسبها جامدة كأنها غير زائلة لتناسب سيرها واستواء مدها فحركة الجبال والسحاب مما يقع تحت الحس .

وقال تعالى ﴿ قَد يَعْلَمُ اللهُ المُعَوِّقِينَ مِنكُم وَالقَائِلينَ لإخوَانِهِم هلُمَّ إلَيْنا وَلا يَأتُونَ البَأسَ إلاَّ قَليلاَ * أَشِحةً عَلَيكُم فَإذا جَاءَ الخَوفُ رَأَيتَهُم يَنظُرونَ إلَيكَ تَدورُ أَعيُنُهُم كَالذي يُغشَىٰ عَليهِ مِنَ المَوتِ فَإذَا ذَهَبَ الخَوفُ سَلَقُوكُم بِألسِنَةٍ حِدادٍ ﴾[2] .

كان عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه يعوقون المؤمنين يوم الخندق عن المقام مع رسول الله ﷺ ، ويصرفونهم عن نصرته ، فإذا أحاط بهم الخوف من العدو نظروا إلى الرسول مذعورين تدور أعينهم يميناً وشمالاً دون أن تطرف ، كما تدور عينا الذي تغشاه سكرات الموت لذهوله وشدة خوفه ، فشبه دوران عيني الخائف بدوران عيني الذي تغشاه سكرات الموت ، وهذا التشبيه أبلغ في وصف الخائف من جميع الأوصاف وأوقع التشبيهات لمثل هذه الحال .

---

(١) النمل ٨٧ ـ ٨٨.
(٢) الأحزاب ١٨ ـ ١٩ .

وقوله تعالى ﴿ يعمَلونَ لَهُ مَا يَشاءُ مِن مَحارِيبَ وَتماثيلَ وَجِفَانٍ كَالجَوابِ وَقُدورٍ راسِيَاتٍ. . . ﴾[1] .

فشبه القصاع الكبار بالحياض العظام في سعتها وضخامتها ، وكلاهما محسوس .

وقوله تعالى ﴿ وَعِندَهُم قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيضٌ مَكنُونٌ ﴾[2] أي قصرن أبصارهن على أزواجهن لا يمددنها إلى غيرهم لعفتهن وحيائهن ، ولفرط محبتهن لأزواجهن ، كما وصفهن باتساع العيون وحسنها ، فشبه نساء أهل الجنة ببيض النعام المكنون : فلم تمسه الأيدي ، ولم يصبه الغبار لحسنه وصفائه ورونقه ، والطرفان حسيان .

وقوله تعالى ﴿ أَذلِكَ خَيرٌ نُزُلاً أم شَجَرَةُ الزَّقُومِ * إنَّا جَعَلنَاهَا فِتنَةً لِلظَّالِمينَ * إنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ في أصلِ الجحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءوسُ الشَّياطِينِ ﴾[3] والمعنى : أذلك الرزق المعلوم المعد لأهل الجنة خير ، أم شجرة الزقوم المعدة لأهل النار ؟ قال ابن عباس : كان لأهل مكة جبال قبيحة المنظر ، وكانوا يسمونها رءوس الشياطين لقبحها إذا نظروا إليها ، فشبه لهم ثمر الزقوم في المنظر بتلك الجبال ، فيكون الطرفان حسيين باعتبار الأشجار والجبال ، وقطع النظر عن هذه الشجرة التي لم يرها أحد إذ لا وجود لها في الدنيا ، وإنما يخلقها الله في النار ، وعن رءوس الشياطين التي لم يرها أحد

---

(١) سورة سبأ آية ١٣ .
المحراب : المكان المرتفع ، وموضع وقوف الامام في المسجد .
والجفان : جمع جفنة وهي : القصعة الكبيرة المتسعة .
والجواب : جمع جابية وهي : الحوض الضخم الذي يجبي : أي يجمع فيه الماء .
والقدور : التي يطبخ فيها الطعام فلا تحرك لضخامتها وثقلها .

(٢) الصافات ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) الصّافات ٦٢ ، ٦٥.

حتى يصف بها شجرة الزقوم . ويجوز أيضاً أنه شبه ما تناهى قبحه ، وبشع منظره بما يتخيله الوهم وإن لم يروه كوجه الشيطان ، أو رأسه ، وذلك حملاً على مذهب العرب في تسميتهم كل ما يستعظمونه شيطاناً ، فشبهوا بالشياطين على سبيل التهويل كقول امرىء القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

والغول : الشيطان ، يعني كأنياب الشياطين على سبيل التهويل[1] .

ومثله أيضاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالمُهلِ يَغلِي في البُطُونِ * كَغَلْيِ الحَمِيمِ ﴾[2] .

فشبه شجرة الزقوم بالنحاس المذاب بفعل النار ، وهو مهل ، لأنه يمهل في النار حتى يذوب ، وهم يصفون كل مذموم من الطعام بأنه يغلي في البطون : كأكل الربا والغصب ونحوه ، والطعام لا يغلي في البطون حقيقة ، وإنما هو مجاز كما تقول : الحقد يغلي في قلبه ، والعداوة تغلي في صدره .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدخِلُ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحتِها الأَنهَارُ وَالَّذينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأكُلُونَ كما تَأكُلُ الأَنعَامُ وَالنَّارُ مَثْوَى لَهُم ﴾[3] فشبه الكفار بالأنعام في التمتع بالأكل ، فهم يأكلون عن شره ونهم كشأن البهائم ازدراء لهم ، وتحقيراً لحالهم ، ووصفهم بالدناءة والبطنة مما تذمه العرب وتبغضه .

وقوله تعالى ﴿ خُشَّعاً أَبصَارُهُم يَخرُجُونَ مِن الأَجدَاثِ كَأَنَّهُم جَرادٌ مُنتَشِرٌ ﴾[4] وصف القرآن المشركين حين خروجهم من القبور بأن أبصارهم

---

(١) الجمان في تشبيهات القرآن ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٢) الدخان ٤٣ ـ ٤٦ .

(٣) محمد ١٢ .

(٤) القمر ٤ .

ذليلة من شدة الهول ، وشبههم بـالجراد المنتشـر في الكثرة والتمـوج ، والانتشار في الأقطار حين يتوجهون إلى المحشر .

ومثله قوله تعالى : ﴿ يَومَ يَكُونُ النَّاسُ كَالفَراشِ المَبثُوثِ * وَتَكُونُ الجِبالُ كَالعِهنِ المَنفُوشِ ﴾[1] .

والفراش هو الطير الدقيق الذي يتهافت على النار حتى يحترق ، فقد شبه القرآن الناس يوم القيامة وتطايرهم إلى الداعي حين يدعوهم إلى المحشر ، بالفراش المتطاير إلى النار في كثرتهم ، وانتشارهم ، وذلتهم ، وضعفهم ، واضطرابهم ، وشبه الجبال بالصوف المندوف في خفة طيرانه ، والطرفان محسوسان في الآيتين الكريمتين .

وقوله تعالى ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلصَالٍ كَالفَخَّارِ ﴾[2] .

أي خلقه من طين يابس يشبه الفخار ، وهو الخزف المجوف المطبوخ .

وقوله تعالى ﴿ وَلَهُ الجَوارِ المُنشَآتُ في البَحرِ كَالأَعلامِ ﴾[3]

أي وله السفن الجاريات في البحار ، المرفوعات القلوع كالجبال الشاهقة وإنما شبه القرآن سفن البحر بالأعلام ، لأنه أراد المراكب الكبار التي تقطع البحر ، وهي أشبه شيء بالجبال .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَت وَردَةً كَالدِّهانِ ﴾[4].

والمعنى : إذا تصدعت السماء بدت مثل الوردة في الحمرة ، أو مثل الدهان ـ وهو الأديم الأحمر أو دهن الزيت حين يذوب من حرارة جهنم ـ

---

(1) القارعة ٤ ، ٥ .
(2) الرحمن ١٤ .
(3) الرحمن ٢٤ .
(4) الرحمن ٣٧ .

فالمشبه وهو السماء ، والمشبه به وهو الوردة ، أو الأديم أو الدهن ، وكلاهما حسي .

وقوله تعالى ﴿ كَأَنَّهُنَّ اليَاقُوتُ وَالمَرجَانُ ﴾[1] .

أي : كأنهن الياقوت في صفاء اللون ، والمرجان في الحمرة ، والمرجان صغار اللؤلؤ .

ومثله أيضاً : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمثَالِ اللُّؤلُؤِ المَكنُونِ ﴾[2].

شبه نساء أهل الجنة في صفاء بياضهن وحسنهن باللؤلؤ المصان في أصدافه فلم تمسه الأيدي ، ولم تقع عليه الشمس والهواء فكان في نهاية الصفاء .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلونَاهُمْ كَما بَلونَا أَصحَابَ الجَنَّةِ إِذ أَقسَموا لَيصرمُنَّها مُصبِحينَ * وَلَا يَستَثنُونَ * فَطافَ عَليها طَائفٌ مِن رَبِّكَ وَهُم نَائمونَ * فَأَصبَحَت كَالصَّريمِ ﴾[3] .

أي اختبرنا أهل مكة بالقحط والجوع كما اختبرنا أصحاب بستان بأرض اليمن ورثوه عن أبيهم ، وكان يؤدي للمساكين حق الله فيه ، فأرادوا أن يمتنعوا عن التصدق منها خشية أن يضيق بهم الحال ، وحلفوا أن يقطعوا ثمارها قبيل الصباح عند أول خيط من خيوط الفجر ، فعاقبهم الله على ما بيتوا من الغدر وأنزل على البستان البلاء وهم نائمون حتى صار كالليل ، أو كالبستان الذي حرقت ثماره ولم يبق منه شيء ، فشبه جنتهم بالصريم وهو : الليل البهيم في احتراقها وسوادها ، وسمى الليل صريماً ، لأنه يصرم أي :

---

(١) الرحمن ٥٨ .

(٢) الواقعة ٢٢ ، ٢٣.

(٣) القلم ١٧ ، ٢٠ .

يقطع عن التصرف . فالجنة وهي البستان ، والصريم ـ سواء أردنا به الليل أو البستان الذي لا ثمر فيه ـ كلاهما حسي .

وقال تعالى في شأن يوم القيامة :

﴿ إنَّهم يَرونَه بَعيداً * ونَراهُ قَريباً * يَومَ تَكونُ السَّماءُ كَالمُهلِ * وتَكُونُ الجِبَالُ كَالعِهنِ ﴾[1] .

أي : يوم تكون السماء كالزيت المغلي ، أو المعادن المذابة على مهل ، والعرب تذكر تغير السماء في شدة الأمر وصعوبته ، وما يعهدونه من أحوالهم مثل الجدب والحرب ونحو ذلك . وتكون الجبال بألوانها المختلفة كالصوف الملون ، فاذا طارت في الجو ، أشبهت الصوف المنفوش إذا طيرته الرياح ، والمراد : أن الجبال في ذلك اليوم تتهافت من خشية الله ، وتنهال خشوعاً لقدرته وما ظهر من أمره ، فتشبيه السماء بالمهل ، والجبال بالعهن كلاهما تشبيه حسي بحسي .

وقال تعالى في وصف جهنم ﴿ إنَّها تَرمي بِشَرَرٍ كَالقَصرِ * كَأنَّهُ جِمَالَةٌ صُفرٌ ﴾[2] .

والمعنى : أن شرر النار يتطاير من جهنم في كل مكان ، وكل شرارة منها أشبه بالقصر ـ وهو البناء العالي أو الشجر الغليظ ـ في عظمه وارتفاعه ، أو مثل الجمال السوداء التي تضرب إلى الصفرة ، فشبه الشرر حين ينفصل من النار في عظمه بالقصر ، وحين يأخذ في الارتفاع والانبساط لانشقاقه وتشعبه عن أعداد غير محصورة بالجمالة الصفر في اللون ، وسرعة الحركة ، والكثرة ، والانشقاق ، والتتابع ، إذ كان ذلك من شأن هذه الإبل عند

---

(١) سورة المعارج آية ٦ ـ ٩.

(٢) سورة المرسلات آية ٣٢ ـ ٣٣ .

اجتماعها وتزاحمها ، واضطراب أمرها ، وهذه كلها أمور حسية . ومغزى التشبيه بالشرر هو التأكيد والتخويف من النار التي ترمي به ، تعظيماً لشأنها ، وإرهاباً للكافرين من سطوتها .

وقال تعالى في أصحاب الفيل ﴿ أَلَم تَرَ كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصحَابِ الفِيلِ * أَلَم يَجعَل كَيدَهُم في تَضلِيلِ * وَأَرسَلَ عَليهِم طَيراً أَبابيلَ * ترمِيهِم بِحجارَةٍ مِن سِجيلٍ * فَجَعلهُم كَعَصفٍ مَأكُولٍ ﴾[1] .

أصحاب الفيل : هم جيش الحبش الذي قدم مكة لهدم الكعبة الشريفة بقيادة أبرهة الأشرم الحبشي ، ومعه الفيل ، فأهلكه الله وأهلك جيشه حين سلط عليهم طيراً من جهة السماء تجيء من كل ناحية يتبع بعضها بعضاً في جماعات عظيمة ترميهم بحجارة معها شيء كالحمصه تصيب أحدهم فتهلكه ، وتقطع أبرهة أنملة أنملة فشبههم بالعصف المأكول ـ وهو قشر البر ـ لخلوه من ثمره وتطايره ، أو شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث الذي أكلته الدواب وراثته ، فهو من تشبيه المحسوس بالمحسوس .

٢ ـ تشبيه معقول بمعقول

نحو تشبيه المرض الشديد بالموت ، والعافية بالملك ، والفقر بالكفر ، والسفر بالعذاب ، والضلال عن الحق بالعمى ، والاهتداء إلى الخير بالإبصار ، والسؤال للخلق بالموت . قال الزركشي :

ومنه قوله تعالى ﴿ ثُم قَسَتْ قُلوبُكُم مِن بَعدِ ذٰلكَ فَهيَ كَالحِجَارَةِ أَو أَشدُّ قَسوَة وَإِنَّ مِن الحِجَارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنهُ الأَنهارُ وَإِنَّ مِنهَا لَما يَشَّقَّقُ فَيخرُجَ مِنهُ الماءُ ، وَإِنَّ مِنها لَما يَهبِطُ من خَشيَةِ اللهِ ﴾[2] .

---

(١) سورة الفيل آية ١ ـ ٥ .

(٢) سورة البقرة آية ٧٤.

يصف قلوب بني إسرائيل بالغلظة والقسوة ، وذهاب اللين منها والرقة ، ثم يبين الله سبحانه كيف كانت قولبهم أشد قسوة من الحجارة ، فبعض الحجارة يتفجر منه الأنهار ، وبعضها تنبع منه العيون ، وبعضها يخشع من مهابة الله ، أما قلوبهم فلا تعرف الرحمة أو الخشوع ، وشبه الله سبحانه قلوبهم في القسوة بالحجارة ، لأنها غاية في المثل . ويعترض السيوطي على وضع هذه الآية في تشبيه المعقول بالمعقول فيقول « وكذا مثل به ـ الزركشي في البرهان ، وكأنه ظن أن التشبيه واقع في القسوة ، وهو غير ظاهر ، بل هو واقع بين القلوب والحجارة فهو من تشبيه المحسوس بالمحسوس »(١) ورأى السيوطي أكثر وجاهة ، وأقرب إلى الصواب ، مما يفيد أن تشبيه المعقول بالمعقول لم يقع في تشبيهات القرآن الكريم .

٣ ـ تشبيه المعقول بالمحسوس

قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم أعمالُهُم كَرَمَادٍ اشتَدَّت بِهِ الرِّيحُ فِي يَومٍ عَاصِفٍ لَا يَقدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ ﴾(٢) .

شبه ما يعمله الكافرون في الدنيا من أعمال البر والخير مهما جلّ وعظم ، في إحباطه وذهابه ، لأنه قائم على غير أساس من الإيمان والإحسان ، وكونه لغير الله وعلى غير أمره ، بهذا الرماد الهش الذي لا يصمد أمام قوى الرياح العاتية العارمة فيتلاشى في جوفها الهادر(٣) . ووجه الشبه عدم ظهور أثر الشيء ورجاء نفعه إذا بني على أساس واه ، وأقيم على ركن ضعيف .

---

(١) المعترك ١/ ٢٧٠ ، والبرهان ٢/ ٤٢٠ .
(٢) سورة ابراهيم آية ١٨ .
(٣) أنظر أعلام الموقعين ١/ ١٤٧ ، والأمثال في القرآن ٦٦.

ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أعمالُهُم كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحسَبُهُ الظَّمآنُ مَاءً حَتىٰ إذا جَاءَهُ لَم يَجِدهُ شَيئاً وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوفَّاهُ حِسابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الحِسابِ * أو كَظُلماتٍ في بَحرٍ لُجّيٍّ يَغشَاهُ مَوجٌ مِن فَوقِهِ مَوجٌ مِن فَوقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ إذا أخرَجَ يَدَهُ لَم يَكَدْ يَراهَا وَمَن لَم يَجعَلِ اللهُ لَه نُوراً فَما لَه مِن نورٍ ﴾[1] .

حيث شبه أعمال البر والخير من الكافرين وظنهم أنها نافعة لهم ومنجية من عقاب الآخرة فتحبط أعمالهم ، وتخيب ظنونهم ، وتنقشع آمالهم بسراب يراهِ الظمآن في الفلاة ، وهو في شدة الحاجة إليه فيحسبه ماء فيعدو نحوه ، فلا يجد شيئاً ، فتتحطم آماله ، وتشتد حسراته ، فأعمال الكفار كهذا السراب يظن أنه الماء وليس به . وبعد أن شبه أعمال الكافرين الضائعة بالسراب الذي ليس بشيء ، شبه مرة أخرى سوء أعمالهم وحقد قلوبهم بهذه الظلمات في البحر الزاخر العميق تغطيه الظلمات ، ظلمة السحاب ، وظلمة الأمواج ، وظلمة البحر ، ظلمات بعضها فوق بعض ، ولشدة الظلمة لا يستطيع المرء أن يبصر يده بينها ، فقلوبهم وأعمالهم بمنزلة هذه الظلمة الكثيفة ، لا ينفذ منها شعاع من رحمة الله ، ومن لم يرد الله أن يهديه لنوره ، فما له من نور .

ومن تشبيه المعقول بالمحسوس قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الذِينَ اتَّخَذوا مِن دُونِ اللهِ أولياءَ كَمثَلِ العَنكَبوتِ اتَّخذَت بَيتاً وَإنَّ أوهَنَ البُيوتِ لَبَيتُ العَنكَبوتِ لَو كَانوا يَعلمُونَ ﴾[2] .

أي مثل هؤلاء الكافرين في اتخاذهم الأصنام آلهة يعبدونها ويعتمدون عليها ، ويرجون شفاعتها ونفعها ، كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتاً واهياً من نسجها لا يغني عنها في حر ولا قر ، ولا في مطر ولا أذى ، فشبه أعمال

---

(١) سورة النور آية ٣٩ - ٤٠ .

(٢) سورة العنكبوت آية ٤١ .

الكافرين الفاسدة ببيت العنكبوت الواهي الذي يقيمه من نسج مهلهل لا يثبت أمام هبة من ريح أو نسمة من هواء . فهو تشبيه أمر معنوي بأمر حسي .

ومنه قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الذِينَ حُمِّلوا التَّوراةَ ثُمَّ لَم يَحمِلوهَا كَمثَلِ الحِمارِ يَحمِلُ أسفاراً بِئسَ مَثَلُ القَومِ الذِينَ كَذَّبوا بِآياتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهدي القومَ الظَّالمينَ ﴾(١) ..

شبه اليهود الذين أوتوا التوراة وكلفوا العمل بمحتواها ، فأعرضوا عنها ، ولم ينتفعوا بها ، واستنكروا نبوة محمد عليه السلام وقد أمروا فيها بتصديقه واتباعه ، شبههم بالحمار الذي يحمل على ظهره أحمالاً من كتب العلم ، لا ينتفع بها ، ولا يعقل ما فيها ، وليس له إلا ثقل الحمل من غير فائدة ، فحملهم التوراة أمر معنوي المراد به القيام بما فيها ، وليس حملاً حسياً كالحمل على العاتق ، فهو من تشبيه المعنوي بالحسي .

٤ ـ تشبيه المحسوس بالمعقول

أما هذا الضرب من التشبيه فلم يقع في القرآن ، بل منعه الإمام أصلاً ، لأن الحس طريق إلى العقل ، والمحسوس أصل للمعقـول ، فلو شبهنا المحسوس بالمعقول ، لشبهنا الأصل بالفرع ، وهذا يستلزم جعل الأصل فرعاً ، والفرع أصلاً ، وهو غير جائز(٢) .

وهذا النوع من التشبيه وإن كان لم يقع في القرآن الكريم إلا أنه قد وقع في الشعر بإفاضة فمن ذلك قول أبي تمام :

وفتكت بالمال الجزيل وبالعدا   فتك الصبابة بالمحب المغرم

فشبه فتكه بالمال وبالعدا وذلك من الصور المرئية ـ بفتك الصبابة ،

---

(١) سورة الجمعة آية ٥ .

(٢) أنظر البرهان ٢/ ٤٢٠ ، والمعترك ١/ ٢٧١ .

وذلك أمر معنوي وليس محسوساً ، وهذا من لطيف التشبيهات ، وأرقها ، وأدقها ، وأدخلها في البلاغة ، ووجه البلاغة فيه : هو إلحاق المعاني بالأمور المحسوسة المدركة في الظهور والجلاء فيتحول المعقول إلى محسوس ، ويصير في الحقيقة كأنه تشبيه محسوس بمحسوس ، وهذا نهاية في المبالغة .

ومنه أيضاً قول الشاعر :

ولقد ذكرتك والظلام كأنه ... يوم النوى وفؤاد من لم يعشق

فقد شبه الظلام وهو شيء محسوس ، بيوم الفراق وفؤاد الذي لا يعشق ، وكلاهما أمر معنوي ، ولكنه أعطى المعنوي صورة الشيء المحسوس ، لأن يوم الرحيل وخاصة عند المحبين ، وفؤاد الذي لا يعرف العشق يتصف بالسواد ، فخلع عليهما صفة السواد أولاً ، ثم شبه بهما الظلام ، فكأنه شبه محسوساً بمحسوس .

ففي كل مثال تلحظ فيه تشبيه محسوس بمعقول ، أعط المعقول صفة المحسوس التي يشارك فيها المشبه أولاً ، فيصير المعقول كأنه محسوس ، فكأنك إذن أجريت التشبيه بين محسوس ومحسوس .

ومنه قول القاضي التنوخي :

وكأن النجوم بين دجاه ... سُنَنٌ لاح بينهن ابتداع

فوجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من وجود أشياء بيض مشرقة في جوانب شيء مظلم ، وليس الأمر كذلك في السنن والابتداع إلا على وجه التخييل ، أي تخيل ما ليس بمتلون في صورة المتلون ، وتوضيح ذلك أنه شبه النجوم بالسنن في النور ، والنور خيالي في السنن ، وشبه الدجى بالابتداع في الظلام ، وهو خيالي في الابتداع ، ثم تخيل السنة والبدعة شيئين محسوسين فيهما إنارة وظلمة كبياض الشيب في سواد الشباب مثلاً فصار كأنه شبه محسوساً بمحسوس .

وقول ابن بابك :

وأرض كـأخلاق الكـريم قـطعتهـا　　وقد كحل الليـل السماك فـأبصرا

فان الأخلاق لما كانت توصف بالسعة والضيق تشبيهاً لها بالأماكن الواسعة والضيقة ، تخيل أخلاق الكرام شيئاً له سعة ، وجعل أصلاً فيها ، فشبه الأرض الواسعة بها وقد وصف بشار اخلاق الرجال بالضيق فقال :

ولا ضـاق فضـل الله عن متعفف　　ولكن أخــلاق الـرجــال تـضيـق

وقول التنوخي :

فـانهض بنـار إلى فحم كـأنهمـا　　في العين ظلم وانصاف قد اتفقـا

فقد تخيل أن للظلم والإنصاف صفة السواد والإنارة ، فشبه النار والفحم مجتمعين بـالظلم والإنصـاف معـاً بعـد أن خلع عليهمـا صفـة الأشيـاء المحسوسة ، فكأنه شبه محسوساً بمحسوس .

ومنه قول الشاعر :

كأن انتضاء البدر من تحت غيمه　　نجـاء من البـأســاء بعـد وقــوع

فقد شبه انحسار البدر من تحت الغيوم ، بالخلاص من الشدة على سبيل التخييل ، فقد تخيل أن للنجاء ضياء البدر ، وللبأساء ظلام الغيم ، ثم أجرى التشبيه بعد أن خلع عليهما صفة المحسوسات .

ومنه قول الشاعر :

ورب ليــل كـأنــه املي فـيــك　　وقــد رحت عنـك بــالحـرمــان

وقوله :

يـا أيها القـاضي الذي نفسي لـه　　مع قـرب عهـد لقـائـه مشتـاقـة
أهـديت عـطراً مثـل طيب ثنـائـه　　فكـأنمـا أهـدى لـه أخـلاقـه

فجواز هذا النوع من التشبيه في الشعر يؤكد صحته عند شعراء العرب ،

وعدم وجوده في القرآن ليس دليلاً على عدم جوازه كما زعم الزركشي والسيوطي .

وجـه الشبه

ينقسم وجه الشبه إلى مفرد ، أو مركب ، أو متعدد .

فوجه الشبه المركب : هو ما كان هيئة منتزعة من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها وجه شبه ، فيكون حاله حال الشيئين أو الاشياء يمزج أحدهما بالآخر حتى تحدث صورة جديدة غير تلك الصورة التي عهدناها في حال الأفراد . فكل ما كان وجه الشبه فيه مركباً يطلق عليه البلاغيون التشبيه التمثيلي[١] .

أما المتعدد : فهو الذي ينظر فيه إلى عدة أمور ، ويقصد إشتراك الطرفين في كل واحد منها على انفراد ليكون وجه شبه .

والمفرد : ما ليس مركباً ولا متعدداً .

فتشبيه الخد بالورد في الحمرة ، والرجل بالأسد في الشجاعة ، والسفر بالميزان في تقدير الأمور ، وجه الشبه فيها مفرد ، ليس من عدة أمور مجتمعة فيكون مركباً ، ولا من عدة أمور متفرقة فيكون متعدداً .

أما وجه الشبه في قول الرسول عليه السلام (مثل الذي يعلم الخير ولا يعمل به ، مثل السراج الذي يضيء للناس ويحرق نفسه) فهو مركب ، لأن وجه الشبه منتزع من الهيئة المركبة من شيئين : نفع الآخرين وهدايتهم مع

---

(١) هذا يخالف ما ذهب إليه عبد القاهر ، فقد اعتبر التشبيه التمثيلي فيما يحتاج إلى تأول سواء كان مفرداً أو مركباً ، وما لا يحتاج إلى تأول ليس تمثيلاً عنده وإن كان مركباً . أنظر الفصل الذي كتبناه عن التشبيه والجانب التاريخي وعرضنا فيه لعبد القاهر من هذا البحث ص ٣٨ .

التضحية بالنفس ، ولا يصح أن يكون من أحد الشيئين ، نفع الآخرين وهدايتهم فقط ، أو من التضحية بالنفس فقط ، والاستغناء عن احدهما ، لأن ذلك يفسد المعنى ولا يؤدي القصد .

ووجه الشبه المتعدد فهو مثل : محمد كأبيه علماً وخلقاً ، وهند كالغزال ظرفاً وجيداً ، وكتشبيه فاكهة بأخرى في اللون والطعم والرائحة ، ومثله قول الشاعر :

مهفهف وجناته كالخمر لوناً وطعماً

فوجه الشبه هنا اللون مرة ، والطعم مرة أخرى ، وكل منهما منفصل عن الآخر وليس ممتزجاً به كما في وجه الشبه المركب الذي ينظر فيه إلى الهيئة مجتمعة .

وكقول أحمد بن دراج[1] .

متقحم الأهوال في ضنك الوغى فكأنَ نفْس عدوه في جسمهِ
كالموت غال بفجئه ، والليث صال ببأسه ، والسيل جاح بحطمه

يشبه ممدوحه بالموت في اغتياله المفاجىء ، وبالليث في صولته وبأسه ، والسيل في اجتياحه وتحطيمه كل ما يصادفه أو يقف في طريقه ، فوجه الشبه هنا متعدد ، ولو قدمت إحدى هذه الصفات على الأخرى لبقى التشبيه بحاله ، واحتفظت الصورة بقوامها دون أن تتأثر بهذا التقديم أو التأخير ، وذلك نظراً لأن الامتزاج بين أجزاء الصورة مفقود من أساسه حيث لم يرده الشاعر أو يقصد إليه ، على خلاف التركيب الذي نلحظه في التشبيه المركب يعمد إليه الشاعر عمداً ، فهو في التشبيه أساس وجوهر ، وترتب جزء على آخر أمر ضروري لا تستقيم الصورة بدونه ، ويبدو التشبيه المتعدد أكثر وضوحاً في

(١) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتاني ٢١٩ط بيروت .

عدم ترتب جزء منه على الآخر ، بل يمكن أن تضع أجزاءه حيثما اتفق دون أن تهتز الصورة أوِ يضعف تأثيرها في هذا المثال الذي ساقه يوسف بن هارون[1] .

أقول ولم أكمِلْ لهم وصفَ حسنه على رِسْلكم في حسته انقطع الوصف
هو الدر والمرجان والبدر والدجى هو الورد والسوسان والغصن والحِقْفُ

فوجه الشبه هنا متعدد لتعدد المشبه به ولو أنه قدم أحدها على الآخر مخالفاً الترتيب المذكور في البيت لما أصاب هذا التغيير الصورة بشيء من الخفوت أو طمس معالمها ، أو أفسد جمالها ، قدم الشطر الثاني على الشطر الأول وقل :

هو الورد والسوسان والغصنْ والحقف هو الدر والمرجان والبدر والدجى

فلن تلاحظ اختلافاً في النظم أو اعوجاجاً في القصد ، أو فساداً في الشكل .

ووجه الشبه سواء أكان مفرداً أم مركباً أم متعدداً إما أن يكون حسياً أو عقلياً .

فوجه الشبه الحسي ـ أي الذي يدرك باحدى الحواس الخمس ـ لا يكون طرفاه الاحسيين ، لأنه يدرك بالحواس ، فاذا كان أحد الطرفين معقولاً ، فلا سبيل إلى ادراكه بالحواس .

ووجه الشبه العقلي ـ وهو ما لا يدرك بالحواس ، يكون طرفاه حسيين أو عقليين أو مختلفين ، فمتى كان أحد الطرفين عقلياً تحتم أن يكون وجه الشبه عقلياً ، لأن العقل يمكنه إدراك المحسوسات ، بخلاف وجه الشبه الحسي فلا يتأتى إلا إذا كان الطرفان معاً حسيين .

---

(١) كتاب التشبيهات ١٣٧ .

أما وجه الشبه المتعدد فأحياناً يكون حسياً وأخرى عقلياً ، وثالثة مختلفاً يجمع بين الحسي والعقلي معاً .

١ - فوجه الشبه المفرد الحسي :

كتشبيه النجوم بالدر في اللمعان .

والصوت القوي بالضجيج في الارتفاع والدّويّ

والنكهة بالعنبر في طيب الرائحة .

والريق بالخمر في لذة الطعم .

والجلد الناعم بالحرير في لين الملمس .

ووجه الشبه المفرد العقلي والطرفان عقليان :

كتشبيه العلم بالحياة في النفع .

والجهل بالموت في عدم النفع .

ووجه الشبه المفرد العقلي والطرفان حسيان :

كتشبيه الصحابة بالنجوم في الاهتداء .

وأعمال الكافرين بالظلمات في التخبط والضلال .

أما تشبيه الكفر بالظلام في التخبط .

والايمان بالنور في الهداية .

فالطرفان مختلفان : المشبه عقلي والمشبه به حسي .

وتشبيه النجوم بالسنن في الهداية .

وتشبيه الدجى بالبدعة في الضلال .

فالطرفان مختلفان : المشبه حسي والمشبه به عقلي .

وخلاصة القول : أن وجه الشبه يكون عقلياً إذا كان الطرفان أو أحدهما عقلياً ، أما إذا كان الطرفان حسيين فيمكن أن يأتي وجه الشبه عقلياً ، ويمكن أن يأتي حسياً كما في الأمثلة السابقة .

٢ ـ ووجه الشبه المركب إما أن يكون حسياً أو عقلياً .

فمثال وجه الشبه من المركب الحسي قول ابن الحلاج :

وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى كعنقـود مُـلاّحِيّـةٍ حين نوّرا

فوجه الشبه هنا هو الهيئة الحاصلة من تقارب الصور البيض المستديرة ، الصغار المقادير في المرأى على كيفية مخصوصة إلى مقدار مخصوص . وهو مركب من سبعة أشياء : صور ، متقاربة ، بيض ، مستديرة ، صغار ، بكيفية مخصوصة ، بمقدار مخصوص ، وهي كلها مجتمعة في صور حسية .

وكقول ذي الرمة :

وسقط كعين الديك عاورت صاحبي أبـاهـا وهيـأنـا لمـوقعهـا وكـراً

فـالوجـه هو الهيئـة الحاصلة من الحمـرة والشكل الكـرى والمقدار المخصوص ، وهي صورة محسوسة .

وبيت بشار المشهور :

كـأن مثـار النقـع فـوق رءوسنـا وأسيـافنـا ليـل تتهـاوى كـواكبهْ

فوجه الشبه هنا هو الهيئة الحاصلة من هوى أجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقدار ، متفرقة في جوانب شيء مظلم ، فالوجه مركب في الذهن من سبعة أشيـاء تجمعت في صـورة واحـدة : هي صـورة الهـوى ، والأجسـام ، والاشراق ، والاستطالة ، والتناسب ، والتفرق ، والظلمة فجعل هيئة الغبار الأسود والسيوف البيض فيه كالكواكب في الظلمة .

وكالهيئة الحاصلة من تفرق أجرام متلألئة مستديرة ، صغار المقادير في المرأى ، على سطح جسم أزرق صافي الزرقة في قول أبي طالب الرقي :

وكـأن أجرام النجـوم لـوامعـاً درر نثـرن عـلى بسـاط أزرق

وكالهيئة الحاصلة من أجسام خضر مستطيلة وعلى رءوسها أجرام مبسوطة في قول الشاعر :

وكأن محمر الشقيق إذا تصوب أو تصعد
أعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد

فوجه الشبه هنا هو الحمرة المستعلية على الخضرة المستطيلة ، وهي صورة حسية .

وكذلك قول الشاعر :

يا صاحبي تقصيا نظريكما ترَيا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهاراً مشرقاً قد شابه زهر الربا فكأنما هو مقمر

فقد شبه النهار المشمس المشوب بزهر الربا بليل مقمر في النور المشوب بالظلمة ، وهي صورة حسية .

ومثال وجه الشبه من المركب العقلي :

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُم كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَم يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾(١) ، فانه شبه عمل الكافر الذي يضيع هباء ويروح سدى ، بعد أن يضع أمله فيه ، بسراب يراه الظمآن وقد غلبه العطش واستبد به الظمأ في الفلاة ، فيحسبه ماء فيسرع إليه فلا يجده ، فالوجه هنا منتزع من أمور جمع بعضها إلى بعض ، فقد روعي من الكافر توهمه نفع العمل ، وأن يكون للعمل صورة مخصوصة وهي صورة الصلاح ، وأنه لا يفيد في الآخرة شيئاً حيث يلقى فيها عكس ما يرجو ، فوجه الشبه هنا كون الشيء على وصف يتوهم نفعه ، وهو في حقيقته غير نافع بل ضار ، فالوجه عقلي غير مدرك بالحواس .

---

(١) سورة النور آية ٣٩ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الّذِينَ حُمّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ الله ، والله لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] ، فوجه الشبه عنا عقلي ، لأنه يفيد حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب في استصحابه ، وقد روعي في هذا الوجه جملة أمور هي : الحمل للأسفار التي هي أوعية للعلوم مع جهل الحامل بما فيها .

٣ ـ وجه الشبه المتعدد .

منه ما يكون حسياً : كتشبيه الوجه الجميل بالقمر في الاستدارة واللمعان .

ومنه ما يكون عقلياً : كتشبيه الرجل القوي بالأسد في الشجاعة والمهابة .

ومنه ما يجمع بين الحس والعقل : كتشبيه الانسان بالشمس في حسن الطلعة ، ورفعة الشأن .

التشبيه التمثيلي

هو ما كان وجه الشبه فيه مركباً أي : منتزعاً من أمرين أو عدة أمور امتزج أحدهما بالآخر حتى يستخرج من مجموعها صورة جديدة غير لتي كانت عليه في حال الإفراد .

والتشبيه غير التمثيلي : ما لم يكن وجه الشبه فيه مركباً ، أي : ليس وصفاً منتزعاً من متعدد .

والتشبيه التمثيلي كثير في القرآن الكريم ، فمن ذلك قوله تعالى :

﴿ إنَّ الذِينَ كَفَروا لَن تُغني عَنهُم أموالُهُم وَلاَ أولادُهُم مِنَ اللهِ شَيئاً وَأُولئِكَ هُم وَقُودُ النَّارِ * كَدَأبِ آلِ فِرعَونَ وَالذِينَ مِن قَبلِهِم كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

---

(١) سورة الجمعة آية ٥ .

فَأَخَذَهُم اللهُ بِذُنُوبِهِم وَاللهُ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾[1] .

أي حال هؤلاء في الكفر واستحقاق العذاب كحال آل فرعون والذين من قبلهم من الأمم ، فالآية تتضمن التشبيه لحال المشركين في اجتهادهم في كفرهم ، وتظاهرهم على النبي عليه السلام ، والتكذيب بآيات الله ، بحال آل فرعون في تظاهرهم على موسى عليه السلام ، وتكذيبهم بآيات الله التي جاء بها . فوجه الشبه مركب من أمور مجتمعة هي : الانغماس في الكفر ، وعداوتهم للنبي ، والتكذيب بآيات الله ، وليس من شيء واحد من هذه الأشياء ، ولذلك يسمى التشبيه تمثيلياً .

وقوله تعالى في شأن المشركين من عبدة الأوثان :

﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفعُنا وَلا يَضُرُنا ، وَنُرَدُّ على أَعْقَابِنا بَعْدَ إذْ هَدَانا الله كَالذِي اسْتَهْوَتهُ الشَيَاطِينُ في الأَرضِ حَيْرانَ لَهُ أَصحَابٌ يَدْعُونَه إلى الهُدى ائْتِنَا قُلْ إنَّ هُدَى الله هُوَ الهُدَى وأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾[2] أي : قل يا محمد لهؤلاء الذين يعبدون الأوثان من دون الله ، أندعو حجراً أو خشباً لا يقدر على نفعنا أو ضرنا ، وندع عبادة من بيده النفع والضر ، والحياة والموت ؟ إننا بذلك نرجع إلى الشرك الذي كنا فيه فيصبح حالنا مثل حال الذي ذهبت به الشياطين فألقته في الصحراء تائهاً ضالاً عن الطريق السوي لا يدري ما يصنع ، له رفقة تدعوه إلى الطريق المستقيم ، ولكنه لا يلتفت إليهم ولا يجيبهم ، فيظل سادراً في ضلاله ، وهنا تشبيه تمثيلي حيث شبه حال الملازمين للشرك رغم دعائهم إلى الإيمان بحال الذي يضل الطريق رغم دعوة أصحابه ليسير في الطريق السليم ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اتباع طريق الغي والضلال مع وضوح طريق الرشاد

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠ ـ ١١ .

(٢) سورة الانعام آية ٧١.

والهداية .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذِي يُرسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بينَ يَدَيْ رَحمَتِهِ حَتّىٰ إذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقالاً سُقنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلنَا بِهِ المَاءَ فَأَخرَجنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمرات كَذٰلِكَ نُخرِجُ المَوتَىٰ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ ﴾[1] أي : أننا كما أحيينا الأرض بعد موتها بانزال الماء عليها ، وإخراج النبات والثمرات منها ، نخرج الموتى من الأرض ونبعثهم أحياء في اليوم الآخر ، والتشبيه تمثيلي ، فوجه الشبه في إخراج الأموات باخراج النبات أن المنزلة فيهما سواء ، فالقادر على أحدهما قادر على الآخر في مقتضى العقل . وفي الآية احتجاج على من ينكر البعث .

وقوله تعالى في قصة رجل من بني اسرائيل أوتي علماً ببعض الكتب المقدسة ثم كفر بها ونبذها وراء ظهره ، وركن إلى الدنيا واطمأن إليها ﴿ وَاتلُ عَلَيهِم نَبَأَ الذينَ آتينَاهُ آيَاتِنَا فانسَلَخَ مِنها فَأَتبَعَهُ الشَّيطَانُ فَكَانَ مِن الغَاوين * وَلَو شِئنَا لَرفَعنَاهُ بِهَا وَلٰكِنَّهُ أَخلَدَ إلى الأَرضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلبِ إن تَحمِل عَلَيهِ يَلهَثْ أَو تَترُكْهُ يَلهَث ذٰلِكَ مَثَلُ القَومِ الذينَ كَذَّبوا بِآيَاتِنَا فَاقصُصِ القَصَصَ لَعلَّهُم يَتَفكَّرونَ ﴾[2] .

ومعنى التشبيه في الآية : أن الكافر التارك لآيات الله ، العادل عنها ، وقد سيطرت عليه مظاهر الحياة فلا يصلحه شيء ، كالكلب في لهثه : إن شددت عليه وأجهدته لهث وإن تركته على حاله لهث ، فهو دائم اللهث في كلتا الحالتين ، لأن اللهث طبيعة فيه ، ولو أغريته بكل شيء لم يتركه ولم ينزع عنه ، فكذلك حال الحريص على الدنيا إن وعظته فهو لحرصه لا يقبل الوعظ ، وإن تركت وعظه فهو حريص ، لأن الحرص طبيعة فيه ، كما أن

---

(١) سورة الاعراف آية ٥٧ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٧٥ ـ ١٧٦ .

اللهث طبيعة في الكلب ، وهذا من التشبيه التمثيلي ، لأن وجه الشبه مركب .

وقوله تعالى ﴿ وَمَثَلُ الذينَ كَفَروا كَمَثلِ الذي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسمَعُ إلاَّ دُعاءً وَنِداءً صُمٌ بُكمٌ عُميٌ فَهُم لاَ يعقِلونَ ﴾[1] ، أي : مثل الكافرين الذين يدعون آلهتهم وأوثانهم فلا تفقه من ورائها شيئاً كمثل الناعق الذي يصوت للأغنام فلا تفهم منه شيئاً ، ولا تسمع إلا دوي الصوت دون إلقاء فكر أو ذهن . وفي الآية تتجلى غفلة الداعي وعبث الدعوة ، كما تتجلى غفلة المدعوين ، واستحالة استجابتهم. . . وثمة تفسير آخر ، فقالوا : مثل داعي الكافرين الذين لا يستجيبون للدعوة لأنهم لا يعقلون ، كمثل الناعق بالأغنام والسوائم ، حتى لا تشرد أو تغيب عن بصره فتتعرض للهلاك . فتقدير الآية : مثل واعظ الذين كفروا كمثل الناعق بالأغنام في أن دعوته لا تفيد ، أو مثل الذين كفروا كمثل الأغنام المنعوق بها في عدم الاستجابة . وهو تشبيه تمثيلي ، لأن وجه الشبه مركب من عدم الاستجابة للدعوة ، والتفقه فيها ، والانتفاع بها مع تكرار الدعاء والنداء .

وقوله تعالى ﴿ إنَّما مَثلُ الحَياةِ الدُّنيَا كَماءٍ أنزَلنَاهُ مِن السَّماءِ فَاختَلطَ بِهِ نَباتُ الأَرضِ مِمَّا يأكُلُ النَّاسُ وَالأنعَامُ حَتَّى إذَا أَخَذَتِ الأَرضُ زُخرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أنَّهُم قَادِرونَ عَليهَا أتاهَا أمرُنا لَيلاً أو نَهاراً فَجَعلنَاهَا حَصيداً كَأن لَم تَغْنَ بِالأَمسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَتَفكَّرُونَ ﴾[2] .

شبه حال الدنيا وهي تسحر الناس وتبهرهم بما فيها من نعيم ومتاع ، وتخدعهم بما فيها من زخرف وضياء ، فيغرقون في ملذاتها بعد أن وهموا أنهم متحكمون فيها ، قادرون عليها ، ثم بغتة يدركون قصر زمانها وسرعة

---

(1) سورة البقرة آية ١٧١ .

(2) سورة يونس آية ٢٤ .

انقضائها وزوال ملذاتها ، وانها قد حيل بينهم وبينها ، شبه ذلك المعنى بصورة الأرض ينزل الغيث عليها ، فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر فيغتر به ، ويظن أنه قادر عليها ، مالك لها ، فتدركها الآفات بغتة وتصبح كأن لم تكن ، فيخيب ظنه ، ويفشل مراده ، فهكذا حال الدنيا وحال من يثق بها ويركن إليها » والتشبيه في الآية أحسن موقعاً ، وأبلغ معنى من جميع ما وصف به حال الدنيا وميل النفوس إليها »[١] .

ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿ وَاضرِبْ لَهُم مَثَلَ الحَياةِ الدُنيا كَماءٍ أَنزَلنَاهُ مِنَ السَّماءِ فَاختلطَ بِهِ نَباتُ الأَرضِ فَأصبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ مُقتَدِراً ﴾[٢] .

فهو يشبه حال الدنيا الفاتنة الفانية بحال النبات في نضرته وجفافه واذراء الرياح له فتفرقه وتنثره في كل مكان فلا ينتفع به .

ونظير الآيتين السابقتين في تشبيه حال الدنيا قوله تعالى ﴿ اعلَموا أَنَّما الحَياةُ الدُّنيَا لَعِبٌ وَلَهوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخرٌ بَينَكُم وَتكاثُرٌ في الأَموالِ والأَولادِ كَمَثلِ غَيثٍ أَعجَبَ الكُفّارَ نَبَاتُهُ ثُم يَهيجُ فَتَراهُ مُصفَرّاً ثُم يَكونُ حُطاماً وَفي الآخِرَةِ عَذابٌ شَديدٌ وَمغفِرةٌ مِنَ اللهِ وَرِضوانٌ وَمَا الحَياةُ الدُّنيَا إلاَّ مَتاعُ الغُرورِ ﴾[٣] .

فهو يشبه حال الدنيا وذهاب نعيمها وقلة نفعها للتنفير من الاستغراق في ملاذها وجعلها الهدف الأسمى ، بحال النبات الذي يخلب الأنظار بنضرته ، ثم يصفر فجأة بعد الخضرة ، وييبس بعد النضرة ، ويصبح حطاماً وهشيماً ، فوجه الشبه في الآيات الثلاث مركب من الاغترار بالشيء ، ومظنة دوامه ،

---

(١) الجمان في تشبيهات القرآن ٩١ .
(٢) سورة الكهف آية ٤٥ .
(٣) سورة الحديد آية ٢٠ .

والتهالك عليه ، ثم زواله وانقضاؤه فجأة كأن لم يكن ، فهو من التشبيه التمثيلي .

وقوله تعالى ﴿ لَهُ دَعوَةُ الحَقِّ وَالذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَستَجِيبونَ لَهُم بِشيءٍ إلاَّ كَباسِطِ كَفَّيهِ إلىٰ الماءِ لِيَبلُغَ فَاهُ وَمَا هُو بِبالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الكافِرينَ إلاَّ في ضَلالٍ ﴾(1) .

الله وحده هو الذي يستجيب للدعوة ، أما الأصنام التي يعبدونها من دون الله فلا تستجيب لهم بشيء إلا كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد ليطلبه ويدعوه ، ظناً منه أن الماء يصل إلى فمه دون أن يتوسل إلى ذلك باناء ، والماء لن يصل إلى فمه أبداً لأنه لا يشعر بعطشه ، ولا يرى بسط كفيه إليه ، ولا يسمع دعوته له ، فكذلك حال هذه الأصنام لا تحس بعبادتهم ، ولا تجيبهم إلى دعائهم . ووجه الشبه هنا مركب من السعي الحثيث في طلب الشيء ، ولكنه يبوء في النهاية بفشل القصد ، وتهافت الغاية .

وقوله تعالى ﴿ مُحمَّد رَسُولُ الله وَالذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلىٰ الكُفَّارِ رُحماءُ بينَهُم تَراهُم رُكَّعاً سُجَّداً يَبتغونَ فَضلاً مِنَ اللهِ وَرِضواناً سِيماهُم في وُجوهِهِم مِن أَثَرِ السُّجُودِ ذٰلِكَ مَثَلُهُم في التَوراةِ وَمَثَلُهُم في الإنجِيلِ كَزَرعٍ أَخرَجَ شَطأَهُ فَآزَرَهُ فَاستَغلَظَ فَاستَوىٰ عَلىٰ سُوقِهِ يُعجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ مِنهُم مَغفِرَةً وَأَجراً عَظِيماً ﴾(2) .

أصحاب محمد عليه السلام فيهم غلظة وشدة على أعداء الدين ، ولين ورحمة مع إخوانهم المؤمنين ، فيهم خشوع وخضوع ، وركوع وسجود ، يبتهلون بالدعاء إلى الله ابتغاء فضله ورضوانه ، وقد وصفهم الله تعالى بهذه

---

(1) سورة الرعد آية ١٤ .
(2) سورة الفتح آية ٢٩ .

الصفات في التوراة والإنجيل «فكانوا في بدء الاسلام قلة ، ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم يوماً بعد يوم حتى اعجبوا الناس»[1] فصاروا مثل زرع أثمر وأينع ثم اشتد واستغلظ ، ثم استوى واستقام ، فصار في أبهر صورة تعجب خاصة الزراع ، وإذا أعجب أهل الزرع فهو أدعى بأن يعجب العامة من الناس .

فقد تضمنت الآية ما في صفات الصحابة من المدح بشدتهم على الكافرين ورحمتهم بالمؤمنين ، وطلبهم فضل الله ورضوانه في ركوعهم وسجودهم ، كما تضمنت التشبيه بالزرع الذي يستمر في نمائه حتى يستوي على سوقه يعجب الزراع فيغيظ الكافر الحاسد . فوجه الشبه مركب من التدرج في النمو ، والتحول من القلة إلى الكثرة إلى الاستحكام والقوة ، فهو من التشبيه التمثيلي .

وقوله تعالى ﴿ كَذَّبَت عَادٌ فَكيفَ كَانَ عَذابِي وَنُذُرِ * إنَّا أَرسَلنَا عَليهِم رِيحاً صَرْصَراً في يَومِ نَحسٍ مُستَمِرٍ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُم أَعجَازُ نَخلٍ مُنقَعِرٍ ﴾[2] .

يروى أن الريح كانت تقتلعهم من أماكنهم التي تواروا فيها وتصرعهم موتى كما تقتلع النخلة من أصولها ، أي كأنهم حين تقلعهم الريح من الحفر وترميهم صرعى أعجاز نخل منقلع من مغارسه ، ساقط على الأرض ، وشبهوا بها لأن الريح كانت تقلع رءوسهم فتبقيهم أجساداً بلا رءوس .

وقوله تعالى : ﴿ ثم إنَّكُم أَيُّها الضَّالُونَ المُكَذِّبونَ * لآكِلونَ مِن شَجَرٍ مِن زَقُّومٍ * فَمالِئُونَ مِنهَا البُطونَ * فَشَارِبونَ عَليهِ مِن الحَمِيمِ * فَشارِبونَ

---

(١) روح المعاني ٢٦/١٢٧ الألوسي .

(٢) سورة القمر آية ١٨ ـ ٢٠ .

شُربَ الهِيمِ ﴾[1] .

يصف أهل النار بأن طعامهم الزقوم الكريه المنظر المتناهي في القبح ، وشرابهم الماء البالغ نهاية الحرارة فلا يروى شاربه ، فشبههم في شربهم بالإبل العطاش التي لا يرويها الماء لداء يصيبها يشبه الاستسقاء فلا تزال تعبّ في الشراب حتى تهلك أو تسقم سقماً شديداً ، ووجه الشبه أن كلًّا منهما يشرب ولا يرتوي مما يحثه على طلب المزيد من الشراب .

وقوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ يُحبُّ الذِينَ يُقاتِلونَ في سَبيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهم بُنيانٌ مَرصُوصٌ ﴾[2] .

إن الله يرضى عن الذين يحاربون إعلاء لكلمته ، وصيانة لدينه ، واقفين مترابطين كأنهم في التحامهم واتحادهم وتماسكهم بنيان محكم لا ثغرة فيه ولا خلل حتى صار قالباً واحداً ، فالصف المستوي هو في جملته أوثق الصفوف وأشدها وأثبتها ، فشبه حال المؤمنين المقاتلين في سبيله بصورة البنيان المحكم في استوائه وصحة نظامه مع شدة تماسكه .

ويقول تعالى في شأن المنافقين :﴿ وإذا رَأَيتَهُم تُعجِبُكَ أجسامُهُم وَإن يَقُولُوا تَسمَع لِقَولِهِم كَأَنَّهُم خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحسَبونَ كُلَّ صَيحَةٍ عَليهِم هُمُ العَدُوُّ فَاحذَرهُم قَاتَلَهُمُ اللهُ أنَّى يُؤفَكُونَ ﴾[3] .

وصف المنافقين بكمال الصورة ، وحسن القامة ، ولكنهم لفراغ قلوبهم من الإيمان والخير ، وفقدان إحساسهم من الشعور والتفكير ، شبههم بالخشب المنصوبة المستندة إلى الحائط ، يحسب من يراها أنها سليمة

---

(١) سورة الواقعة آية ٥١ ـ ٥٥ .

(٢) سورة الصف آية ٤ .

(٣) سورة المنافقون آية ٤ .

صحيحة ، وهي في حقيقة أمرها متهالكة متآكلة ، فوجه الشبه حسن الصورة مع تلاشي الإدراك ، وعدم النفع .

وقوله تعالى :﴿ يَومَ يَخرُجونَ مِنَ الأَجداثِ سِراعاً كَأَنَّهُم إِلىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعةً أَبصَارُهُم تَرهَقُهُم ذِلّةٌ ذَلِكَ اليَومُ الذِي كَانُوا يُوعَدونَ ﴾[1] .

أي : يخرجون من قبورهم مسرعين إلى الداعي ، مستبقين إليه ، كما كانوا في دنياهم يستبقون إلى أصنامهم وأحجارهم التي يعظمونها ليستلموها ، وهم يخرجون من قبورهم بأبصار ذليلة ، ورءوس منكسة يجللهم الخزي والهوان .

وقوله تعالى :﴿ فَما لَهُم عَنِ التَّذكِرَةِ مُعرِضين * كَأَنَّهُم حُمُرٌ مُستَنفِرَة * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَة ﴾[2] .

كان النبي عليه السلام إذا قرأ على قومه القرآن نفروا منه ، وتباعدوا عن الإصغاء إليه ، فشبه هؤلاء الكافرين في إعراضهم عن الدعوة ، وفرارهم منها ، وسيرهم على غير هدى ، بالحمر الوحشية النافرة التي يتعقبها أسد هصور ، فتتبعثر مذعورة هنا وهناك تبغي الإفلات من براثنه المصبقة عليها ، فهؤلاء القوم يفرون من سماع القرآن كما تفر الحمر من الأسد ، فيا لها من صورة تمثل الهزء بهم والسخرية منهم[3] .

(١) سورة المعارج آية ٤٣ ـ ٤٤ .
(٢) سورة القيامة آية ٤٩ ـ ٥١ .
(٣) من بلاغة القرآن ٢٠٠ د. أحمد بدوي نهضة مصر ط ٣ .

أدوات التشبيه

أداة التشبيه قد تكون إسماً أو فعلاً أو حرفاً .

فالأسماء : شبه ، ومثل ، وشبيه ، ومثيل ، وضريب ، وشكل ، ومضاه ، ومساو ، ومحاك ، وأخ ، وعدل ، وعديل ، وكفء ، ومشاكل ، وموازن ، ومواز ، ومضارع ، وند ، وصنو ، وما كان بمعناها أو مشتقاً منها »[1] .

ومن ذلك قوله تعالى في شأن الكفار : ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقونَ في هٰذهِ الحَياةِ الدُّنيَا كَمَثَلِ ريحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَت حَرثَ قَومٍ ظَلَموا أَنفُسَهُم فَأَهلَكَتهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلٰكِن أَنفُسَهُم يَظلِمونَ ﴾[2] .

ويقول في المقارنة بين حال الكافرين وحال المؤمنين : ﴿ مَثَلُ الفَرِيقَينِ كَالأَعمىٰ والأَصَمِّ وَالبَصيرِ والسَّمِيعِ هَل يَستَوِيانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِها الأَنهارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنها مِن ثَمَرَةٍ رِزقاً قَالُوا هٰذا الذِي رُزِقنَا مِن قَبلُ وَاتُوا بِهِ مُتَشابِهاً وَلَهُم فِيها أَزواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُم فِيها خَالِدونَ ﴾[4] .

---

(١) الشروح ٣/٣٩٢ .
(٢) سورة آل عمران آية ١١٧ .
(٣) سورة هود آية ٢٤ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٥ .

أي : تشبه الثمار بعضها بعضاً في الصورة والرائحة أو في المزية والحسن وان كانت تختلف في اللذة والطعم .

والأفعال مثل : يحسب ، ويظن ، ويخال ، ويعلم ، ويشبه ، ويماثل ، ويجعل ، وغير ذلك من الأفعال المشتقة من الأسماء السابقة .

كقوله تعالى في شأن السحرة : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۞ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾(1) .

وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾(2) .

شبه الجبال بأوتاد الخيام التي تمنعها من الاضطراب ، كما تمنع الجبال الأرض أن تميد بأهلها .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾(3) .

ومن أمثلة الأفعال التي تنبىء عن التشبيه : علمت زيداً أسداً ، ونحو هذا من صيغ القطع ، وتستعمل هذه الصيغ إن قرب التشبيه بين الطرفين ، أي قرب الشبه بين زيد والأسد . وحسبت زيداً أسداً ، أو خلت بكراً فارساً ، إذا كان التشبيه بعيداً ، أي بعد الشبه بين الطرفين .

والحروف :

نحو الكاف ، وكأنّ ، وياء النسب ، ولعل .

كقوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾(4) .

---

(1) سورة طه آية ٦٤ ـ ٦٥ .
(2) سورة النبأ آية ٦ ـ ٧.
(3) سورة النبأ آية ١٠ .
(4) سورة الحديد آية ٢١ .

وكقوله تعالى عن نساء الجنة ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيضٌ مَكنُونٌ ﴾[1] .

وكقوله تعالى ﴿ وَتَتَّخِذونَ مَصانِعَ لَعلَّكُمْ تخلُدُونَ ﴾[2] ، عن ابن عباس معناه كأنكم تخلدون وأما ياء النسب فقد عد من التشبيه قولهم : لون أحمري ووردِيّ أي يشبه لون الحمرة والورد[3] .

والأصل في الكاف أن يليها المشبه به ، لأن المشبه مخبر عنه ، محكوم عليه ، فلو دخلت الكاف عليه لامتنع الاخبار عنه .

وقد يلي الكاف غير المشبه به وذلك في التشبيه المركب كقوله تعالى :

﴿ واضرب لهم مثلَ الحياةِ الدنيا كمَاءٍ أنزَلنَاهُ من السماء فاختلط بهِ نَباتُ الأرض ﴾[4]. فان الماء ليس مشبهاً به ، بل المشبه به هو الهيئة الحاصلة من النبات الناشىء عن الماء .

والأصل في كأن : أن يليها المشبه : كأن هذا قمر ، وكأن الغيم ظلام

والتحقيق أن يقال : أداة التشبيه إن كان لها معمولات قدم ما تقتضي العربية تقديمه ، مشبهاً كان أو مشبهاً به ، فتقول كأن زيداً أسد ، فيليها المشبه لأنه مخبر عنه ، والمخبر عنه هو اسم كأن لا خبرها ، فليس تقديمه لكونه مشبهاً ، بل لكونه اسماً لها ومخبراً عنه . وتقول شابه زيد الأسد وماثله فوليها المشبه ، لأنه فاعل ، ووضعه التقدم على المفعول ، وتقول : زيد يشبه الأسد فوليها المشبه لأنه ضمير متصل . وإن كان لها معمول واحد ، وليها في اللفظ المشبه به ، تقول : زيد كعمرو ، أو مثل عمرو ، أو شبه عمرو »[5] .

---

(١) سورة الصافات آية ٤٩ .
(٢) سورة الشعراء آية ١٢٩ .
(٣) الشرح ٣/٣٩٣ .
(٤) سورة الكهف آية ٤٥ .
(٥) الشروح ٣/٣٩٠ .

وأصل كأن زيداً أسد ، إن زيداً كالأسد ، فلما قدمت الكاف فتحت الهمزة . والفرق في المعنى بين المثالين : كأن زيداً أسد ، بنيت كلامك على التشبيه من أول الأمر .

وإن زيد كالأسد ، أنك اجريت الكلام أولاً على الاثبات ، ثم بنيت عليه التشبيه .

هذه عبارة الزمخشري في المفصل . وقال ابن جنى في سر الصناعة : « كأن زيداً أسد ، أصلها إن زيداً كأسد ، ثم أرادوا الاهتمام بالتشبيه الذي عقدوا عليه الجملة ، فأزالوا الكاف من وسطها وقدموها إلى أولها لفرط عنايتهم بالتشبيه »[1] .

فالمتبادر إلى الذهن أن التشبيه بكأن أبلغ من التشبيه بالكاف ، ولذلك تستعمل حين يقوى الشبه بين الطرفين ، ولا يكاد الرائي يشك في قوة التماثل بين المشبه والمشبه به ، ولذلك قالت بلقيس ـ وقد أتى سليمان بعرشها من اليمن وأمر أن ينكر لها ـ حين وقع بصرها عليه : (كأنه هو) في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾[2] . ولم تقل هكذا هو ، لأن التعبير الأخير يفيد التغاير مع وجود الشبه لا غير ، بخلاف كأنه هو ، فانه يفيد شدة التطابق بين العرشين ، وانهما سواء ، ومثل ذلك ما أنشده ابن الانباري :

ما كنت أحسب شمساً غير واحدة حتى رأيت لها أختاً من البشر
كأنها هي إلا أن يفضلها حسن الدلال وطرف فاتر النظر

ولا فرق في إفادة كأن التشبيه بين أن تخفف نونها أو لا ، ولا فرق فيه

---

(١) الشروح ٣/ ٣٩١ ، المفصل ٣٠١ الزمخشري .
(٢) النمل آية ٤٢ .سورة

بين أن تتصل بما الكافة أو لا ، فان ما الداخلة عليها لا تغير معناها ، فإذا قلت : كأنما زيد أسد فزيد مشبه ، وأسد مشبه به[1] .

وكأن تستعمل غالباً في التشبيه ، وأحياناً تأتي لغير التشبيه :

فهي للتشبيه إذا كان خبرها اسماً جامداً مثل : كأن الكريم بحر .

وهي لغير التشبيه إذا كان خبرها اسماً مشتقاً مثل : كأن زيداً قائم ، فهي للشك بمنزلة ظننت وتوهمت ، قال ابن الانباري في قولهم : كأنك بالشتاء مقبل معناه : أظن . ومن أدوات التشبيه أفعل التفضيل كما أشار الطيبي مثل : زيد أفضل من عمرو . وفيه بعد ، وان كان يشهد له ما سيأتي من كلام ابن الشجري[2] فتقول : هو أجرأ من ليث ، وأغدر من ذئب ، واروغ من ثعلب ، وألأم من كلب على جيفة ، وأظلم من حيـــة ، وأشد عداوة من عقرب ، ومنه قول الشابي :

مالي تعذبني الحياة كأنني خلق غريب ؟

وتَهُدُّ من قلبي الجميل ؟ فهل لقلبي من ذنوب ؟

آه على قلبي ! وان شَقِيَتْ كشقوته قلوب .

أنقى من الموج الوضي ، ومن نشيد العندليب .

فالشاعر هنا يتمثل قلبه يشارك الموج اللامع في طهره ونقائه ، ويشبه نشيد العندليب في سحره وجماله ، بل يبذهما ويتفوق عليهما في صفة النقاء والصفاء ومنه قول ابن عمار الاندلسي :

أندى على الأكباد من قطر النـدى   وألذّ في الأجفان من سنـة الكرى

---

(١) الشروح ٣/ ٣٩٤ .
(٢) الشروح ٣/ ٣٩٢ ، ٤١١ .

وقول السري الرفاء يمدح أبا الهيجاء بن حمدان :

أنت أمضى من الحسام وأصفى من حيا المزن في المحول واندى

فأفعل التفضيل يفيد المشاركة في الوصف والزيادة عليه ، فالممدوح يشبه الحسام في الحدة والمضي ويربو عليه فهو أمضى من الحسام . ويشبه ماء السحاب والندى في الصفاء ويغلب عليه فهو أصفى واندى .

سواء :

جعل عبد اللطيف البغدادي كلمة سواء من أدوات التشبيه كقولهم :

رأيت رجلاً سواء هو والعدم(١) .

وكقوله تعالى : ﴿ سَواءٌ عَليهِم أأنذَرتَهُم أم لَم تُنذِرهُم لاَ يؤمِنونَ ﴾(٢) .

وكقوله تعالى : ﴿ وَإن تَدعُوهُم إلىٰ الهُدىٰ لاَ يَتَّبِعُوكُم سَواءٌ عَليكُم أدعَوتُموهُم أم أنتُم صَامِتونَ ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ عَالمُ الغَيبِ وَالشَّهادَةِ الكَبيرِ المُتعَالِ * سَواءٌ مِنكُم مَن أسَرَّ القَولَ وَمَن جَهَرَ بِهِ ﴾(٤) .

وقوله تعالى ﴿ سَوَاءٌ عَلينَا أجَزِعنَا أم صَبَرنَا مَا لَنَا مِن مَحِيصٍ ﴾(٥) .

أي انذارهم يشبه عدم انذارهم في كونهم لا يؤمنون .

ودعوتكم إياهم إلى الهدى يشبه صمتكم في كونهم لا يتبعونكم .

وأسرار القول يشبه الجهر به في كون الله يعلمه .

---

(١) الشروح ٣/ ٣٩٣ .
(٢) سورة البقرة آية ٦.
(٣) سورة الأعراف آية ١٩٣ .
(٤) سورة الرعد آية ٩ ـ ١٠ .
(٥) سورة ابراهيم آية ٢١ .

والجزع يشبه الصبر ، فلا مهرب لهم من العذاب .

تكرار أداة التشبيه

وقد نجد في بعض العبارات تكراراً لأداة التشبيه ، وذلك إذا كان المقام يقتضي هذا التكرار ، بأن يكون المشبه متعدد الجوانب متداخل الأوصاف فنذكر المشبه ، ثم نذكر الأوصاف واحداً بعد الآخر على سبيل التشبيه سواء بأداة التشبيه أو بدونها .

كأن تريد المبالغة في مدح رجل فتصفه بالظهور والعزم وطلاقة الوجه ، فتقول . هو شمس ، هو حسام ، هو ربيع ، أو تقول : هو كالشمس كالحسام كالربيع وكقول أبي القاسم الشابيّ في مطلع قصيدته صلوات في هيكل الحب :[1]

عذبة أنت كالطفولة ، كالأحلام ... كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك ، كالليلة القمراء ... كالورد ، كابتسام الوليد

وقوله أيضاً في مطلع قصيدته أيتها الحالمة بين العواصف :

أنت كالزهرة الجميلة في الغاب ... ولكن ما بين شوك ودود
والرياحين تحسب الحسَكَ الشرير ... والدودَ من صنوف الورود
فافهمي الناس.. إنما الناس خلْق ... مفسد في الوجود غير رشيد
والسعيد السعيدُ من عاش كالليل ... غريباً في أهل هذا الوجود
ودعيهم يحيون في ظلمة الإثم ... وعيشي في طهرك المحمود
كالملاك البريء ، كالوردة البيضاء ... كالموج في الخضمِّ البعيد
كأغاني الطيور ، كالشفق الساحر ... كالكوكب البعيد السعيد
كثلوج الجبال ، يغمرها النور ... وتسمر على غبار الصعيد[2]

---

(١) ديوان أغاني الحياة ١٨٣ ط تونس .

(٢) ديوان أغاني الحياة ٢٢٤ ط تونس .

وقول المتنبي يمدح علي بن منصور الحاجب :

هذا الذي ابصرت منه حاضراً ... مثل الذي ابصرت منه غائباً
كالبدر من حيث التفت رأيته ... يهدي إلى عينيك نوراً ثاقباً
كالبحر يقذف للقريب جواهرا ... جودا ويبعث للبعيد سحائباً
كالشمس في كبد السماء وضوؤها ... يغشى البلاد مشارقاً ومغارباً

وقد ورد تكرار الأداة في القرآن الكريم كقوله عز وجل في وصف جهنم : ﴿ إنَّها تَرمي بِشررٍ كَالقَصرِ * كَأَنَّهُ جَمَالَةٌ صُفْر ﴾[1] .

والتشبيه على هذا النحو بغير حرف العطف آكد في صفة الموصوف ، وأبلغ في نعته من التشبيه المعطوف ، وذلك لأن اسقاط حرف العطف يدل على شدة التصاق الصفات بالموصوف ، بخلاف ذكر حرف العطف فانه وإن كان يدل على اشتمال الموصوف على هذه الأوصاف إلا أننا نفتقد التصاق الصفات وشدة امتزاجها بالموصوف .

التشبيه المضمر الأداة

وقد تحذف الأداة من الكلام إذا قصد إلى المبالغة في التشبيه ، وعندئذ يصير المشبه عين المشبه به دون تفاوت ، وهذا أدعى للمبالغة والتأكيد ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعوا إِلىٰ مَغفِرةٍ مِن رَبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرضُهَا السَّموٰاتُ والأَرضُ أُعِدَّتْ لِلمُتَّقين ﴾[2] . أي عرضها كعرض السموات والأرض ، والمراد أنها غاية في السعة والبسط ، فشبهت بأوسع ما يتصوره الانسان ، وخص بالذكر العرض دون الطول للمبالغة في ذلك ، لأن العرض غالباً ما يكون أدنى من الطول . فاذا كان عرضها كذلك ، فما بالك بطولها .

---

(١) سورة المرسلات آية ٣٢ ـ ٣٣ .
(٢) سورة آل عمران آية ١٣٣ .

وقولـه تعـالى : ﴿ النَبِيُّ أولىٰ بِـالمُؤمِنِينَ مِن أنـفُسِـهِم وَأزواجُـهُ أُمَّهَاتُهُم ﴾[1] . أي النبي أحق بطاعتهم من أنفسهم ، لأنه يدعوهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم ونجاتهم ، لشدة شفقته عليهم ، وحرصه على سلامتهم ، ونفوسهم تدعوهم إلى ما فيـه هلاكهم ، وأزواجـه كأمهـاتهم في وجوب تعظيمهن وحرمة نكاحهن بعده صلى الله عليه وسلم حرمة مؤبدة ، أما فيما عدا ذلك من النظر اليهن وإرثهن ونحو ذلك فهن فيه كالاجنبيات ، ولذا لم يتعد التحريم إلى بناتهن .

ومنه قوله تعالى في وصف نعيم أهل الجنّة : ﴿ وَيُطافُ عَليهِم بِآنِيةٍ مِن فِضّةٍ وَأكوابٍ كانت قَوارِيرا * قَوارِيرا مِن فِضّةٍ قَدَّرُوها تقديرا ﴾[2] .

أي كأن القوارير تشبه الفضة في بياضها وحسنها ، ولينها وشرفها ، بحيث يرى ما فيها من خارجها لشدة صفائها وبريقها وشفافيتها ، فالقوارير ليست مصنوعة من الفضة ، وإنما تشبه الفضة في بياضها ، فهذا على التشبيه وإن لم تذكر أداة التشبيه .

وقوله تعالى : ﴿ إنَّ الأبرَارَ لَفي نعيمٍ * عَلىٰ الأَرائِكِ يَنظُرونَ * تَعرِفُ في وُجُوهِهِم نَضرَةَ النَّعيمِ * يُسقَوْنَ مِن رَحيقٍ مَختومٍ * خِتَامُهُ مِسكٌ وفي ذٰلِكَ فَليتنافَسِ المُتنَافِسونَ ﴾[3] .

والمعنى أنهم يشربون من خمر طيبة لذيذة يجد الشارب في نهاية شربه لها رائحة المسك ولا يجد تلك الرائحة الكريهة التي يجدها شارب الخمر في الدنيا ، فختامه مسك على التشبيه إذ هو طيب الرائحة كالمسك .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٦.

(٢) سورة الانسان آية ١٥ ـ ١٦ .

(٣) سورة المطففين آية ٢٢ ـ ٢٦ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِباسٌ لَكُم وَأَنتُم لِباسٌ لَهُنَّ ﴾[1] شبه المرأة باللباس للرجل ، وشبه الرجل باللباس للمرأة .

وقوله تعالى : ﴿ نِساؤُكُم حَرثٌ لَكُم فَأتُوا حَرثَكُم أَنّىٰ شِئتُم ﴾[2] شبه النساء بالأرض التي تحرث للزرع ، لأن رحم المرأة يزرع فيه الولد كما يزرع البذر في الأرض .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَرى الجِبالَ تَحسَبُها جامِدَةً وَهي تَمُر مَرَّ السَّحابِ صُنعَ اللهِ الذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيءٍ ﴾[3] .

أي تمر في الجو كمر السحب التي تسيرها الرياح سيراً حثيثاً .

وربما استغنى عن أداة التشبيه بالمصدر نحو خرج خروج القِدح ، وطلع طلوع النجم ، ومرق مروق السهم ، ولا يكثر مثل هذا في التنزيل ، وإنما عامة التشبيهات في القرآن مقرونة بالأدوات . . . وإنما يحذفون حرف التشبيه للمبالغة في وصف المشبه ، وذلك نحو قولهم في مدح الرجل : هو البحر جوداً ، والدهر بأساً ، والسيف لساناً ، وقولهم في وصف المرأة : ريقها الخمر ، وثغرها الدر ، وكلامها السحر ، وريحها المسك ، أو كلامها الوبل على المحل ، والعذب البارد على الظمأ »[4] .

ومنه قول الرسول عليه السلام « العزل هو الوأد الخفي » والوأد هو ما كانت العرب تفعله من دفن البنات وهن أحياء ، خوفاً من العار بركوب الفاحشة ، فجعل العزل كالوأد ، وهذا من التشبيه الذي فاق في رشاقته ، وراق في جودة نظمه وبلاغته .

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٧ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٢٣ .

(٣) سورة النمل آية ٨٨ .

(٤) الجمان ٤٣ ، ٤٤ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ . والقدح : السهم قبل أن يراش وينصل .

ومن ذلك ما قاله التهامي :

العيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال ساري
فاقضوا مآربكم عجالى إنما أعماركم سفر من الأسفار

والمراد العيش كالنوم ، والمنية كاليقظة ، والأعمار كالسفر فأضمر الأداة . واقرأ أبيات الشابي :[1]

الحب شعلة نور ساحر، هبطت من السماء فكانت ساطع الفلق
يطوف في هذه الدنيا فيجعلها نجماً جميلاً ضحوكاً جد مؤتلق
الحب جدول خمر ، من تذوقه خاض الجحيم ولم يشفق من الحرق
الحب غاية آمال الحياة فما خوفي إذا ضمني قبري ؟ وما فرقي ؟

فالشابي لم يحذف أداة التشبيه اعتباطاً ، وإنما حذفها لتؤدي معنى يعبر تعبيراً حقيقياً عما يجيش بصدره من جمال الحب وشفافيته ، فالتشبيه بذكر الأداة لا يفي بالغرض ، حيث يشير إلى وجود التباين والاختلاف بين المشبه والمشبه به ، أي بين الحب وأوصافه ، فأراد أن يرفع هذا الحاجز عن أبصارنا ، حتى يذوب الوصف في الموصوف ويصير جزءاً منه ، فالحب في حقيقته عند الشاعر شعلة نور وروح إلهي وجدول خمر ، وغاية أمل وليس أهون من ذلك ، وهو يؤكد لنا هذا المعنى تأكيداً وثيقاً حتى لا يداخلنا ريب فيما يعتقده ويصدقه ، ويجعلنا نحس معه بأن الحب يمتلك هذه الصفات ، ويشتمل عليها كحقيقة واقعة ، وليس كشبه زائف . يقول العلوي « واعلم أن التشبيه المضمر الأداة أبلغ وأوجز من التشبيه الذي ظهرت أداته ، أما كونه أبلغ ، فلأنك إذا قلت زيد الأسد ، فقد جعلته نفس هذه الحقيقة من غير واسطة ، بخلاف قولك زيد كالأسد ، فليس يفيد إلاَّ مطلق المشابهة لا غير وأما كونه أوجز ، فلأن أداة التشبيه محذوفة منه ، فلهذا كان أخصر من جهة لفظه »[2] .

---

(١) أغاني الحياة ٨١ .
(٢) الطراز ٣١٥/١ وانظر المثل السائر ١٢٢/٢ .

ويمكنك أن تتمثل مدى التطابق بين المشبه والمشبه به إذا حذفت الأداة ، فالتطابق يسري بين الطرفين إلى حد فناء أحدهما في الآخر وامتزاجه به ، فلا تكاد ترى شيئين بينهما وجوه اتفاق ووجوه اختلاف ، وإنما ترى شيئاً واحداً لا مجال للتفاوت فيه ، وتأمل قصيدة الشابي وأبياته التي حذف منها أداة التشبيه تجد برهاناً على مدى هذا الاتحاد بين الطرفين :

أنت يـا قلبي قلب انضجته الـزفـرات
أنت يـا قلبي عش نفـرت عنـه القـطاة
أنت حقل مجدب قد هزأت منـه الرعـاة
أنت ليـل معتم تندب فيـه البـاكيـات
أنت كهف مـظلم تـأوى اليـه البـائسـات
أنت صرح ، شاده الحب على نهر الحياة
أنت قبـر ، فيه من أيـامي الأولى رفـات
أنت عـود ، مـزقت أوتـاره كف الحيـاة
فهـو في وحشته الخـرساء بين الكـائنـات
صـامت كالقبـر ، إلا من أنين الذكـريات
أنت لحن ساحر ، يخبط في التيه الموات
أنت أنشـودة فجر . . رتلتهـا الـظلمـات[1]

مراتب التشبيه

١ ـ أن يذكر التشبيه بجميع أركانه : المشبه ، والمشبه به ، والأداة ، ووجه الشبه . وهو أضعف ألوان التشبيه وأخس مراتبه ، فإذا قلت هو كالبحر في الجود ، أو كالأسد في الشجاعة ، فالإيهام هنا سطحي لم نتوغل فيه ، بل هو أقرب إلى الواقع ، فهو ليس أسداً على الحقيقة ، ولا

---

(١) أغاني الحياة ١٣٥ .

يشتمل على صفة من صفات الأسد العديدة . من الضخامة والمهابة والحيوانية ، وإنما يشتمل على صفة واحدة فقط ، هي صفة الشجاعة ، وإنما كانت هذه المرتبة هي دنيا المراتب لخلو التشبيه فيها عن دعوى الاتحاد التي هي مناط المبالغة فيه وفقدان الاشتراك في عموم الصفات .

٢ ـ ترك أداة التشبيه فقط ، مع بقاء المشبه والمشبه به ووجه الشبه ، كقولك : زيد أسد في الشجاعة ، ففيه نوع من البلاغة والمبالغة ، حيث أوهم أن المشبه هو عين المشبه به ، مما يجعلنا نتوهم أن زيداً أسد في حقيقة أمره .

٣ ـ ترك وجه الشبه فقط مثل زيد كالأسد ، ففيه نوع من المبالغة والقوة أكثر من التشبيه المحذوف الأداة فقط ، لأن وجه الشبه عند حذفه عام في الظاهر .

وفي كلام صاحب المفتاح اشارة إلى أن ترك وجه الشبه ابلغ من ترك أداته ، قال : لعموم وجه الشبه (١).

٤ ـ ترك الأداة والوجه كقولك زيد أسد ، وهذا الضرب أقوى ألوان التشبيه لاجتماع مزايا الضرب الثاني والثالث فيه ، فحذف الأداة ينبىء عن التطابق بين الطرفين ، وحذف الوجه ينبىء عن الشمول في الصفات ، فقد اجتمع فيه القوتان ، ويسمى هذا التشبيه بليغاً . « فأعلى مراتب الشبه في الأبلغية ترك وجه الشبه وأداته .

وما ذكر فيه وجه الشبه يسمى مفصلاً ، لأنه فصل ووضح الوصف الذي يشترك فيه الطرفان .

---

(١) البرهان ٣/٤٢٤ .

وما لم يذكر فيه وجه الشبه يسمى مجملاً ، لإجمال وجهه وخفائه ، فلا تتضح دلالته على المقصود منه .

وما حذف منه الأداة يسمى مؤكداً ، لتأكيده بحذف الأداة ، فهو أوجز وأبلغ وأوقع في النفس ، أما أنه أوجز فلحذف أداته ، وأبلغ لإيهامه أن المشبه عين المشبه به .

وما لم تحذف منه الأداة يسمى مرسلاً ، لأنه أرسل عن التأكيد المستفاد من حذف الأداة المشعر ـ بحسب الظاهر ـ بأن المشبه عين المشبه به .

أغراض التشبيه

منها ما يعود إلى المشبه ، ومنها ما يعود إلى المشبه به ، فما يعود إلى المشبه أنواع :

١ ـ بيان حال المشبه : إذا كان المشبه مبهماً غير واضح ، فنوضحه بالمشبه به ، كأن يكون هناك ثوب لا نعرف شكله ، ولدنيا ثوب آخر معلوم الشكل عند السامع ، فنشبه الثوب المجهول بالثوب المعلوم ، فنقول : ذلك الثوب يشبه هذا الثوب في السواد أو في البياض . نعلم عندئذ لون الثوب بعد أن كان مجهولاً .

أو نشبه النمر بالأسد في صولته وشدة فتكه .

أو الغني البخيل بالقوي الجبان في عدم الانتفاع بما يملك .

كل ذلك إذا كان المشبه مجهولاً ويراد إيضاحه فنلحقه بشيء معلوم لدينا ، ووصف محدد عندنا ، فيتجلى لنا أمر المشبه ، وينكشف حاله بعد أن كان خفياً ، ومعلوم أن هذا الغرض لا يتحقق إلا إذا كان المشبه به معروفاً بهذا الوصف ـ أعني وجه الشبه عند المخاطب .

وعندما أراد الله أن يوضح لنا حال المنافقين في ضعف أفهامهم ، وذهابهم عن الدين ، ونفارهم عن الحق ، وبعدهم عن قبوله ، قال :

﴿ كَأَنَّهُم حُمرٌ مُستَنفِرةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾[1] .

شبههم بحمر الوحش عند نفارها ودهشتها برؤية بعض الأسود ، فلا تتمالك إلا البعد عنها ، والهرب منها ، فصورة الحمر الوحشية ونفارها عند الخطر معلومة عند السامع ، وأشد وضوحاً من إدراك نفور المنافقين من الدعوة الجديدة ، فالغرض من التشبيه هنا تحويل المعنى المجهول إلى صورة محسوسة مكشوفة .

وقوله تعالى حين أراد أن يبين لنا ضعف إيمان المنافقين ورقته ، وعدم الثبات فيه ، واضمحلاله عن القلوب بأدنى شيء ، وأنه على شرف الانقلاب إلى الكفر شبهه ببيت العنكبوت ونسجه ، فإنه من أضعف الأشياء قواماً ، وأرقها حالة ، فهبة ريح تحركه وتغيره ، فقال :

﴿ مَثلُ الذِينَ اتَّخذُوا مِن دُونِ الله أولياءَ كَمَثَلِ العَنكَبوتِ اتَّخَذَت بَيتاً وَإِنَّ أوهَنَ البُيوتِ لَبَيْتُ العَنكَبوتِ لَو كَانُوا يَعلَمونَ ﴾[2] .

فالغرض من هذا التشبيه بيان حال المنافقين وكشف نواياهم التي لا تخفى على علام الغيوب .

ولهذا الغرض قال الشاعر :

كأن سهيلاً والنجومُ وراءه صفوف صلاة قام فيها إمامها

فالشاعر يشبه صورة سهيل وهو يتقدم النجوم ، وهي وراءه في صفوف منتظمة ، بحال الإمام الذي يتقدم المأمومين وهم وراءه في صفوف منتظمة ، وصورة المشبه لا تتضح لنا تماماً إلا إذا ساق الشاعر صورة المشبه به .

---

(١) سورة المدثر آية ٥٠ .
(٢) العنكبوت آية ٤١ .

وقال أيضاً :

والبدر في أفق السماء كغادة　　بيضاء لاحت في ثياب حداد

فالشاعر يشبه البدر بلونه الفضي الجميل وهو يبدو في حلكة الليل ، بالغادة الجميلة البيضاء التي تسربلت في ثياب سوداء .

وقول الشابي :

كم من مشاعر حلوة مجهولة　　سكرى ، ومن فكر ومن أوهام

غنت كأسراب الطيور ورفرفت　　حولي ، وذابت كالدخان أمامي

أراد الشاعر أن يعبر عن جمال مشاعره ، وبهاء أفكاره ، ووقع حلاوتها في نفسه وأذنه ، ثم سرعة انقشاعها وذوبانها في الوجود ، فشبهها بغناء الطيور العذب ، والدخان عندما يتلاشى سريعاً ، وأفكار الشاعر ومشاعره لا تتضح لنا صفتها إلا إذا ساق إلينا صورة المشبه به .

ففي كل مثال من هذه الأمثلة لاحظنا أن المشبه قد اتضحت معالمه ، وتحددت صورته بعد ذكر المشبه به ، فصار معلوماً بعد أن كان مجهولاً ، وجلياً بعد أن كان خفياً ، كما لاحظنا أن المشبه به كانت صورته واضحة في ذهن المخاطب ، وبذلك أمكن أن يقيس عليها صورة المشبه .

٢ ـ بيان امكان وجود الشبه :

وذلك في أمر غريب لا يتصور ثبوته ، ولا يعقل امكانه ، ويمكن أن يدعى استحالته ، فنأتي بالتشبيه لبيان أنه أمر ممكن ، كقول أبي الطيب المتنبي :

فان تفق الأنام وأنت منهم　　فان المسك بعض دم الغزال

فالشاعر أراد أن يقول : أن الممدوح فاق الخلق جميعاً بحيث لم يبق بينه وبينهم مشابهة أو مقاربة ، بل صار جنساً متفرداً يختلف عن غيره ، وهذا في

الظاهر كالممتنع ، فلما ذكر هذا المعنى اردفه بقوله (فان المسك بعض دم الغزال) محتجاً به على صحة زعمه ، وامكان ادعائه ، وأنه ليس مستحيلاً فان المسك قد خرج عن صفة الدم وحقيقته ، ولا يعد من جنسه ، إذ لا يوجد فيه شيء من الصفات الشريفة التي تلحظها في المسك فلأجل هذا الغرض سيق التشبيه »[1] .

ومنه قول ابن الرومي :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم ... كــلا لعمـري ولكن منــه شيبـان
كم من أب قد علا بابن ذرا شرف ... كمـا عــلا بــرسـول الله عــدنـان

فقد جرت العادة أن يسمو الأبناء لسمو منزلة أبائهم ، وليس العكس ، فاذا قيل إن الآباء قد علوا بسبب رفعة شأن ابنائهم بدت الغرابة ، واعترتنا الدهشة ، لاستبعاد ذلك الأمر غير المألوف ، فاذا ذكر المشبه به : وهو علو منزلة عدنان لانحدار الرسول عليه السلام من أصلابها ، وهو أمر مقرر لا ينازع فيه منازع ، زالت الغرابة ، وتبين أن الشبه أمر ممكن .

وقول البحتري :

دنــوت تــواضعــا وعلوت مجــدا ... فــشــأنــاك انخـفــاض وارتـفــاع
كــذاك الشمس تبعـد أن تسامى ... ويــدنــو الضــوء منهــا والشعــاع

فالشاعر وصف ممدوحه مرة بالدنو وأخرى بالعلو ، فيظن السامع أن في هذا الوصف تناقضاً ، فأراد الشاعر أن يبين أن هذين الوصفين ليس فيهما شيء من التناقض ، بل أن الجمع بينهما أمر ممكن وواقع ، ولا استحالة فيه ، فأتى بنظير لقوله ، وهو الشمس ، فهي بعيدة لا يستطيع أن يصل إليها أحد ، وهي أيضاً قريبة بضوئها وشعاعها الذي يفيض على الأرض ومن

---

(١) أنظر الشروح ٣/٣٩٥ ، وشرح المختصر ٢/٣٥ ، والطراز ١/٣٤٨ .

عليها ، فزال التناقض في الجمع بين الدنو والعلو في الممدوح ، وأصبح امرأ ممكناً لا تناقض فيه ولا استحالة ، والذي كشف عن ذلك ما ساقه الشاعر من إمكان الجمع بين هذين الوصفين المتناقضين في الشمس التي نراها كل يوم ، ولا ينكر أحد ما يراه منها في الجمع بين العلو والدنو .

ويمكنك أن تلحظ هذا المعنى وتطبقه أيضاً على قول البحتري :

دانٍ على أيـدي العُفـاة وشـاسـعٌ عن كـل نـدّ في النـدى وضـريب
كـالبـدر أفـرط في العلو وضـوؤه للعصبـة السـارين جـد قـريب

وقول أبي تمام يخاطب نفسه :

لا تُنكري عطلَ الكريم من الغني فـالسيـل حـرب للمكـان العـالي

ومثله :

وإن كنت من جنس البرايا وفقتهم فللمسك نشر ليس يوجد في العطر

ومثله أيضاً :

ولـولا كـونكم في النـاس كـانـوا هـراء كـالكـلام بـلا معـانـي

٣ ـ بيان مقدار حال المشبه : في القوة والضعف ، والزيادة والنقصان :
كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾(١) . فعذاب الكافرين المكذبين بالرسالة ، وشرابهم الماء البالغ نهاية الحرارة أمر يعرفه المخاطب ولكنه لا يعلم مدى ظمئهم إلى هذا الماء المغلي ، فبين الله مقدار هذا الظمأ ، فشبههم بالإبل العطاش التي لا تروى أبداً لداء يصيبها ، ولا تزال تطل المزيد من الشراب حتى تهلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَيستَعجِلونَكَ بِالعذابِ وَلَن يُخلفَ الله وعدَهُ وَإنَّ يوماً

---

(١) سورة الواقعة آية ٥١ ـ ٥٥ .

عِندَ رَبِّكَ كَأَلفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾[1] .

فعذاب الآخرة ثقيل ومهين وطويل ، ولكن المخاطب لا يعلم مدى الوقت الذي يستغرقه هذا العذاب ، فتبين الآية مقدار العذاب ، بأنه يضاهي عذاب ألف سنة من الدنيا لشدته وهو له .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الجَوارِ المُنشَآتُ في البَحرِ كَالأعلامِ ﴾[2] .

فالسفن الجارية في البحار بقلاعها المرتفعة الشاهقة العظيمة أمر تقع عليه العيون كثيراً ، ولكن المخاطب لا يعلم مدى عظمها وضخامة حجمها ، فالغرض من التشبيه هنا بيان مقدار حجم هذه السفن ، وأنها أشبه شيء بالجبال في هذا الحجم الضخم الشاهق .

وكما في تشبيه الثوب الأسود ـ المعلوم سواده عند السامع ، ولكنه لا يعلم مقدار هذا السواد ودرجته ـ بالغراب ، عندئذ يقف السامع على درجة هذا السواد في شدته وحلكته ، ومثله قول الشاعر :

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض   على الماء خانته فروج الأصابع

أي بلغت في بوار سعيي في الوصول إليها أقصى الغايات حتى لم أحظ منها بما قل ولا بما كثر .

ومنه قول الشاعر :

كأن مشيتها من بيت جارتها   مر السحابة لا ريثٌ ولا عجلُ

فمشيتها معلومة عند السامع ولكنه لا يدري مقدارها في السرعة أو البطء فوضح الشاعر هذا المقدار ، فقال : إنها لا تسرع ولا تبطىء ، وإنما تمر دون تعجل أو تباطؤ . ومنه أيضاً قول الشاعر :

---

(١) سورة الحج آية ٤٧ .

(٢) سورة الرحمن آية ٢٤ .

فيهـا اثنتـان وأربعـون حلوبـة سـودا كخـافيـة الغـراب الأسحم

فوصف النوق بالسواد معلوم عند السامع ، ولكنه لا يدري مقدار هذا السواد في الشدة أو الضعف ، فأراد الشاعر أن يقف السامع على هذا المقدار ، فشبهه بخافية الغراب الأسحم[1] ، وهي أشد ما تكون سواداً .

ومنه أيضاً :

إذا قـامت لحـاجتهـا تثنت كـأن عـظامهـا من خيـزران

فالمخاطب يعلم حال مشيتها وهي تتثنى في ليونة وطراوة تساعد على تلك الهيئة عظامها اللينة اللدنة ، ولكنه لا يعرف مدى هذه الليونة ، فلكي يدرك مداها شبه الشاعر عظامها بالخيزران البالغ الدرجة القصوى في ليونته وتثنيه .

ومن هذا النوع قول الشاعر :

ولاح ضـوء قمير كـاد يفضحنـا مثل القلامة قد قُـدَّت من الظُفُـرِ

ويشترط لاستيفاء هذا الغرض أن يكون المشبه به مساوياً للمشبه تماماً دون زيادة أو نقصان ، حتى نعرف مقدار حال المشبه ، ولا يتم هذا الغرض من التشبيه ولا يتعين المقدار إذا لم يتحقق هذا التساوي ، كما يجب أن يكون المشبه به أشهر عند المخاطب من المشبه حتى يمكن قياس المشبه عليه .

٤ ـ تقرير حالة المشبه في ذهن السامع :

وهذا الغرض نسعى إليه حين يراد ابراز الأمور المعنوية الذهنية في صورة حسية مشاهدة حتى تستقر في نفس السامع ، وتتمكن في ذهن المخاطب ، وذلك لأن النفس بطبعها تميل إلى الأمور المحسوسة التي يقع عليها الحس ،

---

(١) الأسحم : ريش في الطائر يختفي إذا ضم جناحيه .

وتنبو عن المعاني المجردة ، فاذا برزت الأفكار المتخيلة في صورة مشاهدة قوى الإيمان بها والتأكد من صحتها ، بل إبرازها في هذه الصورة الحسية يصبح دليلاً يدفع كل تردد في تصديق هذه الدعوى .

وقد جاء في القرآن كثير من الآيات التي تبرز المعنويات في صور المحسوسات . كما في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الذِينَ كَفَروا بِربِّهِم أعمَالُهُم كَرَمَادٍ اشتَدَّت بِهِ الرِّيحُ في يَومٍ عَاصِفٍ ﴾[1] .

وكقوله تعالى : ﴿ وَالذِينَ كَفَروا بِرَبِّهم أعمالُهُم كَسرابٍ بِقِيعةٍ يَحسَبُهُ الظَّمآنُ مَاءً حَتىٰ إذا جَاءَهُ لَم يَجِدهُ شَيئاً وَوَجَدَ الله عندَهُ فوفَّاهُ حِسابَهُ وَالله سَريعُ الحِسابِ * أو كَظُلماتٍ في بَحرٍ لُجيٍّ يَغشَاهُ مَوجٌ من فَوقِهِ مَوجٌ مِن فَوقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ إذاً أخرَجَ يَدهُ لَم يَكَدْ يَراهَا ﴾[2] .

فأعمال الكافرين شيء معنوي لا يتمكن من نفوسنا ، ولا يستقر في أذهاننا إلا إذا أتى في معرض الحس والمشاهدة ، فمرة يشبه بالرماد الذي تذروه الرياح الهوجاء في يوم شديد العصف ، ومرة بأنه السراب الخادع الذي نطمئن إليه ثم تنكشف لنا حقيقته وأننا نبوء معه بالخسران ، ومرة بأنها الظلمات المتراكمة لا نتبين منها شعاعاً من نور الحق وكل هذه صور حسية تراها الأعين فتطمئن إلى وقوعها وحتمية مآلها ، وتزيل كل شك أو تردد في ذهن السامع بمصير أعمال الكافرين .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الذِينَ اتَّخذُوا مِن دُونِ الله أولياءَ كَمثَلِ العَنكَبوتِ اتَّخَذت بَيتاً وَإنَّ أوهَنَ البُيوتِ لَبيتِ العَنكَبوتِ لَو كَانوا يَعلَمونَ ﴾[3] .

---

(1) سورة إبراهيم آية ١٨ .
(2) سورة النور آية ٣٩ - ٤٠ .
(3) سورة العنكبوت آية ٤١ .

وقوله: ﴿ مَثَلُ الذِينَ حُمِّلُوا التوراةَ ثُمَ لَم يَحْمِلُوهَا كَمثلِ الحِمارِ يَحمِلُ أسفَارا ﴾[1] .

تجد أنس النفس وتيقنها بضعف اعتقاد الكافرين وغفلتهم ، ولم يكن ذلك إلا بورود هذه الصور التي تقرر حال المشبه في ذهن السامع .

وكقول المتنبي :

نصيبــك في حيـاتـك من حبيب   نصيبـك في منـامـك من خيـال

نراه يجسم لنا الصورة الوردية الجميلة التي ننعم بها في أحلامنا ، وتنقضي بمجرد اليقظة من النوم ، فهي لا تبقى ولا تدوم ، فيؤكد لنا بهذه الصورة أن الحبيب الصادق لا نتحقق من وجوده ، ودوام بقائه في الحياة ، فشأنه في ذلك شأن بقاء الخيال بعد انقضاء المنام .

وكما في تشبيه من لا يحصل من سعيه على طائل بمن يخط بالقلم على الماء .

كقول الشاعر :

إذا أنـا عـاتبت الملوك كـأنمـا   أخط بـأقـلامي على المـاء أرقمـا

فهذا عتاب لا يجدي ولا يجني من ورائه شيئاً ، وهل تجدي الكتابة على الماء ؟!

وقول الشاعر :

إن القلوب إذا تنـافـر وُدُّهـا   مثل الزجاجة كسرها لا يجبر

فتنافر القلوب وتعذر عودتها صافية على ما كانت عليه من قبل أمر معنوي قد يداخلنا الشك في صحته ، ولا نتأكد من صدقه ، فإذا أتى بالمشبه به ، وهو أن

---

(١) سورة الجمعة ، آية ٥ .

الزجاجة المكسورة لا تعود إلى حالتها التي كانت عليها من قبل ، تأكد في أذهاننا ، وتقرر في أنفسنا أن دعوى الشاعر بعدم تصافي القلوب بعد نفرتها صحيحة ، وأن الود الذي كانت عليه القلوب لن يعود إلى صفائه وروائه .

وهذا الغرض لن يتحقق إلا إذا كان المشبه به أوضح وأقوى في وجه الشبه من المشبه ، وذلك أمر بدهي لا نزاع فيه ، فتعذر بقاء الشيء على حاله بعد تحطيمه نلحظه بصورة أقوى في تحطيم الزجاجة منه في تنافر القلوب « بل إن كون المشبه به أتم وأشهر في وجه الشبه من المشبه أمر يجري في جميع الأغراض السابقة ، لأن المشبه به كالمبين المعرف للمشبه فليكن أوضح ، لأن التعريف إنما يكون بالأوضح ، وهذه العلة واضحة بالنسبة إلى اشتراط كونه أشهر ، أما كونه فيه أتم ، فهذه العلة لا تقتضيه ، لأنه ينافي الحقيقة إذا كان الغرض من التشبيه بيان مقدار حال المشبه »[1] .

٥ ـ تزيين المشبه :

كقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ اليَاقُوتُ والمَرجَانُ ﴾[2] .

في صفاء لون الياقوت وحمرة المرجان .

وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهنَّ بَيضٌ مَكنونٌ ﴾[3] .

بيض لامعة كبيض النعام المحتفظ بصفائه ولم يصبه الغبار .

وقوله تعالى : ﴿ وَحُورٌ عينٌ * كَأَمثالِ اللُّؤلُؤ المَكنونِ ﴾[4] .

---

(١) الشروح ٣/٣٩٩ ، ٤٠٠ .
(٢) سورة الرحمن آية ٥٨ .
(٣) سورة الصافات آية ٤٩ .
(٤) سورة الواقعة آية ٢٢ ـ ٢٣ .

وقوله تعالى ﴿ وَيطوفُ عَليهِمْ وِلْدانٌ مُخلَّدُون إذا رَأيتَهُم حَسِبتَهُم لُؤلُوءاً مَنثُوراً ﴾[1] .

أي : ولدان دائمون على ما هم عليه من صفات الحسن ، حتى لتظنهم من حسنهم وصفاء بشرتهم ، وإشراق وجوههم ، درا متفرقة ، واللؤلؤ إذا نثر على البساط انبهرت به العيون أكثر من اللؤلؤ المنظوم ، وقد يكون المراد اللؤلؤ المحفوظ بعيداً عن الأتربة والغبار والرياح حتى يكون أشد لمعاناً وأكثر صفاء . فالتشبيه في الآيات لم يرد به بيان الحال فقط ، وإنما أراد به تحسين حال المشبه وتزيينه .

ومن هذا الغرض قولك في المدح : حصباء كالياقوت ، وتراب كالمسك ورمل كالحناء ، وورق كالفضة ، وسنابل كالذهب ، وأقداح كالبللور .

وقول أبي القاسم الشابي :

في الغــاب سحر رائــع متجـدد   بــاق عــلى الأيــام والأعــوام
وشذىً كأجنحـة الملائـك غامضٌ   ســاهٍ يـرفــرف في سكـونٍ ســام

فالشاعر يجد في شذى العطر الذي يتضوع في الغاب وقعاً ساحراً ورائحة عطرة تعشقها النفس ويطرب لها الفؤاد ، فأراد أن ينقل إلينا هذا الأثر العذب الذي يطيب للنفس في صورة جميلة تجعله محبباً إلينا ، فشبهه بأجنحة الملائكة التي تتضوع بروائحها العطرة الـزكية .

وقول الشاعر :

والـنـيــل مثــل عـمــامــة   نشــرت محشـاة بــأخضــر

لم يرم الشاعر إلى وصف النيل وما يكتنفه من خضرة فحسب ، وإنما أراد

---

(١) سورة الانسان آية ١٩٥ .

أن يزينه في قلوبنا، ويجمله أمام أبصارنا، فوجد صورة العمامة البيضاء التي يحيط بها شريط أخضر فتبهر الأبصار بلونها الزاهي الموحي بالنقاء والصفاء، فأجرى التشبيه بين النيل وبينها قصداً إلى تحسين المشبه وتزيينه.

٦ - تقبيح المشبه والتنفير منه

كقوله تعالى: في شأن رجل من بني اسرائيل نبذ الكتب المقدسة وكفر بها: ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إن تَحمِل عَليهِ يَلهَث أو تَترُكْهُ يَلهَث ﴾[1].

وقوله تعالى في شأن اليهود الذين أوتوا التوراة ولم ينتفعوا بما فيها، بالحمار الذي يحمل الأثقال ولا يدري من أمرها شيئاً:
﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلوا التَّوراةَ ثُمَّ لَم يَحمِلوهَا كَمثلِ الحِمارِ يَحمِلُ اسفَاراً ﴾[2].

وقوله تعالى في شجرة الزقوم: ﴿ طَلعُها كَأَنَّهُ رُؤوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ والذِينَ كَفَرُوا يَتمتَّعونَ ويأكُلُونَ كَمَا تأكُلُ الأنعامُ والنَّارُ مثوىً لَهُمْ ﴾[4].

وتقول في الذم: ماس كالزجاج، ودر كالخزف، ودقيق كالجير. وتقول مع الشابي:

الشاعر الموهوب يُهرق فنّه ... هدرا على الأقدام والأعتاب
ويعيش في كونٍ عقيم ميت ... قد شيدته غباوة الأحقاب
والعالم النحرير يُنفق عمره ... في فهم ألفاظ، ودرس كتاب

---

(١) سورة الاعراف آية ١٧٦.
(٢) سورة الجمعة آية ٥.
(٣) سورة الصافات آية ٦٥.
(٤) سورة محمد آية ١٢.

يحيا على رمم القديم المُحْتَوَى كالدود في حمم الرماد الخابي

فقد شبه العالم الذي يفنى عمره كله للنظر في الكتب البالية السقيمة التي لا تصقل الفكر ، ولا تغذي الوجدان ، ولا ترهف الشعور ولا تثير البصيرة ، بصورة منفرة قبيحة ، هي صورة الدود الذي يعيش بين رماد لا أثر له ولا فائدة منه .

وكقول الشاعر في وصف مغنيه :

وترى أناملها على مزمارها كخنافس دبّت على أوتار

٧ ـ استطراف المشبه :

أي عد التشبيه طريفاً بديعاً « وذلك إذا كان المشبه به خيالياً لا وجود له في الواقع ، كما في تشبيه فحم فيه جمر موقد ببحر من المسك موجه الذهب »[١] إذ أن هذا البحر من المسك بأمواجه الذهبية لا وجود له إلا في الخيال ، وهذا يجعل الجمر الذي يتخلل الرماد يبدو في صورة طريفة لابرازه في صورة الممتنع .

وهذا ينطبق على قول ابن معصوم :

انظر إلى الفحم فيه الجمر مُتّقدٌ كأنه بحر مسك موجه الذهب

ونوع آخر من طرافة التشبيه ، وذلك إذا كان المشبه به موجوداً في الواقع وليس خيالياً ، إلا أنه نادر الحضور في الذهن عند حضور المشبه ، فيؤلف بين المتباعدين ويدني بينها كقول ابن المعتز في صفة الهلال :

أنظر إليه كزورق من فضة قد اثقلته حمولة من عنبر

فالزورق الفضي المثقل بحمولة العنبر يندر حضوره في الذهن عند

---

(١) الشروح ٣/٤٠٤ وشرح المختصر ٢/٢٦ .

حضور الهلال[1] ومنه قول الشاعر :

ولا زوردية تزهو بزرقتها بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار في أطراف كبريت

فصورة اتصال النار بأطراف الكبريت واقعة ، وحضورها غير نادر ، ولكن حضور هذه الصورة لا يتأتى عند حضور صورة المشبه : صورة البنفسج الأزرق على أغصانه الياقوتية الحمراء ، فالشاعر هنا قرب بين صورتين متباعدتين ، وألف بين معنيين متنافرين ، فوقع بينهما التآخي والتشابه والترابط مما يجعل التشبيه طريفاً وخلاباً . وهذا ما يؤكده لنا عبد القاهر بقوله : « فان التشبيهات سواء كانت عامية مشتركة أم خاصية مقصورة على قائل دون قائل ، تراها لا يقع بها اعتداد ، ولا يكون لها موقع من السامعين ، ولا تهز ولا تحرك حتى يكون الشبه مقرراً بين شيئين مختلفين في الجنس ، فتشبيه العين بالنرجس عامي مشترك معروف في أجيال الناس ، جار في جميع العادات والبون بعيد من حيث الجنس بين العين والنرجس . وكذلك تشبيه الثريا بعنقود الكرم المنور في قول الشاعر :

كأن الثريا في أواخر ليلها تفتح نور أو لجام مفضّض

أو الوشاح المفصل في قول الشاعر :

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

هذه التشبيهات كلها خاصة ، والتباين بين المشبه والمشبه به في الجنس على ما لا يخفى .

وهكذا إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ، وذلك أن موضع

---

(١) جواهر البلاغة ٢٧٤ للهاشمي ط ١٢ نرى أنه من النوع الأول لأن المشبه به خيالي .

الاستحسان أنك ترى بها الشيئين مثلين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين ، وترى الواحدة في السماء والأرض . . . وهكذا طرائف تنثال عليك إذا تتبعت هذه اللمحة »[1] .

وقد يكون الغرض من التشبيه عائداً إلى المشبه به وذلك في موضعين :

أولهما : بيان الاهتمام بالمشبه به لفظاً ومعنى كالجائع إذا شبه وجهاً كالبدر بالرغيف في الاستدارة والإشراق ، وتلذذ النفس به إظهاراً لاهتمامه بشأن الرغيف ، ويسمى هذا الوجه إظهار المطلوب ، قال السكاكي « ولا يحسن المصير إليه إلا في مقام الطمع في شيء »[2] .

وثانيهما : إذا قصد إيهام أن المشبه به ـ وهو الذي كان في الأصل مشبهاً ـ أتم وأكمل في وجه الشبه من المشبه .

كقول الشاعر :

شمس الضحا كجبينك الوضاح أف لمن جعلوه كالمصباح

فالشاعر يحاول إيهامنا بأن جبين الممدوح أكثر إشراقاً من الشمس ، ومنه قول ابن المعتز :

وكأن الشمس المنيرة دينا رجلته حدائد الضراب

فالدينار أكثر تلألأً ولمعاناً من الشمس .

وقول البحتري :

في طلعة البدر شيء من ملاحتها وللقضيب نصيب من تثنيها

---

(1) الأسرار ١٤٦ ط الاستقامة ١٩٤٨ .

(2) الشروح ٣/٤١٠ ، فن التشبيه ١/٢٨٥ .

فالمتعارف تشبيه الوجه الحسن بالبدر ، والقوام اللدن بالغصن ، ولكنه جعل وجهها أجمل من البدر ، وخصرها ألين من الغصن على سبيل الإيهام .

ومنه قول ابن المعتز :

بـدر ولـيـل وغـصـنٌ وجـه وشـعـر وقـدٌّ
خـمـر وورِدٌ ودرٌ ريـق وَثَـغْـرٌ وخـدٌّ

والتشبيه على هذا الوجه كثير في الكلام والشعر . وهذا يجرنا بالطبع إلى الحديث عن التشبيه المقلوب .

التشبيه المقلوب

ويسمى أيضاً التشبيه المعكوس ، فيجعل المشبه مشبهاً به ، وبالعكس ، فتعود فائدته إلى المشبه به ، لادعاء أن المشبه أتم وأكمل وأظهر وأشهر من المشبه به في وجه الشبه . والمقصود من هذا القلب في التشبيه المبالغة ، وهو موضع من علم البيان حسن الموقع لطيف المأخذ . وقد جاء في القرآن الكريم الكثير من أمثلته .

قال تعالى : ﴿ إنَّما البَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحلَّ الله البيعَ وَحرَّمَ الرِّبا ﴾(1).

فكان الأصل أن يقولوا : إنما الربا مثل البيع ، لأن الكلام في الربا وليس في البيع ، لكنهم عدلوا عن ذلك وتجرءوا ، فجعلوا الربا كأنه الأصل والبيع ملحق به ، فكأنه هو الفرع ، ولذلك يسمى بعض العلماء هذا النوع : غلبة الأصول على الفروع . فقلبوا التشبيه مبالغة فيه زعماً أن الربا أولى بالحل من البيع ، قال الإمام فخر الدين في تفسيره إنه لما تساوى عندهم البيع والربا كان البيع مثل الربا ، وعكسه سواء .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَمن يَخلُقُ كَمَن لَا يَخلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرونَ ﴾(2) .

---

(1) سورة البقرة آية ٢٧٥ .

(2) سورة النحل آية ١٧ .

فالمقصود الزجر عند تشبيه غير الخالق بالخالق ، فالظاهر العكس لأن الخطاب لعبدة الأوثان ، وإنما قلبوا لأنهم غلوا في عبادتها إلى أن صارت عبادتها أصلاً ، وعبادة الله عندهم فرعاً ، أو أنهم لما عبدوا غير الله كانت حالنهم في القبح حالة من يشبه غير الله بالله .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾(1) .

وضع قوله اتخذ إلٰهه هواه بدلاً من قوله هواه إلٰهه ، فقد جعل هواه معبوده يخضع له ويطيعه ، كما يخضع العابد لمعبوده .

ومن التشبيه المقلوب قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾(2) .

ونساء النبي عليه السلام في مكان القدوة لسائر النساء : أي لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء ، ولا توجد جماعة منكن تعدلكن في الفضل والسابقة إذا دمتن على ما أنتن عليه من التقوى . فالتشبيه على القلب . والأصل ليس أحد من النساء مثلكن ، أما إذا كان المعنى : لستن كأحد من النساء في النزول ، فلا قلب في التشبيه .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۞ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾(3) .

---

(1) سورة الجاثية آية ٢٣ .
(2) سورة الأحزاب آية ٣٢.
(3) سورة ص آية ٢٧ ـ ٢٨ .

ليس خلق السماء والأرض عبثاً خال عن الحكمة ، ولا يظن الكافرون ألاّ بعث ولا حساب ولا عقاب ، أو أننا نسوي بين المصلحين والمفسدين ، والمتقين والفجار ، وأصل الكلام : أنجعل المفسدين كالمصلحين والفجار كالمتقين ، ولكنه عكس مبالغة ومسايرة لظن الكافرين بأنهم أرفع مكانة من المؤمنين المتقين في الآخرة كما أنهم كذلك في الدنيا ، لأن الأصل أن يشبه الأدنى بالأعلى .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إنَّ لِلمتَّقينَ عِندَ رَبِّهم جَنَّات النَّعيمِ * أَفَنَجعَلُ المُسلِمينَ كَالمُجرِمينَ ﴾[1] .

وأصل الكلام : أفنجعل المجرمين كالمسلمين ، ولكنه عكس مسايرة لاعتقادهم أنهم أفضل من المسلمين كما في الآية السابقة . أما إذا جعل المعنى ليس المصلحون كالمفسدين والمتقون كالفجار ، والمسلمون كالمجرمين في سوء الحال فلا عكس في التشبيه .

وزعم ابن الزملكاني في البرهان في قوله تعالى حكاية عن ابنة عمران :

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْها قَالت رَبِّ إنِّي وَضَعْتُها أُنثىٰ وَاللهُ أعلَمُ بِما وَضعت وَلَيسَ الذَّكرُ كَالأُنثىٰ ﴾[2] .

أنه من التشبيه المقلوب ، لأن الأصل وليس الأنثى كالذكر ، وليس كما قال ، فان المعنى ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وضعت ، لأن الأنثى أفضل منه [3] .

ومثاله من الشعر قول ابن المعتز :

---

(١) سورة القلم آية ٣٤ ـ ٣٥ .

(٢) سورة آل عمران آية ٣٦ .

(٣) أنظر الشروح ٤٠٨/٣ ، البرهان ٤٢٧/٣ ، المعترك ٢٧٤/١ .

ولاح ضـــوء قميـر كـــاد يفضحنـــا   مثلُ القُلامة قد قُـدَّتْ من الظُفُـر

فالأصل أن تشبه قلامة الظفر بالهلال في نحولها وتقوسها واعوجاجها ، فعكس ابن المعتز وشبه الهلال بالقلامة مبالغة في التشبيه .

وكقول البحتري في وصف بركة المتوكل :

كأنها حين لجّتْ في تـدفقها   يـدُ الخليفة لمـا سال واديهـا

فالبحتري أراد أن يوهم أن يد الخليفة أكثر تدفقاً بالعطاء من بركة الماء على سبيل المبالغة فيد الخليفة أشهر وأتم وأكمل في العطاء من تدفق البركة .

وقول ابن المعتز :

لـــي مــولىً لا أســمـيــه   كــل شـيء حســـن فيــه
ويـكــاد الـبــدر يـشـبـهــه   وتـكــاد الشــمس تحـكـيــه

فهو يشبه البدر والشمس بمولاه ، بل يصرح بأن البدر لا يشبهه ، بل يكاد على سبيل المقاربة . والشمس لا تحاكيه ، بل تكاد على سبيل المقاربة .

وقول الشاعر في العنّاب :

أمـا تـرى العنّـاب في دَوحـه   كـأنـه رطب قلوب الـطيـورْ

والأصل أن يشبه قلوب الطيور الرطبة بالعناب ، كما في قول امرىء القيس :

كـأن قلوب الـطيـر رطبـاً ويـابسـاً   لدى وكرها العناب والحشف البالي

ولكنه عكس فشبه العناب بالرطب من قلوب الطير .

ولكن الحلبي قيد التشبيه المعكوس « بأن يشبه شيئين كل واحد منهما بالآخر » بمعنى أن يشبه الطرف الأول بالثاني ، ثم يشبه الثاني بالأول كقول الشاعر :

الخمـر تفـاح جـرى ذائبـاً كـذلك التفـاح خمـر جمـد
فـاشرب على جـامـد ذوبـه ولا تبـع لـذة يـوم بغـد

وكقول منصور الهروي :

الـراح مثـل المـاء في كـاسـاتهـا والمـاء مثل الـراح في الغدران[1]

ومما يجب التنبيه إليه أن التشبيه المقلوب لا يصح أن يجري في كل مثال ، ولكنه يجري فقط فيما يكون فيه المشبه والمشبه به معلوماً عند الناس ، ومتعارفاً بينهم حتى يدركوا القلب عند سماع المثال ، كما في تشبيه الشجاع بالأسد ، والجواد بالبحر ، والجميل بالبدر ، والوديع بالحمـل ، والحقود بالفيل ، والمراوغ بالثعلب ، والمزهو بالطاووس ، إلى غير ذلك مما ألفته الأسماع ، وأنست به الأذواق ، أما التشبيهات الخفية التي لا تعلم عند الناس عامة فلا يجري فيها القلب ، إذ لو جرى فيها لما فهمت ، ولما عرف أن في التشبيه قلباً ، فضلاً عن أنها غير مستساغة ، فالقلب يحسن في المتعارف ، ويقبح في غير المتعارف « وقد نبه الحصري إلى أن من المعاني ما لا ينقلب ، ألا ترى أنك تقول : « نام القوم حتى كأنهم موتى ، ولا يحسن أن تقول : ماتوا كأنهم نيام »[2]. وتقول : إنسان صامت كالحجر ، وذلك إذا افحم وانقطعت حجته ، ولا يجوز أن تعكس التشبيه فتقول : سكت هذا الحجر كأنه إنسان صامت ، لأن ذلك غير متعارف .

وينوه الوطواط ببلاغة التشبيه المعكوس ذلك أن « أجمل التشبيهات ، وأكثرها قبولاً لدى الطباع ، هي تلك التي إذا انعكست وشبه فيها المشبه به بالمشبه فان الكلام يستقيم مع صحة المعنى وسلامته ، وصواب التشبيه

---

(١) حسن التوسل ٢٤ ط هندية .
(٢) زهر الآداب ٢/ ٩٦.

وصحته »[1] وابن الاثير يرى أنه « موضع من علم البيان حسن الموقع ، لطيف المأخذ » والهاشمي يذكر أنه « مظهر من مظاهر الافتنان والإبداع » .

القيمة البلاغية للتشبيه

التشبيه يضفي على المعنى شرفاً ووضوحاً ، ويزيده قوة وتأكيداً ، ويرفع من قدر الكلام فتهفو النفس له ، ويتحرك القلب إليه ، لأنه ينتقل بنا من المعنى الأصلي إلى صورة تشبهه ، وكلما جلا التشبيه المعنى وزاده قوة ووضوحاً كان أملك للنفس وأبعد للتأثير .

« واعلم أنك إذا أردت تشبيه الشيء بغيره فانما تقصد إلى تقرير المشبه في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه ، فيستفاد من ذلك المبالغة فيما قصد به من التشبيه على جميع وجوهه من مدح أو ذم ، أو ترغيب أو ترهيب ، أو كبر أو صغر ، أو غير ذلك من الوجوه التي يقصد بها التشبيه ، كما يستفاد منه الإيجاز والاختصار ، والبيان والإيضاح »[2] .

فمن التشبيه ما يفيد المبالغة كقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الجَوارِ المُنشِآتِ في البَحرِ كَالأعلامِ ﴾[3] .

شبه القرآن السفن الجارية على ظهر البحر بالجبال في ضخامة حجمها على سبيل المبالغة .

وقول الرسول عليه السلام « المؤمن كالسُنبُلَة تَعْوَجُّ أَحياناً وتُقـوَّم أخرى » شبه استقامة المسلم واعوجاجه في تصرفاته الدينية باستقامة السنبلة

---

(١) أنظر في هذا الموضوع المثل السائر ٢/١٦٠ ، التشبيه بين عبد القاهر وابن الأثير ١٢٧ د. الكردي ط السعادة والطراز ١/ ٣٠٩ ، والجواهر ٣٧٥ . وفن التشبيه ٣٠٠ .

(٢) الطراز ١/٢٧٣ ، فن التشبيه ١/٧٠ .

(٣) سورة الرحمن آية ٢٤ .

واعوجاجها ، فالمبالغة واضحة في تشبيهه بالسنبلة .

وكقول امرىء القيس في صفة فرسه :

مكــر مفـر مقبــل مــدبــر معــاً   كجلمود صخر حطه السيل من عل

شبهه في سرعة كره وفره وإقباله وإدباره بالحجر الضخم الذي يرمي به السيل من مكان مرتفع ، ويهوي إلى مكان منخفض ، ففي هذا التشبيه من الإفراط والمبالغة ما هو واضح .

والتشبيه يفيد الإيجاز ، فإذا قلت زيد كالأسد فقد أردت أن تشبهه بالأسد في شهامة النفس ، وقوة البطش ، وجراءة الإقدام ، والقدرة على الافتراس وغير ذلك من الصفات الشريفة ، ولكنك استغنيت بذكر لفظ الأسد عن أن تقول : زيد شهم شجاع قوي البطش جريء القلب قادر على الاعتداء .

وكقول الشاعر في مغنيه :

جـاءت بـوجـه كـأنــه قمـر   على قــوام كــأنــه غصـن

غنت فلم تبق فيّ جـارحـة   إلا تــمــنــيـت أنــهـــا أذن

أراد أن يصفها بالحسن والبهاء والإشراق ، واللين والتثني والنعومة ، فعبر بلفظ القمر والغصن ، ففي اللفظة الواحدة ما يجمع هذه الصفات كلها ، وهذا نهاية الاختصار والإيجاز .

وكقول البحتري :

تبسم وقــطوب في نــدى ووغـى   كالرعد والبرق تحت العارض البرد

فشبه البحتري ابتسامة الممدوح وهو يجود بعطائه بالبرق في إشراقه ولمعانه والإنبهار بنوره ، كما شبه عبوس وجهه وصيحاته وقت الحرب وقتال الأعداء بالرعد في جهارة صوته وضجته وقذف الرعب في القلوب ، فأوجز غاية الإيجاز ، باختياره لفظتي الرعد والبرق وشبه حالة الممدوح بهما .

والتشبيه يفيد التوضيح والتوكيد : باخراجه الخفي إلى الجلي ، والمبهم إلى الواضح ، والبعيد إلى القريب ، والمعنوي إلى شيء تدركه الحواس فيتأكد في النفس ، ويتقرر في الفؤاد ، فلا تنمحي صورته من الأذهان ففي قوله تعالى : ﴿ مَثلُ الَّذِينَ اتَّخذُوا مِن دُونِ اللهِ أولياءَ كَمثلِ العَنكَبوتِ اتَّخذَت بَيتاً ﴾[1] .

صورة واضحة لحال الكافرين وأعمالهم الفاسدة حين شبهها بالعنكبوت الذي أقام بيته الواهي على نسج مهلهل لا يثبت أمام الهواء ، وقررها في الأذهان حين أتى بهذه الصورة الحسية التي لا تبرح الفكر ، ولا تغادر الشعور .

وكقول أبي العيناء :

جاء الشباب فما أقا م ولا ألم ولا وقف
كان الشباب كزائر مل الزيارة وانصرف

فهو يشبه مجيء الشباب وسرعة زواله بالزائر الذي يغادر البيت سريعاً حين يمل الزيارة ، فأعطانا التشبيه صورة واضحة جلية لسرعة انقضاء زمن الشباب حين شبهه بصورة حسية تتمثل في شخص زائر يأتي وينصرف سريعاً مما يقرر المعنى ويؤكده في الذهن . « فالوظيفة الأساسية للتشبيه والقاعدة الأولى التي يتناول بها جميع الأغراض ، هي التصوير والتوضيح بالانتقال من شيء إلى شيء آخر يشبهه ويشاكله يعبر به الشاعر أو الكاتب عن معنى في نفسه ، وكلما كان أبعد وأغرب كان أروع وأجمل ، غير أن التشبيه لا يستخدم في حالة الانفعال الشديد ، ولذلك كان يشيع في النثر الفني والشعر التصويري ، أما في الشعر الغنائي فيقل استخدامه ، لأن الشاعر فيه يكون

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤١ .

جياش العاطفة جيشاناً قلما عني فيه بالمشابهات والمقارنات التي تفد على ذهن الكتاب وخيالهم في أوقات التأمل والهدوء .

إنما يشيع في الشعر الغنائي المجازات وما يتصل بها من استعارات ، لأنها هي التي تلائم ثورة العاطفة ، وحدة الوجدان ، فتخرج الكلمات ملتهبة حادة بفضل ما في المجاز والاستعارة من تركيز وتبلور يعطي التعبير قوة[1] .

---

(١) في النقد الأدبي ١٧١ د. شوقي ضيف ط دار المعارف .

الباب الثاني

ويشمل :

١ ـ الحقيقة والمجاز .
٢ ـ فكرة المجاز وتطورها .
٣ ـ المجاز المرسل .
٤ ـ الاستعارة .
٥ ـ الكناية .

الحقيقة والمجاز

كل لفظ عربي له معنى محدد وضع له من أول الأمر ، بحيث يشير هذا اللفظ إلى ذلك المعنى دون أن يتعداه إلى سواه ، فكلمات مثل الأكل والشرب والنوم والعمل قد وضعها واضع اللغة لتدل على معناها المحدد ، فاذا استعملت اللفظة في هذا المعنى المحدد اطلق عليها كلمة (حقيقة) لأنها استعملت في معناها الحقيقي الذي وضعت له . فاذا تجاوز اللفظ معناه الموضوع إلى معنى آخر ، ولم يستعمل في معناه الأصلي ، بل استعمل في معنى فرعي ، لا يعد حقيقة ، وإنما يسمى مجازاً ، لأنه اجتاز المعنى الأول وتخطاه إلى المعنى الثاني ، فاذا وصفنا المقاتل بأنه أسد ، والمعروف أن المقاتل إنسان ، والأسد حيوان ، نكون قد تجوزنا في التعبير ، وانتقلنا من الإنسانية إلى الحيوانية ، أي عبرنا من هذا المعنى إلى ذلك حين لاحظنا وصفاً مشتركاً بينهما وهو الشجاعة .

وإذا أطلقنا لفظ الشمس - وهو الموضوع لذلك الكوكب المضيء - على الوجه الحسن نكون قد انتقلنا من المعنى الأول الحقيقي إلى المعنى الثاني المجازي ، واتسعنا في التعبير حين اجتزنا باللفظ معناه الذي وضع له إلى معنى آخر لم يوضع له .

وكذلك كلمة بحر ، وهي الكلمة التي تطلق حقيقة على المكان المتسع

الممتليء بالماء المالح إذا وصف به الرجل الكريم ، نكون قد تجاوزنا في التعبير ونقلنا اللفظ من معناه الحقيقي الموضوع له إلى معنى آخر مجازي لم يوضع له ، وهكذا يمكن القول بأن الحقيقة هي اللفظ الدال على معناه الأصلي .

والمجاز هو اللفظ الدال على غير معناه الأصلي(١) .

فالحقيقة أصل ، والمجاز فرع .

« واعلم أن كل مجاز لا بد له من حقيقة ، لأنه لم يصح أن يطلق عليه اسم المجاز إلا لنقله عن حقيقة موضوعة له ، إذ المجاز هو اسم للموضوع الذي ينتقل فيه من مكان إلى مكان ، فجعل ذلك لنقل الألفاظ من الحقيقة إلى غيرها .

وإذا كان كل مجاز لا بد له من حقيقة نقل عنها إلى حالته المجازية ، فكذلك ليس من ضرورة أن يكون لكل حقيقة مجاز ، فان من الأسماء ما لا مجاز له كأسماء الأعلام ، لأنها وضعت للفرق بين الذوات ، لا للفرق بين الصفات »(٢) فالعلم الشخصي مثل بكر وخالد وعثمان إنما يطلق على الشخص ليعينه ويميزه عن الآخرين ، وليس يطلق عليه ليجري على غيره كما يستعمل المجاز .

واللغة فيها الحقيقة وفيها المجاز ، والقرآن يشتمل على الحقائق كما يشتمل على المجازات ، والآيات القرآنية التي استعملت في حقيقتها ولم يتجوز فيها عديدة ، كالآيات التي تنطق ظواهرها بوجود الله ، ووحدانيته ، واسمائه وصفاته مثل قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللهُ الذِي لَا إلَهَ إلاَّ هُو عَالِمُ الغَيبِ

---

(١) المثل السائر ١/١٠٥ ، الاشارة إلى الايجاز ٢٨ .
(٢) المثل السائر ١/١١٠ .

وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحمٰنُ الرَّحِيم * هُو اللهُ الذِي لَا إلٰهَ إلاّ هُو المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ المُؤمِنُ المُهَيمِنُ العَزيزُ الجَبَّارُ المُتَكبِّر سُبحانَ اللهِ عَمَّا يُشرِكُونَ * هُو اللهُ الخَالقُ البَارِيءُ المُصَوِّرُ لَه الأَسماءُ الحسنَىٰ ﴾(١) .

ومن الأفعال التي استعملت في حقيقتها .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُحيِي اللهُ المَوتَىٰ وَيُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُم تَعقِلُونَ ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيُرِيكُم آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللهِ تُنكِرُونَ ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ يَتلُوا عَليهِم آياتِهِ وَيُزَكِّيهِم وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكمَةَ ﴾(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بآيَاتِنا أُولئِكَ أَصحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئسَ المَصِيرُ ﴾(٥) .

فكل فعل من الأفعال المذكورة في الآيات السابقة مستعمل في معناه الحقيقي : فاسناد الاحياء لله والرؤية للمعجزات والتلاوة للآيات والكفر والتكذيب للكافرين كل ذلك مستعمل في حقيقته ، وكذلك الأفعال المشتقة من التعقل والإنكار والتزكية والتعليم مستعملة في معناها الأصلي ، ولم تستعمل في غير ما وضعت له .

والحروف أيضاً تستعمل في حقيقتها كقوله تعالى :

---

(١) سورة الحشر آية ٢٢ ـ ٢٤ .

(٢) سورة البقرة آية ٧٣.

(٣) سورة غافر آية ٨١.

(٤) سورة الجمعة آية ٢ .

(٥) سورة التغابن آية ١٠ .

﴿ وَهُم فِي الغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾[1] .

﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾[2] .

﴿ وَعَلَىٰ الأَعرَافِ رِجَالٌ ﴾[3] .

﴿ إنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾[4] .

فالحرف (في) مستعمل في معناه الحقيقي وهو الظرفية ، والحرف (على) مستعمل أيضاً في معناه الحقيقي وهو الاستعلاء .

والآيات التي لا تفيد مَعناها الحقيقي ، وإنما تستعمل في معنى مجازي كثيرة أيضاً .

فمن الأسماء قوله تعالى : ﴿ وَاحلُل عُقدَةً مِن لِسَانِي ﴾[5] .

واللسان ليست فيه عقدة ظاهرة محسوسة وإنما أراد بالعقدة ما يطرأ على اللسان من عيوب الكلام كاللثغة والرته وغير ذلك .

وكقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ القُرآنَ جَعَلنَا بَينَكَ وَبَينَ الَّذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَستُوراً ﴾[6] .

فليس ثمة حجاب حقيقي اسدل بين الرسول عليه السلام وبين الكفار ، وإنما هو أمر معنوي حيث لم ينتفعوا بما يسمعونه من آي القرآن ، فكأن الموانع قد أقيمت بينه وبينهم فحجبتهم عن الرؤية.وحرمتهم السماع .

---

(١) سورة سبأ آية ٣٧ .
(٢) سورة الزمر آية ١٩ .
(٣) سورة الأعراف آية ٤٦ .
(٤) سورة الطور آية ١٧ .
(٥) سورة طه آية ٢٧ .
(٦) سورة الاسراء آية ٤٥ .

وكقوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتبَعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بِإِذْنِهِ ﴾(١) .

فالظلمات الحقيقية تمنع نفوذ الأبصار في المحسوسات .
والأنوار الحقيقية تكشف المحسوسات أمام الأبصار .

والقرآن لم ير اخراجهم من ظلام الليل إلى ضوء النهار حقيقة ، وإنما أراد إخراجهم من الكفر الذي يتخبط فيه المرء كما يتخبط في ظلمة الليل ، إلى الإيمان الذي يهتدي به الإنسان كما يهتدي بنور النهار .

ومن الأفعال التي استعملت في معنى مجازي قوله تعالى :
﴿ فَذَاقَت وِبَالَ أَمرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمرِهَا خُسراً ﴾(٢) .
﴿ ذُق إنك أَنتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ ﴾(٣) .
﴿ قَالَ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُم تَكفُرُونَ ﴾(٤) .

فالمذاق هنا ليس محسوساً باللسان ، وإنما هو أمر معنوي قصد به ما يشق على النفس أن تتقبله ، ويضعف الوجدان أن يتحمله ، فالفعل ذاق لم يستعمل في معناه الحقيقي ، بل تجاوز المعنى الحقيقي المعروف إلى معنى مجازي مقصود .

ويأتي المجاز في الحروف أيضاً كقوله تعالى :

﴿ قَالَ المَلأ مِن قَومِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾(٥) .

---

(١) سورة المائدة آية ١٥ ـ ١٦ .
(٢) سورة الطلاق آية ٩.
(٣) سورة الدخان آية ٤٩ .
(٤) سورة الأنعام آية٣٠ .
(٥) سورة الاعراف آية ٦٠.

﴿ وَارتَابَت قُلُوبُهُم فَهُم فِي رَيبِهِم يَتَرَدَّدُون ﴾[1] .
﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفلَةٍ مِن هٰذَا فَكَشَفنَا عَنكَ غِطَاءَكَ ﴾[2] .

فالضلال ، والريبة ، والغفلة ، كلها أشياء معنوية ، ولست وعاء حسياً يصلح أن يوضع فيه أحد ، أو يبقى فيه شيء ، فالحرف الذي يفيد الظرفية وهو (في) لم يستعمل هنا في معناه الظرفي الحقيقي الذي وضع له ، وإنما استعمل في معنى مجازي اشارة إلى الإنغماس بجميع الأطراف في صفة الضلال أو الريبة ، أو الغفلة .

فالحقيقة لها موضعها الذي تستعمل فيه ، والمجاز أيضاً له موضعه الذي يستعمل فيه ، فلا يطغى أحدهما على موضع الآخر ، وإنما الذي يحدد التعبير بالحقيقة أو التعبير بالمجاز هو مقتضيات الأحوال حتى يتوافر شرط البلاغة ففي موضع ينبغي أن تستعمل الحقيقة دون المجاز ، وفي موضع آخر يجب أن يستعمل المجاز دون الحقيقة ، فكلاهما في موضعه بليغ ، وكلاهما في غير موضعه خارج عن البلاغة .

« ولكن أرباب البلاغة متفقون على أن المجاز أبلغ من الحقيقة في تأدية المعنى ، فعندما تقول (لقيت الأسد وجاءني البحر) فقد جعلت الرجل أسداً وبحراً بما يحمله من دلالة على الشجاعة والجود لأن الشجاعة ملازمة للأسد ، والجود تابع للبحر ، والدلالة بلازم الشيء وتابعه أكشف لحاله وأبين لظهوره ، وأقوى تمكناً في النفس من غير ما ليس بهذه الصفة[3] وما من كتاب من كتب البلاغة إلا ويجعل ابلغية المجاز عن الحقيقة قاعدة ثابتة تذكر في ثقة ويقين دون مناقشة أو تردد حتى علق بأذهان المتعلمين والمشتغلين بعلوم

---

(١) سورة التوبة آية ٤٥ .
(٢) سورة ق آية ٢٢ .
(٣) الطراز ١ ، ٢٠٩ ، ٣٠٣.

البلاغة أن التعبير بالمجاز يؤدي غرضاً بلاغياً لا يؤديه التعبير بالحقيقة ، ويسوقون على ذلك مثالاً تقليدياً شائعاً فيقولون « ألا ترى أن حقيقة قولنا زيد أسد هي زيد شجاع ، لكن الفرق بين القولين في التصوير والتخييل ، واثبات الغرض المقصود في نفس السامع ، لأن قولنا « زيد شجاع » لا يتخيل منه السامع سوى انه رجل جريء مقدام ، فاذا قلنا زيد أسد يخيل عند ذلك صورة الأسد وهيئته وما عنده من البطش والقوة ودقة الفرائس »[1] ورغم هذا التحليل الذي يبرز الصورة التي أوحى بها المجاز فاتسعت دائرة الخيال حتى خلع على الإنسان صفات ليس من شأن الانسان أن يحملها ، وإنما نقلت إليه عن طريق المجاز ، إلا أن اقتناعهم بأفضلية المجاز على الحقيقة لم يكن قاطعاً لا يساورهم فيه شك ، وإنما كانت الشكوك تنتابهم حين يلجئون إلى التطبيق بالمثال فيقررون أن للحقيقة مجالها الذي لا يزاحمها فيه مجاز ، بل « إذا ورد عليك كلام يجوز أن يحمل معناه على طريق الحقيقة وعلى طريق المجاز ، فانظر ، فان كان لا مزية لمعناه في حمله على طريق المجاز ، فلا ينبغي أن يحمل إلا على طريق الحقيقة ، لأنها هي الأصل ، والمجاز هو الفرع ، ولا يعدل عن الأصل إلى الفرع إلا لفائدة ، مثال ذلك قول البحتري :

مَهيب كحد السيف لو ضربت به ذراً أجـأ ظلت واعـلامُهـا وُهـدُ

ويروي أيضاً :

مهيب كحد السيف لو ضربت به طُلى أجـأ ظلت وأعـلامهـا وهـد

فهذا البيت لا يجوز حمله على المجاز ، لأن الحقيقة أولى به ، ألا ترى أن الذرا جمع ذروة وهو أعلى الشيء ، والطلى جمع طُلية وهي العنق أعلى الجسد ، ولا فرق بينهما في صفة العلو هنا ، فلا يعدل إذن إلى المجاز ، إذ

---

(١) المثل السائر ١١١/١ .

لا مزية له على الحقيقة . وهكذا كل ما يجيء من الكلام الجاري هذا المجرى فانه إن لم يكن في المجاز زيادة فائدة على الحقيقة لا يعدل إليه»[1] فالتعبير بلفظة (ذرا) حقيقة في معناه ، والتعبير بلفظة (طلى) مجاز ، وكلا اللفظين يؤدي معنى واحداً وهو السمو والارتفاع ، فلا مزية إذن للتعبير بالمجاز في هذا الموضع والتعبير بالحقيقة ينهض بأداء المعنى دون نقصان ، فالحقيقة المباشرة هنا هي الأولى لأنها الأصل ، ولا يهجر الأصل إلى الفرع حيث لم نجد في الفرع ما نفتقده في الأصل . بل اننا نجد في كلام النقاد أنفسهم دليلاً واضحاً صريحاً على أن العرب لم تكن تحفل بالمجاز والتصوير وشطحات الخيال قدر اهتمامهم بالاصابة والوضوح والتحديد ، يقول صاحب الوساطة « وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب . . . ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة »[2] .

فما دام المعنى صحيحاً ، واللفظ مستقيماً ، والوصف مصيباً ، فلا حاجة لنا بعد ذلك كي نلجأ إلى زخرف من البديع والصنعة ، أو نشطح بتهويمات الخيال من مجاز واستعارة . فما قاله البلغاء قديماً « إن المجاز أبلغ من الحقيقة كان ذلك تعبيراً عن فقه استدلالي لا علاقة له بالواقع الذي يمارسه الشعراء والأدباء ، ونحن ندعي أن الحقيقة تنافس المجاز ، وأن المجاز في تعبيرات كثيرة إمارة على معنى مجرد وراءه ، وان قمة المجاز وهي الاستعارة المكنية ينبغي ألا تكون مطمحاً دائماً متميزاً »[3] .

---

(١) المثل السائر ١/١١١ ، ١١٢ .

(٢) الوساطة ٣٧ ، ٣٨ .

(٣) الصورة الأدبية ١٨٧ .

والقرآن الكريم وهو الحجة البالغة والمعجزة الخالدة للأسلوب العربي في فصاحته وبلاغته قد زخر بالحقائق اللفظية وعبر بها في كثير من الآيات ، بل إن أكثر آي القرآن قد أتى على الحقيقة كما يقول الزركشي[1] .

واشتمال القرآن على الحقيقة لم ينكرها أو يختلف فيها أحد من العلماء الذين تناولوا القرآن بالدراسة من نواحيه كافة ، وإنما اختلفوا في المجاز ووقوعه في القرآن ، ولو كان التعبير بالحقيقة أقل بلاغة من التعبير بالمجاز لخلا القرآن كلية من الحقيقة ، وفضل التعبير بالمجاز في جميع المواقف والأحوال ، في تشريعه وتعليمه كما في ترهيبه وترغيبه ، ولسار على نمط واحد من التخييل والتأويل لكي يترك أثره الذي لا يتركه التعبير المحدد الدقيق ، ولكن ذلك ناء عن الصواب ، فآيات القرآن العديدة أمام الأبصار ، واستخراج الآيات التي عبر فيها بالحقيقة ولم يتجوز فيها لا يحصرها عد ، وتفتقر إلى جهد كبير فوق الطاقة والاحتمال . ونصل من ذلك كله إلى أن الحقيقة لا تقل في قيمتها البلاغية عن المجاز . فالبلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، والحال أحياناً يدعو إلى التوضيح أو التحديد أو التقريب ، وأحياناً يدعو إلى المبالغة أو التأكيد أو تكفي فيه الإشارة ، أو يفي به الرمز ، ولكل موقف ما يناسبه من الكلام سواء كان بالحقيقة أو بالمجاز بحيث لا يغني أحدهما عن الآخر في نقل المعنى ، أو رسم الصورة ، فالقول بأن المجاز أبلغ من الحقيقة لا نرى فيه ما يدعمه حتى نقنع به ، فهو قضية تقبل النقاش ، وليس مبدءاً يجب التسليم به .

---

(١) البرهان ٢/ ٢٥٥ .

فكرة المجاز وتطورها

ولا نستطيع أن نحدد تاريخاً معيناً لبداية استعمال المجاز ، لأن المجاز في طبيعة الإنسان الذي يود أن يعبر عن مكنونات نفسه ، فيستخدم الألفاظ التي تبرز ما انطبع في نفسه من مشاعر وأحاسيس ، وربما تقصر الألفاظ عن أداء المعنى أداء حقيقياً خاصة في الشعر حيث لا ينكشف المعنى انكشافاً دقيقاً ، فالشاعر تموج نفسه في محيط خضم من الأحاسيس والمشاعر المتباينة فكان هذا الغموض والابهام الذي يعتري معاني الشعر دافعاً للشعراء إلى أن يستعينوا بالصور والألفاظ المشعة ، والعبارات الموحية ، ويلجئوا إلى المجاز لينقلوا إلينا انفعالاتهم المبهمة ، وأحلامهم الهائمة ، فالتعبير بالمجاز من الخصائص الشعرية ، وبدونه لا يسمى شعراً ، فالمجاز إذن قد استعمل على وجه التقريب منذ وجد الشعر وسال على ألسنة الشعراء ، والباعث إليه سبب فني بحت ، ثم يمضي الزمن ويأتي القرآن ينشر عقيدة التوحيد ، وتنزيه الله عن مشابهة الحوادث ، ولكن المفسرين يصطدمون بقضية التشبيه في بعض آيات القرآن مثل قوله تعالى : ﴿ بِيَدِكَ الخَيرُ إنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] .

ومثل : ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللهِ مَغلُولَةٌ غُلَّتْ أَيدِيهِم وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾[2] .

---

(١) سورة آل عمران آية ٢٦ .

(٢) سورة المائدة آية ٦٤ .

و﴿ قُل إنَّ الفَضلَ بِيَدِ اللهِ يُؤتِيهِ مَن يَشاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[١] .

وكذلك : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكمِ رَبِكَ فَإنَّكَ بِأعيُنِنا ﴾[٢] .

ومثل ﴿ وَاصنَعِ الفُلكَ بِأعيُنِنا وَوَحْيِنَا ﴾[٣] .

ومثل ﴿ تَجرِي بِأعيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ ﴾[٤] .

ومثل ﴿ أن تَقُولَ نَفسٌ يَا حَسرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتَ فِي جَنبِ اللهِ ﴾[٥] .

فأهل السنة يأخذون بظاهر الآيات دون أن يعملوا فكرهم أو يجهدوا ذهنهم ، بل يكتفون بالأخذ بظاهر الآيات ، فابن قتيبة يرى أن هذه الآيات وأضرابها تمضي على الحقيقة ، وليس فيها شيء من المجاز ، ولعل هذا هو الذي دعا العلماء أن يقذفوه مرة بأنه من المشبهة ، وأخرى بأنه من الكرّاميّة ـ وهم غلاة المشبهة ـ ويمكن القول إن هذا التفسير بالحقيقة لم يكن واضحاً كل الوضوح في مشكل القرآن ، فابن قتيبة يشير إليها ولا يعلنها صراحة كما فعل في كتابه (اختلاف اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة)[٦] فتعرض هذا الطابع من التفسير إلى حملة قاسية من جانب المعتزلة الذين يتناولون مثل هذه الآيات بالتأويل حتى تتفق وجلال الله سبحانه وتعالى ، وتنأى به عن صفات الحوادث ومشاركة التخييل ، فصرفوا الكلام عن وجهه وعدوه مجازاً « واعتبروا التفسير بالحقيقة هنا ضرباً من السذاجة يساعد على نشر التصورات الشعبية ، مما دعا أهل السنة إلى أن يعدلوا عن موقفهم ويقتربوا من موقف الخصوم ،

(١) سورة آل عمران آية ٧٣.
(٢) سورة الطور آية ٤٨ .
(٣) سورة هود آية ٣٧ .
(٤) سورة القمر آية ١٤ .
(٥) سورة الزمر آية ٥٦ .
(٦) أنظر أثر النحاة في البحث البلاغي للمؤلف ـ فصل ابن قتيبة ط نهضة مصر .

ثم الإيمان بأن هذه الألفاظ لا سبيل إلى إدراك كنهها »[1] .

ويحسن أن نسوق هنا مثالاً يبين كيف كان السلف الصالح يفهم الألفاظ بمعناها المحدد دون أن يتسرب من دائرة الحقيقة ، ثم نرى كيف يتناول أهل السنة والمعتزلة المثال نفسه في مرونة متفاوتة دون التقيد بظاهر الألفاظ والاكتفاء بمدلولها ، فابن عباس حين يقرأ قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَت عَلَيهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾[2] .

يفسرها بقوله : « لكل مؤمن باب في السماء يصعد فيه عمله ، وينزل منه رزقه ، فاذا مات بكى عليه الباب ، وبكت عليه آثاره ومصلاه ، والكافر لا يصعد له عمل ، ولا يبكي له باب في السماء ، ولا أثر في الأرض »[3] ولكن ابن قتيبة لا يسير على هذا المذهب في التفسير بالظاهر ، بل يدرك ما تعارف عليه العرب حين يهلك رجل عظيم الشأن ، عام النفع ، فيقولون. . . أظلمت الشمس له ، وكسف القمر لفقده ، وبكته الريح والبرق ، والسماء والأرض ، يريدون المبالغة في وصف المصيبة ، وأنها قد شملت وعمت »[4] .

ثم نجد الزمخشري المعتزلي يتناول الآية نفسها في مرونة أشد ، واتساع أبعد مما رأيناه عند ابن قتيبة السني ، فيبين أن من تقاليد العرب أن ينعوا عظماءهم وأحباءهم بمثل هذا الأسلوب الداعي لمشاركة الجمادات في الأسى بفقد العظيم ، وما هذا الأسلوب بجار على الحقيقة ، وإنما هو ضرب من التمثيل والتخييل قصد به المبالغة في عظمة المصاب وشدة الوجد عليه ، مستشهداً على ذلك المعنى بالحديث والشعر « فاذا مات رجل خطير قالت

(١) أنظر الصورة الأدبية ـ فصل المؤثرات الروحية في الاستعارة ٧٤ ـ ٨٨ .
(٢) سورة الدخان آية ٢٩ .
(٣) تأويل مشكل القرآن ١٢٩ .
(٤) تأويل مشكل القرآن ١٢٧ وأنظر بالتفصيل تفسير الطبري ٢٥/٧٤ .

العرب في تعظيم مهلكه ، بكت عليه السماء والأرض وبكته الريح وأظلمت له الشمس ، وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض ، قال جرير يرثي عمر ابن عبد العزيز :

حملت أمراً عظيماً فاصطبرت له ... وقمت فيه بأمر الله يا عمرا
الشمس طالعة ليست بكاسفة ... تبكي عليك نجوم الليل والقمر

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه ، وكذلك ما يروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : من بكاء مصلى المؤمن، وآثاره في الأرض ، ومصاعد عمله ، ومهابط رزقه في السماء : تمثيل ، ونفى ذلك عنهم في قوله تعالى « فما بكت عليهم السماء والأرض » فيه تهكم بهم وبحالهم المنفية لحال من يعظم فقده : فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض ، وعن الحسن فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين ، يعني فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض »[1] .

فالزمخشري كابن قتيبة لم يجد بداً من تفسير المعنى وإبرازه عن طريق المجاز ، ولم يجد في كلام ابن عباس ما يصلح حمله على الحقيقة ، وإنما هو ضرب من التمثيل والتخييل ، ولكن ابن عباس رحمه الله أخذ الكلام على ظاهره ولم يتكبد مشقة في تأويل بعض الأساليب المجازية التي لا يقنع معناها إلا باللجوء إلى المجاز .

ولا نحب أن نسترسل في ضرب الأمثلة للكشف عن طريق التفسير بالحقيقة أو بالمجاز ، وأن الأخذ بالحقيقة في بعض الآيات ربما يجعل المعنى ساذجاً فيه كثير من العنت للتصديق به واعتقاده ، وأن الأخذ بالمجاز

---

(١) الكشاف ٢١٨/٤ ، ٢١٩ .

في بعض الآيات فيه كثير من الإبقاء على روح النص ، وإدراك المعنى في أبعاده ومراميه ، مما يجعله أقرب إلى تصديقه والتسليم به .

على أن طغيان الأسلوب المجازي والإسراف في استخدامه قد يحول الأفكار إلى أحاج وألغاز ، وطلاسم مغلقة لا تكاد تبين عن المعنى ، فالمجاز ، إذا زاد عن حده في الاستعمال انقلب إلى عكس المراد منه ، فتنقلب الظلال إلى غيوم وظلمات يتراكم بعضها فوق بعض .

فالحقيقة والمجاز وسيلتان لنقل عالم النفس وما يترامى فيه من أصداء ، فبأيهما استطعت أن تعبر عما يجول بخاطرك ، وتنقل إلينا الأصداء التي تتردد داخل نفسك ، كنت مصيباً في اختيار نوع الأسلوب ، أما إذا قصرت عن البيان ، ووقف اللفظ الحقيقي أو المجازي عقبة أمام هذا البيان كان التعبير قاصراً سواء عبرت بالحقيقة أو بالمجاز ، فليست العبرة برصف الألفاظ بعضها بجوار بعض فيغلب الجانب اللفظي على التعبير ، وليست العبرة باستخدام المجازات ، أو الهيام في سحب من الاستعارات أو الالتجاء إلى ضباب الرمز كوسيلة للتعبير . فبين رصف الألفاظ وطغيان المجاز ، نضل في متاهات من القول ، وتقصر العبارة عن نقل المعنى ، فلا نتبينه في النهاية حين يملأنا الشغف بمعرفته ، وتتوق نفوسنا إلى إدراكه .

خطوات المجاز :

١ ـ أبو عبيدة (ت ٢١٠ هـ) :

أول من عرف من العلماء أنه تكلم بلفظ المجاز هو أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه مجاز القرآن ، وفي الحق أن كلمة مجاز عند أبي عبيدة لم تكن تعني المجاز بمعناه الاصطلاحي المقابل للحقيقة ، أي استعمال اللفظ في غير ما وضع له ، وإنما كانت تعني في هذا الكتاب مجرد تفسير الكلمة بمثل معناها ، مما يدل على أن فكرة المجاز لم تكن قد وضحت في ذهنه

تماماً كما نجدها عند المتأخرين ، وبين أيدينا الكتاب نقلبه كيف نشاء فلا نجد فيه ما يدل على المجاز بمعناه الاصطلاحي ، يقول في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ ﴾(١) مجازه إذا علوت على السفينة ، وفي آية أخرى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾(٢) .

أي علا . ويقول في قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾(٣) .

مجازها مجاز الجنون وهما واحد . وفي قوله تعالى : ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾(٤) مجازه تنبت الدهن والباء زائدة(٥) .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾(٦) مجازه أيقنتم .

وفي قوله ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾(٧) .

مجازه فمن عاد فان الله ينتقم منه . وعلى هذا النمط يسير أبو عبيدة في صحف الكتاب كله حتى الآيات التي يبدو فيها المجاز واضحاً يكتفي بتفسيرها وبيان معناها دون أن يبين كيفية التجوز في الآية كما في قوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾(٨) .

يقول : مجازه مجاز المختصر ، أشْرِبوا في قلوبهم العجل : حب العجل .

---

(١) سورة المؤمنون آية ٢٨ .
(٢) سورة طه آية ٥ .
(٣) سورة المؤمنون آية ٢٥ .
(٤) سورة المؤمنون آية ٢٠ .
(٥) مجاز القرآن ٢/٥٦، ٥٧ ، ١/١١٦، ٤٧ .
(٦) سورة النساء آية ٣ .
(٧) سورة المائدة آية ٩٥ .
(٨) سورة البقرة آية ٩٣ .

وفي القرآن ﴿ واسأل القَرْيَةَ ﴾[1] . مجازها : أهل القرية .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَاجعَل لِيّ لِسَانَ صِدقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾[2] .

أي : ثناء حسناً في الآخرين . . . ﴿ وَالسَّماءَ بَنَيناهَا بِأَيدٍ ﴾[3] أي بقوة .

يتضح إذن من الأمثلة التي سقناها أن كلمة المجاز عند أبي عبيدة تفيد طريق الجواز إلى فهم ألفاظ القرآن ، فهو تفسير لغريب ألفاظ القرآن ، ومعجم لمعانيه ، وليس كاشفاً لوجوه البيان كما يعني بذلك علماء البلاغة ، مما يؤكد أنه كان يهدف من تأليف هذا الكتاب إلى شرح ألفاظ القرآن شرحاً لغوياً ، وليس إلى إبراز الصور البيانية ، غير أن بعض العلماء يعتقد أن مجاز القرآن يعتبر بحق النواة الأولى للبحوث البيانية[4] لا لشيء إلا لأنه يحمل عنواناً بلاغياً صرفاً .

٢ ـ الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) :

أما الجاحظ فقد كان رأيه في المجاز مختلفاً عن أبي عبيدة ، فلم يكن يرى المجاز تفسيراً لمعنى كلمة غريبة من ألفاظ القرآن ، وإنما كان المجاز كاشفاً لوجه من وجوه البيان ، أي أن المجاز هو ما يقابل الحقيقة بالمعنى الذي عرف عند المتأخرين من علماء البلاغة ، بل نراه أيضاً يأتي باللفظة الواحدة في استعمالين مختلفين أحدهما مجازي والآخر حقيقي حتى يبين لنا الفرق بين الأسلوبين ، والجاحظ بذلك يعتبر ـ بقدر ما في أيدينا من مراجع ـ أول من تناول المجاز تناولاً بلاغياً ، حيث مهد السبيل لمن أتى بعده في تناولهم للحقيقة والمجاز في القرآن الكريم .

---

(١) سورة يوسف آية ٨٢.

(٢) سورة الشعراء آية ٨٤.

(٣) سورة الذاريات آية ٤٧ .

(٤) مناهج تجديد أمين الخولي ١٠٧ ط دار المعرفة . مقدمة بديع القرآن د. حفني شرف ٤٦ ، وأنظر أيضاً القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ٢٤٥ .

فالجاحظ في كتابه الحيوان يفرد باباً في المجاز والتشبيه بالأكل يقول وهو قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَموَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلماً ﴾[1] .

وقوله عز اسمه : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾[2] .

ثم يعقب على ذلك « وقد يقال لهم ذلك وان شربوا بتلك الأموال الأنبذة ، ولبسوا الحلل ، وركبوا الدواب ، ولم ينفقوا منها درهماً واحداً في سبيل الأكل ، وقد قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِم نَاراً ﴾[3] .

وهذا مجاز آخر . . . وإذا قالوا : أكله الأسد فإنما يذهبون إلى الأكل المعروف ، أما إذا قالوا أكله الأسود ـ الأفعى ـ فإنما يعنون النهش واللدغ والعض فقط . وقد قال الله عز وجل ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُم أَن يَأْكُلَ لَحمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾[4] .

وكقول الشاعر :

سَـألْتني عن أنـاس أكلفـوا   شـرب الـدهــر عليهم وأكـل

فلفظة الأكل وجدها الجاحظ تستعمل حقيقة وتستعمل مجازاً ، تستعمل حقيقة في معناها المعروف عند الناس وهو ازدراد الطعام ، وتستعمل مجازاً حين لم يرد بها الأكل الحقيقي وإنما أراد بها ما يلابس الأكل من الإنفاق أو الإخفاء وإضاعة المال وذهابه كما يذهب الطعام في الجوف فلا تبقى منه بقية .

وفي باب آخر في مجاز الذوق يقول الرجل إذا بالغ في عقوبة عبده ذق !

---

(١) سورة النساء آية ١٠ .
(٢) سورة المائدة آية ٤٢.
(٣) سورة النساء آية ١٠.
(٤) سورة الحجرات آية ١٢.

وكيف ذقته ؟! وكيف وجدت طعمه ؟! وقال عز وجل : ﴿ ذُق إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ مُبتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنهُ فَلَيسَ مِنِّي ، وَمَن لَّم يَطعَمهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾[2] .

يريد لم يذق طعمه . وكما جوزوا لقولهم أكل وإنما عض ، وأكل وإنما أفنى ، وأكل ـ أكلته النار ـ وإنما أبطلت عينه ، جوزوا أيضاً أن يقولوا ذقت ما ليس يطعم ، وطعمت لغير الطعام . فللعرب إقدام على الكلام ثقة بفهم أصحابهم عنهم ، وهذه أيضاً فضيلة أخرى »[3] فالمجاز عند الجاحظ إذن : هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له ثقة بفهم السامع عن المتكلم ، وهو قريب من التعريف الاصطلاحي للمجاز .

٣ ـ ابن قتيبة :

ومعنى المجاز عند ابن قتيبة ليس واضحاً كل الوضوح في أنه مقابل للحقيقة فهو يقول :

« وللعرب المجازات في الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه »[4] وهو نفس المعنى الذي اعترض عليه بعض الباحثين حين أرادوا تفسير معنى المجاز عند أبي عبيدة[5] ولكنا لا نلبث أن نرى إشارة في كلام ابن قتيبة تدل على أنه كان يعلم كغيره من السابقين بأن المجاز في مقابل الحقيقة ، وليس بمعنى التفسير ، وذلك حين يقول « وذهب قوم في قول الله وكلامه : أي أنه

---

(١) سورة الدخان آية ٤٩ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٩ .

(٣) الحيوان ٥/٢٥ ، ٣٢ ، فقه اللغة وسر العربية ٣٣٧ ، ٣٣٨ الثعالبي .

(٤) المشكل ١٥ .

(٥) مقدمة تلخيص البيان ٥، ٨، ٢٩ .

ليس قولاً ولا كلاماً على الحقيقة ، وإنما هو إيجاد للمعنى وصرفوه في كثير من القرآن إلى المجاز »[1] .

فابن قتيبة إذن لم يفهم المجاز كما فهمه أبو عبيدة على أنه التفسير ، ولكنه فهمه على أنه ضد الحقيقة كما فهمه الجاحظ . وإذا كانت المقارنة بين ابن قتيبة والجاحظ لمعرفة تطور البيان من خلال الدراسة القرآنية غير متيسرة نظراً لأن كتاب نظم القرآن للجاحظ لم يصل إلينا ، فربما كان الوقوف على تطور المجاز من أبي عبيدة إلى ابن قتيبة ممكناً ، لأن موضوع المقارنة قائم بيننا ومجاز القرآن لأبي عبيدة تحت أيدينا ، ونسوق بذلك مثالاً نكتفي به عن غيره .

فأبو عبيدة في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ استَوَىٰ إِلَىٰ السَّمَاءِ وهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرضِ ائتِيَا طَوعاً أو كَرْهاً قَالَتَا أَتَينَا طَآئِعِينَ﴾[2] يقول هذا مجاز الموات والحيوان الذي يشبه تقدير فعله بفعل الآدميين[3] ولا يزيد على ذلك حرفاً واحداً . أما ابن قتيبة فيتناول هذه الآية بنفس ممدود ، وشرح مسهب ، وإقناع شديد ، ويستشهد على إلف هذا التعبير بشعر الشعراء ، وما يزال بنا حتى نصل معه إلى معنى المجاز في النهاية . يقول ابن قتيبة : وقالوا في قوله للسماء والأرض ﴿ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ لم يقل الله ولم يقولا ، وكيف يخاطب معدوماً ، وإنما هذا عبارة : لكونهما فكانتا .

قال الشاعر حكاية عن ناقته :

شكا إليّ جملي طول السُّرَى

والجمل لم يشك ، ولكنه خبر عن كثرة أسفاره وأتعابه جملة ، وقضى

(١) المشكل ٧٨.
(٢) سورة فصلت آية ١١ .
(٣) مجاز القرآن ٢/١٩٦ .

على الجمل بأنه لو كان متكلماً لاشتكى ما به ، وكقول عنترة في فرسه :

فـازورّ من وقع القنـا بلبَـانَـه   وشكـا إليّ بعَبْـرة وتحمحُم

لما كان الذي أصابه يشتكي منه ويستعبر مثله ، جعله مشتكياً مستعبراً ، وليس هناك شكوى ولا عبرة »[1] فالسماء والأرض لو كانتا ممن يتكلم لقالتا بالطاعة والانقياد ، فالله خلقهما على هذه الحالة من الطاعة لو أنها تتكلم ، وعنترة يرى شكوى فرسه في دموعه وصهيله فكانت الدموع وكان الصهيل بمثابة الشكوى فكأنه يشكو ، فهذا كله نوع من التشخيص ، وإضفاء صفات الانسان العاقل على الجماد أو الحيوان غير العاقل مما يصح أن ندخله في أبواب الاستعارة المكنية القائمة على التشبيه ، فأين هذا الوضوح كله مما ذهب إليه أبو عبيدة في ابتسار شديد .

وفي نهاية باب القول في المجاز يتعرض ابن قتيبة لمن يزعم أن القرآن فيه ألوان من الكذب ، لأنهم ظنوا أن المجاز والكذب صنوان ، والقرآن لا يخلو من المجاز ، فهو بالتالي لا يخلو من الكذب ، مستدلين على ذلك بقوله تعالى : ﴿ جِدَاراً يُرِيدُ أن يَنقَضَّ ﴾[2] وقوله ﴿ وَاسأَلِ القَريَةَ ﴾[3] والجدار لا يريد ، والقرية لا تسأل ، فلا يهادنهم ابن قتيبة ، وإنما يرد عليهم فساد رأيهم في قسوة بالغة حيث يقول : « فهذا من أشنع جهالاتهم ، وأدلها على سوء نظرهم ، وقلة أفهامهم . ولو كان المجاز كذباً ، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلاً كان أكثر كلامنا فاسداً ، لأنا نقول : نبت البقل ، وطالت الشجرة ، وأينعت الثمرة . . . وقد نقل عنه ابن رشيق هذا الفرق بين المجاز والكذب ونص عليه[4] كما أشار إليه الفخر الرازي[5] ولو قلنا للمنكر لقوله

---

(١) المشكل ٧٨ ، ٧٩.

(٢) سورة الكهف ، آية ٧٧.

(٣) سورة يوسف ، آية ٨٢.

(٤) العمدة ١/٢٦٦ .

(٥) نهاية الايجاز ٤٧ وانظر الحقيقة والمجاز في القرآن الكريم د. علي محمد حسن ٣٠ ، ٣١.

(جداراً يريد أن ينقضّ) كيف كنت أنت قائلاً في جدار رأيته على شفا انهيار . رأيت جداراً ماذا ؟ لم يجد بدأ من أن يقول : جداراً يهم أن ينقض ، أو يقارب أن ينقض ، وأيا ما قال فقد جعله فاعلاً ولا أحسبه يصل إلى هذا المعنى في شيء من لغات العجم إلا بمثل هذه الألفاظ [(١)] . ولكن هذا التساؤل الذي أورده ابن قتيبة في قوله تعالى : ﴿ جداراً يريد أن ينقض ﴾ على أية كيفية كان ، لا بد أن ينتهي إلى المجاز ، ومن ثم فالمجاز ليس كذباً .

وما دمنا بصدد الحديث عن المجاز عند ابن قتيبة فمن الضروري أن نشير إلى أنه يعد ألوان البلاغة قاطبة من المجاز[(٢)] . وإن اعتبرت فيما بعد من صلب علم المعاني : كالتقديم والتأخير والحذف والتكرار ، والقلب ، كما ضم إليه ما اعتبره ابن المعتز فيما بعد من ألوان البديع كالاستعارة والكناية والتعريض ، فكل ما فيه اتساع في الكلام بوجه من الوجوه ، أو رخص في التعبير عنه فهو من باب المجاز . ومعنى هذا أن المجاز عند ابن قتيبة لم يكن دقيقاً ، أو له معنى محدد ، وإنما كان ثوباً فضفاضاً يتسع لكثير من الألوان البلاغية .

٤ ـ المبرد (ت ٢٨٥هـ) :

وتحدث المبرد عن المجاز في آخر كتابه الكامل ، وهو في هذا المقام لم يحرز تقدماً عما كان مفهوماً من كتاب أبي عبيدة ، ولم يقف على التطور الذي ظفر به المجاز على يدي الجاحظ أو ابن قتيبة ، وإنما المجاز عنده ضرب من التفسير للمعنى ، وإبانة للقصد برد المحذوف من الكلام ، فيقول : « ونذكر آيات من القرآن ربما غلط في مجازها النحويون قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾[(٣)] . مجاز الآية أن المفعول

---

(٣) المشكل ٩٩ ، ١٠٠، العمدة ٢٦٦/١ .

(٢) المشكل ١٥ ، ١٦ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٧٥ .

الأول محذوف ، ومعناه يخوفكم من أوليائه ، وفي القرآن : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهرَ فَلْيَصُمهُ ﴾[1] والشهر لا يغيب عنه أحد ، ومجاز الآية فمن كان منكم شاهداً بلده في الشهر فليصمه[2] .

٥ ـ ابن جنى (ت ٣٩٢هـ) :

وقد كان لابن جنى أثر كبير في اللاحقين بما ذكره في الحقيقة والمجاز وبيان الفرق بينهما[3]. فالحقيقة عنده : ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة . والمجاز ما كان بضد ذلك « أي إستعمال اللفظ في غير ما وضع له في اللغة . ومن خلال حديثه عن المجاز نتبين أنه لا بد فيه من التشبيه ، كما لا بد فيه من قرينة ، أو دليل يوضح أن اللفظ مستعمل في غير معناه الأصلي . وبذلك يكون المجاز عنده كما استقر الأمر عليه عند المتأخرين في تعريف الاستعارة بأنها استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة ، ومعنى هذا أن ابن جنى يلغي المجاز المرسل إلغاء تاماً ، وكل ما ذكره ابن جنى من أمثلة ينطبق عليها المجاز المرسل ، شرحه بما يفيد عنده أنه من باب الاستعارة بالكناية .

ويذكر ابن جنى أن المجاز يعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة : وهي الاتساع والتوكيد والتشبيه ، فان عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة . فمن ذلك قول الرسول عليه السلام في الفرس ، هو بحر ، فالمعاني الثلاثة موجودة فيه : أما الاتساع ، فلأنه زاد في أسماء الفرس ، البحر ، ولو عري الكلام من دليل يوضح الحال لم يقع عليه بحر لما فيه من التعجرف في المقال من غير إيضاح ولا بيان . وأماالتشبيه ، فلأن جريه يجري في الكثرة مجرى مائه .

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٥ .
(٢) الكامل ٣٢٨/٢ .
(٣) الخصائص ٤٤٢/٢ .

وأما التوكيد ، فلأنه شبه العرض بالجوهر ، وهو أثبت في النفوس منه ، ويمضي ابن جنى في ذكر الأمثلة ، وبيان المعاني الثلاثة التي يشتمل عليها المجاز : وهي الاتساع والتوكيد والتشبيه ثم يقول : « ومن المجاز كثير من باب الشجاعة في اللغة ، من الحذف والزيادات والتقديم والتأخير والحمل على المعنى والتحريف » واعتبار الحذف والزيادة ، والتقديم والتأخير من المجاز لم يأخذ به المتأخرون ، لأنها عندهم داخلة في علم المعاني . أما اعتبار ابن جنى التشبيه البليغ مثل (هو بحر) مجازاً فليس غريباً . وقد أخذ به عبد القاهر أمام البلاغيين وهو يفرق بين المشبه به إذا وقع نكرة وبينه إذا وقع معرفة ، فاذا كان معرفة مثل زيد الأسد فانه يكون تشبيهاً ، ومن الخطأ أن يسمى استعارة ، وذلك لصحة دخول الكاف على المشبه به ، فتقول زيد كالأسد ، أما إذا وقع المشبه به نكرة مثل (هو بحر) فانه يعطينا العذر لتسميته استعارة ، لأنه لا يحسن أن نقول (هو كبحر ، أو زيد كأسد) ، لأن الكاف لا يحسن دخولها على المشبه به . إذا كان نكرة . وعبد القاهر ينص على ذلك صراحة بقوله « فان قلت هو بحر وهو ليث ووجدته بحراً ، وأردت أن تقول إنه استعارة كنت أعذر وأشبه بأن تكون على جانب من القياس ، ومتشبثاً بطرف من الصواب ، وذلك أن الاسم قد خرج بالتنكير عن أن يحسن إدخال حرف التشبيه عليه ، فلو قلت هو كأسد وهو كبحر كان كلاماً نازلاً غير مقبول ، كما يكون قولك هو كالأسد[1] » وعبد القاهر حين يقرر جواز كون التشبيه البليغ إذا كان المشبه به نكرة استعارة ، فانه يقرر بالتالي صحة كونه مجازاً ويكون حينئذ على وفاق مع ما ذكره ابن جنى . ويعرض ابن جنى لبعض أمثلة الحذف التي ذكرها سيبويه دليلاً على الإتساع والإيجاز ، ومن طريقة تناوله نلمح مدى التطور الذي وصل إليه التفكير البلاغي ، فمثلاً حين يذكر سيبويه أن من كلام

---

(١) أسرار البلاغة ٣٧٣ .

العرب « بنو فلان يطؤهم الطريق يقول : « وإنما يطؤهم أهل الطريق ، ومما جاء على إتساع الكلام والاختصار قوله تعالى : (واسأل القرية) يقول : إنما يريد أهل القرية ، فاختصر وعمل الفعل في القرية »[1] . ولكن ابن جنى لا ينظر إلى ذلك نظرة سيبويه في التعبير عن الغرض بايجاز شديد ، بل يطنب في القول ، ليوضح الفكرة التي يحتوي عليها المجاز ، أنظر إليه في المثال الأول حين يقول « ألا ترى أنك إذا قلت بنو فلان يطؤهم الطريق ، ففيه من السعة اخبارك عما لا يصح وطؤه بما يصح وطْؤه. . . ووجه التشبيه اخبارك عن الطريق بما تخبر به عن سالكيه فشبهه بهم ، إذ كان المؤدي لهم ، فكأنه عم . وأما التوكيد ، فلأنك إذا أخبرت عنه بوطئه إياهم كان أبلغ من وطء سالكيه لهم . وذلك أن الطريق مقيم ملازم ، فأفعاله مقيمة معه ، وثابتة بثباته . وليس كذلك أهل الطريق ، لأنهم قد يحضرون فيه ، ويغيبون عنه ، فأفعالهم أيضاً كذلك حاضرة وقتاً ، وغائبة أخرى ، فأين هذا مما أفعاله ثابتة مستمرة ، ولما كان هذا كلاماً الغرض فيه المدح والثناء ، اختاروا له أقوى اللفظين ، لأنه يفيد أقوى المعنيين[1]. فابن جنى يذكر أولاً كيف كان الاتساع بهذا التعبير المجازي ، ثم التشابه بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي ثم كيف كان هذا التعبير المجازي أكثر بلاغة ومبالغة من التعبير الحقيقي . ويوضح لنا في هذا المعنى الثالث السر البلاغي الذي يدعونا إلى القول بأن المجاز أبلغ من الحقيقة ، لما في معناه من القوة التي يعُرى منها المعنى الحقيقي ولا شك أن هذه الطريقة قد سلكها الرماني قبل ابن جنى ، وكان فيها مبرزاً حين تناول الاستعارة ، فكان اللاحقون ـ بالمقياس الفني ـ عالة عليه إذا تناولوا الاستعارة ، أو ما يمت إليها بصلة كالمجاز . ولهذا نقول إن ابن جنى قد كان متأثراً بالرماني حين أراد أن يبرر لنا أبلغية المجاز على الحقيقة .

---

(١) الخصائص ٤٤٦/٢ .

أما المثال الثاني الذي يعنينا في مجال المقارنة بين سيبويه وابن جنى قوله تعالى : « واسأل القرية » . فيذكر ابن جنى أن فيه المعاني الثلاثة أيضاً : أما الاتساع ، فلأنه استعمل لفظ السؤال مع ما لا يصح في الحقيقة سؤال ، الاتراك تقول : وكم من قرية مسئولة ، وتقول القرى وتسألك ، كقولك : أنت وشأنك . فهذا ونحوه اتساع . وأما التشبيه : فلأنها في ظاهر اللفظ إحالة بالسؤال على من ليس من عادته الاجابة . فكأنهم تضمنوا لأبيهم عليه السلام أنه ان سأل الجمادات والجبال انبأته بصحة قولهم . وهذا تناه في تصحيح الخبر ، أي لو سألتها لأنطقها الله بصدقنا ، فكيف لو سألت من عادته الجواب »[1]. فالفرق واضح ، والبون شاسع بين من يذكر فقط أن في هذا الأسلوب اتساعاً أو حذفاً ، دون أن نتبين منه كيف يكون الاتساع كما فعل سيبويه ، وبين من يذكر ما يتصل بهذا الاسلوب من اتساع ، وكيفيته وبيان المشابهة بين المعنى قبل أن يتسع ، وبعد أن دخله الاتساع ، وبيان بلاغته ، وما طرأ عليه من توكيد ومبالغة ، لم نر لها نظيراً قبل ابن جنى ، غير أن الذي يلفت النظر هنا أن ابن جنى ينظر إلى هذا المجاز نظرة المتأخرين إلى الاستعارة بالكناية ففي قولهم « بنو فلان يطؤهم الطريق » يشبه الطريق بقوم سائرين ، والوطء دليل على ذلك التشبيه ، وفي قوله تعالى : « واسأل القرية » يشبه القرية بانسان والسؤال دليل على ذلك التشبيه ، فالعلاقة هنا المشابهة ، فخرج عن كونه مرسلاً ، وأصبح من أنواع الاستعارة ، ويعني بها الاستعارة المكنية ، ويستعمل ابن جنى هذا التشبيه ويقصده في جميع ألوان المجاز ، بل يعتبره ركناً من أركانه الثلاثة ، ومعنى هذا انه يلغي المجاز المرسل الغاء تاماً ، ويجعله داخلاً في نطاق الاستعارة بالكناية .

والسيوطي (ت٩١٠هـ) ينقل ما ذكره ابن جنى في هذا الباب نقلاً كاملاً

---

(١) الخصائص ٢/٤٤٧ .

بنصه وفصه فيذكر الحقيقة والمجاز ، وما يجب أن يتوافر فيه من اتساع وتشبيه وتوكيد كما يذكر أمثلة ، وما يدخل المجاز في اللغة من أبواب الحذف والزيادة والتقديم والتأخير دون أن يعقب عليه بشيء كأنه يسلم له بكل ما يقول[1] بخلاف ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) الذي ناقضه في جميع أقواله وتعقبه في كل معنى من المعاني الثلاثة التي يرى ابن جنى أنها لازمة للمجاز ، ولا يزال ابن الأثير يردد مناقضته لابن جنى المرة تلو المرة حتى يقنعنا في النهاية بأن آراء ابن جنى لا تسلم من النقد بل ينبغي أن يدخلها شيء من التعديل حتى يستقر بها الأمر . يقول ابن الأثير « وكنت تصفحت كتاب الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جنى ، فوجدته قد ذكر في المجاز شيئاً يتطرق إليه النظر ، وذلك انه قال « لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا لمعان ثلاثة : وهي الاتساع والتشبيه والتوكيد . فإن عدمت الثلاثة كانت الحقيقة البتة. . . والنظر يتطرق إليه من ثلاثة أوجه :

الأول : أنه جعل وجود هذه المعاني الثلاثة سبباً لوجود المجاز ، بل وجود واحد منها سبباً لوجوده ، ألا ترى أنه إذا وجد التشبيه وحده كان ذلك مجازاً ، وإذا وجد الاتساع وحده كان ذلك مجازاً ، ثم كان وجود هذه المعاني الثلاثة سبباً لوجود المجاز كان عدم واحد منها سبباً لعدمه .

أما الوجه الثاني : فانه ذكر التوكيد والتشبيه ، وكلاهما شيء واحد على الوجه الذي ذكره ، لأنه لما شبهت الرحمة - في قوله تعالى (وأدخلناه في رحمتنا) - وهي معنى لا يدرك بالبصر ، بمكان يدخل فيه ، وهو صورة تدرك بالبصر ، دخل تحته التوكيد الذي هو إخبار عما لا يدرك بالحاسة بما قد يدرك بالحاسة ومن الواضح أن ابن جنى لم يرد

---

(١) المزهر ١/٣٥٦ .

بالتوكيد هنا أحد نوعيه المعروفين سـواء كان بـألفاظ التـوكيد أو التكرير ، . . . ولا شك أنه أراد به المبالغة والمغالاة في ابراز المعنى الموهوم إلى الصورة المشاهدة ، فعبر عن ذلك بالتوكيد ، ولا مشاحة له في تعبيره ، وإذا أراد ذلك ، فهو والتشبيه سواء على ما ذكره ، ولا حاجة إلى ذكر التوكيد مع ذكر التشبيه (وابن جنى نفسه يقرر أن المجاز لا يستعمل إلا لضرب من المبالغة)[1] .

وأما الوجه الثالث : فانه قال « أما الاتساع فهو أنه زاد في أسماء الجهات والمحال كذا وكذا. . . وهذا القول مضطرباً شديد الاضطراب ، لأنه ينبغي على قياسه أن يكون جناح الذل في قوله تعالى (واخفض لهما جناح الذل) زيادة في اسماء الطيور ، وذلك أنه زاد في أسماء الطيور اسماً هو الذل. . . ونعوذ بالله عن الخطل. والاتساع لا يقال فيه كذا ، وانما يقال هو أن تجري صفة من الصفات على موصوف ليس أهلًا لأن تجري عليه لبعد ما بينه وبينها. . . أذ لو كان لمناسبة لما كان ذلك اتساعاً ، وإنما كان ضرباً من القياس في حمل الشيء على ما يناسبه ويشاكله ، وحينئذ يكون تشبيهاً أو استعارة »[2] ونحن نسلم بالاعتراض الأول والثاني ، لأن المجاز يتحقق بواحد من المعاني الثلاثة التي ذكرها ابن جني دون أن يلزم من تحققه وجودها جميعاً ، ولأن المعنى الثاني والثالث وهما التشبيه ، والتوكيد ، كلاهما بمعنى واحد في مفهوم ابن جني في هذا الصدد حيث إنه لم يقصد بالتوكيد إلا المبالغة والمغالاة في إبراز المعنى كما يقول ابن الأثير . أما الاعتراض الثالث فنرى لوناً من التعسف الذي يطغى أحياناً على نظرة

(١) الخصائص ١/٣٧٣ .
(٢) المثل السائر ٢/٨٤ وما بعدها .

ابن الأثير ، لأن ابن جني لم يقصد بالتوسع زيادة الاسماء اسماً في جميع المجالات ، بل أحياناً يرمي إلى هذه الزيادة ، وأحياناً لا يراها ابن جنى نفسه فلا يقول بها ، كما رأيناه يوضح معنى السعة في قولهم « بنو فلان يطؤهم الطريق فيقول « ففيه من السعة اخبارك عما لا يصح وطؤه بما يصح وطؤه وكذلك قوله سبحانه « وأسأل القرية » يقول أما الاتساع ، فلأنه استعمل لفظ السؤال مع ما لا يصح في الحقيقة سؤاله . فالاتساع عند ابن جنى ليس مقصوراً ابداً على زيادة الأسماء اسماً ، بل يجري أيضاً في استعمال الشيء على ما لا يصح أن يستعمل معه . وبهذا يصح قوله ، ويسلم من الاعتراض ، ففي قوله (جناح الذل) الذي اعترض به ابن الأثير على ابن جنى ، نراه استعمل لفظ الجناح على ما لا يصح أن يستعمل معه وهو الذل ، فيكون هذا متمشياً وموافقاً لرأي ابن جنى في المجاز .

وكما رأينا ، فان المجاز عند ابن جنى يشمل التشبيه البليغ ، والاستعارة ، والمجاز المرسل ، وهو عنده قائم على التشبيه ويدخل في مفهوم الاستعارة المكنية ـ فوسع بذلك دائرة المجاز حيث جعل التشبيه نوعاً منه . بل أنه ذهب إلى أن أكثر اللغة إذا تأملناها تدخل في باب المجاز ، في الاسم والفعل على حد سواء فيقول « اعلم أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة وذلك عامة الأفعال نحو قام زيد ، وقعد عمرو ، وانطلق بشر ، وجاء الصيف ، وانهزم الشتاء ، ألا ترى أن الفعل يفاد فيه معنى الجنسية ، فقولك قام زيد معناه كان منه القيام ، أي هذا الجنس من الفعل ، ومعلوم أنه لم يكن منه جميع القيام ، وكيف يكون ذلك ، والجنس يطبق جميع الماضي ، وجميع الحاضر ، وجميع الآتي عن الكائنات من كل من وجد منه القيام ، ومعلوم أنه لا يجتمع لإنسان واحد في وقت واحد ولا في مائة ألف سنة ، وهذا محال عند كل لب ، فإذا كان كذلك علمت أن قام زيد مجاز لا حقيقة ،

وإنما هو على وضع الكل موضع البعض ، للاتساع والمبالغة ، وتشبيه القليل بالكثير . . . ويبين لنا ابن جنى أنه يستمد هذه الفكرة وينقلها عن استاذه أبي علي الفارسي ـ ليس فقط ما ذهب إليه من أن أكثر اللغة مجاز . بل ينقل عنه أيضاً ما ذكرناه من أن المجاز لا بد أن يتوافر فيه الاتساع والتوكيد والتشبيه حين نقرأ له « قال لي أبو علي : قولنا قام زيد بمنزلة قولنا خرجت فإذا الأسد » ، ومعناه : أن قولهم : خرجت فإذا الأسد تعريفه هنا تعريف الجنس كقولك الأسد أشد من الذئب ، وأنت لا تريد أنك خرجت وجميع الأسد التي يتناولها الوهم على الباب . هذا محال ، واعتقاده اختلال ، وإنما أردت : خرجت فإذا واحد من هذا الجنس بالباب فوضعت لفظ الجماعة على الواحد مجازاً ، لما فيه من الاتساع والتوكيد والتشبيه أما الاتساع فإنك وضعت اللفظ المعتاد للجماعة على الواحد ، وأما التوكيد فلأنك عظمت قدر ذلك الواحد بأن جئته بلفظه على اللفظ المعتاد للجماعة ، وأما التشبيه فلأنك شبهت الواحد بالجماعة ، لأن كل واحد منها مثله في كونه أسداً . وإذا كان كذلك فمثله قعد جعفر ، وانطلق محمد ، وجاء الليل وانصرم النهار[1] . بل لا يكتفي ابن جنى ينقل هذه الفكرة الخطيرة عن استاذه الفارسي ، بل نراه يطبقها في إفراط مغرب ، فيذهب إلى أن الجملة المكونة من فعل وفاعل ومفعول فيها أكثر من مجاز واحد . الأول ـ كان نتيجة لاسناد الفعل إلى الفاعل ، والثاني ـ في المفعول نفسه فقولك « ضربت عمراً مجاز أيضاً من غير جهة التجوز في الفعل ـ وذلك أنك فعلت بعض الضرب لا جميعه ـ ولكن من جهة أخرى ، وهو أنك انما ضربت بعضه لا جميعه ، ألا تراك تقول ، ضربت زيداً ، ولعلك انما ضربت يده ، أو أصبعه ، أو ناحية من نواحي جسده ، ولهذا إذا احتاط الانسان ، واستظهر جاء ببدل البعض فقال ضربت

---

(١) الخصائص ٤٤٧/٢ .

زيداً رأسه : نعم ثم أنه مع ذلك متجوز ، ألا تراه قد يقول ضربت زيداً رأسه فيبدل للاحتياط وهو إنما ضرب ناحية من رأسه لا رأسه كله . ولهذا يحتاط بعضهم في نحو هذا فيقول : ضربت زيداً جانب وجهه الأيمن ، أو ضربته أعلى رأسه الاسحق الأسمى لأن أعلى رأسه قد تختلف أحواله ، فيكون بعضه أرفع من بعض. . . وكذلك جاء الجيش أجمع ، ولولا أنه قد كان يمكن أن يكون انما جاء بعضه ـ وان اطلقت المجيء على جميعه ـ لما كان لقولك اجمع معنى ، فوقوع التوكيد في هذه اللغة أقوى دليل على شياع المجاز فيها ، واشتماله عليها ، حتى إن أهل العربية افردوا له باباً لعنايتهم به ، كما أفردوا لكل معنى اهمهم باباً(١) . ورغم أن ابن جنى ينقل هذا الرأي عن استاذه ابي علي الفارسي ، فهو في بعض كتبه يشرح هذه الفكرة ، ثم يعقب عليها ، كما لو كان هو خالقها ومبتكرها ، وصاحب الفضل الأول فيها . فيقول « وهذا موضع يسمعه الناس مني ويتناقلونه دائماً عني فيكبرونه ويكثرون العجب به ، فإذا أوضحته لم يسأل عنه استحياء ، وكان يستغفر الله لاستيحاشه منه(٢) . وقد أخذ بقول ابن جنى الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) حيث قال : « وليس يجب أن تؤخذ العرب بالتحقيق في كلامها ، فان تجوزها واستعاراتها أكثر »(٣). ولكن ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) يختلف عن ابن جنى في نظرته للحقيقة والمجاز ، فيرى عكسه ويعتبر الحقيقة أكثر الكلام فيقول « وهذا أكثر الكلام وأكثر آيات القرآن وشعر العرب »(٤). وكذلك الامام الغزالي (ت ٥٠٥هـ) واتباعه يعتبرون الحقيقة أكثر من المجاز خلافاً لابن جنى واستاذه الفارسي لأن « المجاز خلاف الأصل ، لأنه يتوقف على الوضع

---

(١) الخصائص ٢/٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٣/٢٤٧ .
(٢) المحتسب ١/٢٣٩ .
(٣) أمالي المرتضى ١/٣٦٧ .
(٤) الصاحبي ١٦٧ .

الأول والمناسبة ، والنقل ، وهي أمور ثلاثة ، والحقيقة على الوضع وهو أحد الثلاثة فكان أكثر ، ولأن المجاز لو ساوى الحقيقة لكانت النصوص كلها مجملة ، بل المخاطبات ، فكان لا يحصل الفهم إلا بعد الاستفهام وليس كذلك . وقد تبعه في ذلك تاج الدين السبكي حيث اعتبر المجاز خلاف الأصل مخالفاً في ذلك ابن جنى »[1] بل أن بعضهم أنكر المجاز كلية من القرآن ، ولغة العرب كالامام مالك والشافعي وأبي حنيفة وابن تيمية ، واعتبروا الكلام كله ضرباً من الحقيقة[2] . وحجة المنكرين لوقوع المجاز في القرآن أن المجاز كذب ، والكذب محال على الله ، وأن الالتجاء إلى المجاز عجز عن التعبير بالحقيقة ، والعجز محال على الله . ولذلك رأينا ابن قتيبة كما ذكرنا آنفاً يشرع قلمه للدفاع عن وجود المجاز في القرآن ، ورد هذه الشبهة متخذاً من لغة العرب دليلاً قاطعاً على وجود المجاز في القرآن ، إذ يقول « ولو كان المجاز كذباً . . كان أكثر كلامنا فاسداً لأنا نقول. نبت البقل ، وطالت الشجرة ، وأينعت الثمرة ، وغير ذلك مما لا يمكن حمله على الحقيقة[3] » والامام الزركشي (ت ٧٩٤هـ) والسيوطي (ت٩١٠هـ) ساندا ابن قتيبة في نظرته لقضية المجاز ، ودفع شبه المنكرين له فيقولان « وأما المجاز فالجمهور أيضاً على وقوعه في القرآن ، وأنكره جماعة منهم الظاهرية وابن القاص من الشافعية ، وابن خويز منداد من المالكية ، وشبهتهم أن المجاز أخو الكذب ، والقرآن منزه عنه[4] . ولو سقط المجاز من القرآن سقط منه شطر الحسن ، فقد اتفق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، ولو وجب خلو القرآن من المجاز وجب خلوه من الحذف والتوكيد . ولا شك أن

---

(١) المزهر ٣٦١/١ .

(٢) الايمان ٥٣ .

(٣) المشكل ٩٩.

(٤) الاتقان ٣٦/٢ ط ٢ البرهان ٢٥٥/٢.

قضية الحقيقة والمجاز قد شغلت العلماء زمناً طويلاً ما بين منكر للمجاز كلية أو مصدق له تماماً ، ولكننا في كل ذلك نشعر بمدى التكلف الذي يتورط فيه من ينكره كلية كابن تيمية ، ومن يبالغ في وجوده ويغرق اللغة كلها في المجاز كابن جنى ، وأعدل الآراء في هذه القضية رأي ابن الأثير لتمشيه مع المنطق السليم ، وعدم الجنوح نحو هذا الطريق أو ذلك ، وقوله هو القول الفصل حين يقول « بأن كلا المذهبين فاسد عندي وليست اللغة كلها مجازاً ، ولا كلها حقيقة ، وإنما فيها الحقيقة والمجاز[١] .

٦ ـ المجاز عند ابن فارس (ت ٣٩٥هـ)

أما حديث ابن فارس عن الحقيقة والمجاز ففيه شيء من الاستقلال وعدم التبعية ، ولكنه استقلال لا ينهض على حجة قوية ، ولا يقوم على أساس متين ، فقضية الحقيقة ، والمجاز كانت مثار جدل شديد بين العلماء والفقهاء ، قبل ابن فارس ، ومنهم من أنكر المجاز البته ، ومنهم من أثبته في جملة الكلام وقد كنا نتوقع من ابن فارس حين يتناول هذه القضية أن يدلي فيها برأي يدعمه بالدليل الذي ينهض على صحة دعواه ، ولكننا لم نجد شيئاً من هذا ، فالحقيقة عنده أكثر من المجاز « وهي الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل ، ولا تقديم فيه ولا تأخير كقول القائل ، أحمد الله على نعمه وإحسانه وهذا أكثر الكلام ، وأكثر آي القرآن ، وأكثر شعر العرب[٢] ويسوق على هذه الكثرة مثالاً واحداً من الكلام ، ومثالاً آخر من القرآن ، وبيتين من الشعر ، دون أن يقدم لنا الدليل على هذه الكثرة . بخلاف ابن جنى حين ذكر « أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة »[٣] يساند هذا الرأي بحجة قوية تجبرنا على الأخذ به أو على التأمل فيه وان لم نعتنقه ، وليس لنا

(١) المثل السائر ١/١٠٦ .

(٢) الصاحبي ١٦٧ .

(٣) الخصائص ٢/٤٤٧ .

أن نخوض في أي الرأيين أفضل ، وأجدر بالاعتناق فهذا موضوع قد فرغنا منه حين تناولنا المجاز عند ابن جنى ، ولكني أود أن أوضح بأن الأقوال لا ينبغي أن تلقى دون أن يدعمها الدليل أو يؤازرها المنطق .

والمجاز عنده ليس بحقيقة ، فكل ما خرج عن التعبير الحقيقي من تشبيه أو استعارة ، أو كف ـ ومعناه أن تكف عن ذكر الخبر اكتفاء بما يدل عليه الكلام ـ يعتبره مجازاً .

بل أننا نراه يعتبر التقديم والتأخير نوعاً من الخروج عن الحقيقة ، وبذلك يدخل في دائرة المجاز عنده[1] .

ولكننا رغم ذلك لا نستطيع القول بأن فكرة المجاز عند ابن فارس كفكرته عند أبي عبيدة (ت ٢١٠هـ) فالمجاز عند أبي عبيدة كان أحياناً بمعنى التفسير : أي إيضاح الغامض أو تأويل المشكل أو بيان الغريب ، وهذا لا يعنيه ابن فارس بحال من الأحوال ، لأن الكلام الموضوع موضعه ليس مجازاً عنده[2]،وإنما هو حقيقة وان احتاج إلى تفسير وإيضاح . وعنده أيضاً أن المجاز في لغة العرب يربى على المجاز في لغة العجم ، لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب حتى إنهم يعجزون عن ترجمة بعض الآيات القرآنية إلا بعد أن تذهب الترجمة بطلاوتها وحسنها ، وإن حافظت على معناها وجوهرها كقوله تعالى : ﴿وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء﴾ . ومعنى هذا ان البلاغة وإن كانت مشتركة بين العرب والعجم إلا أنها عند العرب أوفى وأشمل وإلى هذا ذهب أبو أحمد العسكري أيضاً (ت ٣٨٢هـ) في التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم . وابن فارس والعسكري كلاهما يردد ما قاله ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن[3] .

(١) الصاحبي ١٦٨ .

(٢) الصاحبي ١٣ . طبعة الجوائب ١٣٠٢ .

(٣) التفصيل بين بلاغتي العجم والعرب ٢١٣ .

٧ ـ المجاز عند عبد القاهر (ت ٤٧١هـ) :

وقد تراءى لنا أن موقف عبد القاهر من المجاز لا يختلف عن موقفه من الكلمة ، فالجمال في المجاز لا ينبع من الكلمة ، بل يستحيل أن ينبع من ذات الكلمة ، إذ أن الكلمة لا تكون مجازاً إلا وهي داخلة ضمن الكلام ، ودائرة في اطاره ، واعتبرت جزءاً من التأليف والنظم ، أنظر إلى قوله « إن هذه المعاني التي هي الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها ، من مقتضيات النظم ، وعنها يحدث ، وبها يكون ، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو ، فلا يتصور ها هنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره[١] .

ونراه أيضاً بعد أن يتحدث عن الكناية والاستعارة والتمثيل يبين أن المزية لا تحدث بسببها ، بل إلى الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب وهذا ما ينبغي للعاقل أن يجعله على ذكر منه ابداً ، وأن يعلم أن ليس لنا إذا نحن تكلمنا في البلاغة والفصاحة مع معاني الكلم المفردة شغل ، ولا هي منا بسبيل ، وإنما نعمد إلى الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب[٢] . ويسلب المزية لهذه الألوان البلاغية من مجاز وبديع في موضع آخر ، ويردها إلى النظم حين يقول « واعمد إلى ما تواصفوه بالحسن.. بسبب معنى لطيف ، أو حكمة ، أو أدب ، أو استعارة ، أو تجنيس ، أو غير ذلك مما لا يدخل في النظم ، وتأمله... فانك تعلم ضرورة أن ليس إلا أن قدم وأخر ، وعرف ونكر ، وحذف وأضمر ، وأعاد وكرر ، وتوخى على الجملة وجهاً من الوجوه التي يقتضيها علم النحو[٣] » ويأتي بمثال تطبيقي مشهور بين البلغاء بأن سبب

---

(١) الدلائل ٣٠٠ .
(٢) الدلائل ٥٧ .
(٣) الدلائل ٦٧.

الحسن مرده إلى ما فيه من استعارة وذلك قوله تعالى ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾ فيقول « ولم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها. . . وليس الأمر على ذلك ، بل لأجل ما في الكلام من اتصال وملابسة[1] » يعني بذلك أن الاستعارة وإن كانت جارية في لفظ اشتعل إلا أن الحسن أتى من قبل نظم الجملة على النحو المذكور ، فأسند الاشتعال إلى الرأس ، وكان حقه أن يسند إلى الشيب ، وهذا هو المصدر الحقيقي للحسن . وليس الاستعارة ، لأن هذا الحسن متحقق دون الاستعارة في نظير هذه الآية العارية عن هذه الاستعارة مثل : طاب زيد نفساً ، وقر عمرو عيناً وتصبب عرقاً ، وكرم أصلاً ، ونحو ذلك مما يجري على نسق الآية . ولذلك فعبد القاهر يصرح بأن النظم هو سبب الحسن في الاستعارة والكناية والتمثيل حين يرد على من زعم أن الحسن في الكلمة ذاتها بقوله « وجملة الأمر أنا ما رأينا في الدنيا عاقلاً اطرح النظم ، والمحاسن التي هو السبب فيها من الاستعارة والكناية والتمثيل وضروب المجاز والإيجاز وصد بوجهه عن جميعها وجعل الفضل كله ، والمزية أجمعها في سلامة الحروف مما يثقل »[2]. فالصور البيانية في واقعها جزء من النظم ، وليست سر جماله ، بل النظم في الواقع هو سر جمالها ، ولذلك فهو يرفض أن نجعل الاستعارة الأصل في الاعجاز ، وأن يقصد إليها ، لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في آي معدودة في مواضع من السور الطوال مخصوصة ، وإذا امتنع ذلك لم يبق إلا أن يكون في النظم والتأليف[3]. ولذلك حين يعرض عبد القاهر في الدلائل للصور البيانية لم يكن غرضه أن يبحثها بحثاً مفصلاً ، وإنما غرضه أن يسلكها في النظم ، وليبين أن الحسن فيها لا يكتمل إلا بادخالها في هذا الإطار ، لأن النظم بنجوة

(١) الدلائل ٧٩.
(٢) الدلائل ٤٠٣.
(٣) الدلائل ٣٠٠ .

من كل صنعة لفظية . وهو حين يقسم « الكلام الفصيح قسمين : قسم تعزي المزية والحسن فيه إلى اللفظ ، وقسم يعزي ذلك فيه إلى النظم ، فالقسم الأول : الكناية والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة ، وكل ما كان فيه على الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر »[1] أراد بذلك أن يرد على زعم القائلين بأن المفسر يكون بمنزلة التفسير ، وهو لا يرتضي ذلك ، لأن ألفاظ المجاز فيها المعنى ، ودلالة ذلك المعنى على معنى آخر ، بخلاف التفسير فليس فيه إلا المعنى فقط ، فالمزية في المجاز ليست في معنى اللفظ ، بل في طريق إثباته للمعني . فعبد القاهر ـ إذن ـ لا يعني أن مزية المجاز في شيء ليست له علاقة بالنظم ، فقد قرر قبلاً وجود المزية في هذه العلاقة ، ولكنه أصبح الآن بصدد بيان التفاضل بين التفسير والمفسر ، ولا أدل على أن عبد القاهر لا يخرج فصاحة المجاز عن ارتباطها بالنظم من قوله عقب ذلك مباشرة « وقد بطل الآن من كل وجه ، وكل طريق ، أن تكون الفصاحة وصفاً للفظ من حيث هو لفظ ونطق لسان »[2] .

(١) الدلائل ٣٢٩ ، ٣٤٩ .
(٢) الدلائل ٣٤٨ .

المجاز المرسل

المجاز ينقسم إلى قسمين :

مجاز في الإفراد أو الكلمة .

ومجاز في التركيب أو الإسناد .

فمجاز الإسناد هو إسناد الفعل أو في معناه إلى غير ما هو له في الحقيقة . ويسمى بالمجاز العقلي . فقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِرعَونَ عَلاَ فِي الأَرِضِ وَجَعَلَ أهلها شِيعَاً يَستَضعِفُ طَائِفَةً مِنهُم يُذَبِّحُ أَبنَآءَهُم** ﴾[1] فأسند الذبح إلى فرعون ، وليس هو الفاعل الحقيقي ، وإنما هو مجرد آمر بالذبح ، وجنود فِرعون هم الفاعل الحقيقي ، فالمجاز هنا ليس في الكلمة المفردة ، ليس في كلمة الذبح وحدها ، ولا في كلمة فرعون وحدها ، وإنما المجاز في إسناد كلمة الذبح إلى فرعون .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ **إِذَا زُلزِلَتِ الأَرضُ زِلزَالَهَا وَأَخرَجَتِ الأَرضُ أَثقَالَهَا** ﴾[2] .

فأسند الإخراج إلى الأرض مجازاً لأن المخرج الحقيقي هو الله سبحانه

---

(١) سورة القصص آية ٤ .

(٢) سورة الزلزلة آية ١ ـ ٢ .

وتعالى ، والأرض مكان للاخراج ، فالمجاز هنا ليس في كلمة الإخراج وحدها ، ولا في الأرض وحدها ، وإنما المجاز في إسناد فعل الإخراج للأرض [1] .

أما المجاز في المفرد أو ما يسمى بالمجاز اللغوي .

فهو استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي . فما كانت علاقته المشابهة يسمى استعارة وسيأتي الحديث عنها .

وما كانت علاقته غير المشابهة يسمى مجازاً مرسلاً .

فالمجاز المرسل إذن هو مجاز مفرد علاقته غير مشابهة معناه بما هو موضوع له .

وعلاقات المجاز المرسل يعجز العد عن إحصائها ، ولكننا نذكر أهمها ، وأكثرها دوراناً على الألسنة .

١ ـ **علاقة السببية** : أن يكون اللفظ المذكور سبباً في المعنى المقصود . . وذلك كقوله تعالى : ﴿ الشَّهرُ الحَرَامُ بِالشَّهرِ الحَرَامِ وَالحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعتَدَى عَلَيكُم فاعتَدُوا عَلَيهِ بِمِثلِ ما اعتَدَى عَلَيكُم ﴾[2] .

أي : إذا أقدموا على مقاتلتكم في الحرم ، والشهر الحرام والاحرام فقاتلوهم أنتم أيضاً على سبيل القصاص ، عبر بقوله فاعتدوا عليه ، وهو ليس اعتداء في الحقيقة ، وإنما هو عقوبة ، وعبر بلفظ الاعتداء لأنه سبب في العقوبة[3] .

---

(١) أنظر فن البلاغة ٨٧ ـ ٩٧ للمؤلف .

(٢) سورة البقرة آية ١٩٤ .

(٣) هذا ومثله يسمى بالمشاكلة في باب البديع .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾[1] .

المراد وجزاء سيئة عقوبة مثلها ، ولكنه عبر بلفظ السيئة ، لأنه سبب في العقوبة .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾[2] .

والتقدير يخادعون رسول الله ، والله يخادعهم ، فيكون خدع الرسول حقيقياً ، وأما خديعة الله إياهم فهو من مجاز التعبير بلفظ السبب عن المسبب .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾[3] .

أي يعاقبهم على استهزائهم بالمؤمنين ويحقرهم ، فسمى عقوبة استهزائهم استهزاءاً ، فعبر بلفظ الاستهزاء حيث كان سبباً في عقوبة الله لهم .

وقوله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴾[4] .

أي : نختبر المنافقين بالأمر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقة فنستخرج منهم ما طبعوا عليه ، فينكشف أمرهم للناس ، وهو مطابق لما نعلمه عنهم ، فالمراد بالابتلاء هنا العرفان وعبر بلفظ الابتلاء لأنه سبب في العرفان .

وقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا

---

(١) سورة الشورى آية ٤٠ .

(٢) سورة النساء آية ١٤٢ .

(٣) سورة البقرة آية ١٤ ـ ١٥ .

(٤) سورة محمد آية ٣١ .

حَرَّمنَا مِن شَيءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم حَتَّى ذَاقُوا بَأسَنَا * قُل هَلْ عِندَكُم مِن عِلم فَتُخرِجُوهُ لَنَآ إن تَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَإن أنتُم إلاَّ تَخرُصُونَ ﴾(١) .

احتج المشركون بأن شركهم وتحريمهم واقع بمشيئة الله وهو لذلك مرضي عنه ، فرد الله عليهم بأنه لو كان مرضياً لما ذاق أسلافهم العذاب ، وحجتهم فاسدة بإرسال الرسل ودعوتهم إلى التوحيد ، ومعنى فتخرجوه لنا فتظهروه لنا ، فعبر بالإخراج ، لأنه سبب في إظهاره وإقامة الدليل عليه .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُم كَافِرُونَ أولَئِكَ لَم يَكُونُوا مُعجِزِينَ فِي الأَرضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِن دُونِ اللهِ مِن أولِيَاءَ * يُضَاعَفُ لَهُمُ العَذَابُ مَا كَانُوا يَستَطِيعُون السَّمعَ وَمَا كَانُوا يُبصِرُونَ ﴾(٢) .

أي : ما كانوا يستطيعون قبول ذلك والعمل به ، لأن قبول الشيء مترتب على سماعه ومسبب عنه ، والسمع سبب في القبول .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُم حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإنِ انتَهَوا فَلاَ عُدوَانَ إلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾(٣) .

أي : قاتلوا المشركين لإزالة الفتنة والشرك وإعلاء كلمة الإسلام ، وهذا ليس عدواناً على الحقيقة وإنما هو قتال ، وعبر بلفظ العدوان ، لأن العدوان كان سبباً فيه .

وقوله تعالى : ﴿ أم أنزَلنَا عَلَيهِم سُلطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ

---

(١) سورة الأنعام آية ١٤٨ .
(٢) سورة هود آية ١٩ ـ ٢٠ .
(٣) سورة البقرة آية ١٩٣ .

يُشرِكُونَ ﴾[1] أي يدل على شركهم ، فعبر بالكلام هنا لأنه سبب في الدلالة .

وكما في إطلاق اليد على النعمة أو القدرة لأنها سبب فيها .

كقوله عليه السلام « أسرعكن لحوقاً بي أطولكن يداً » أي أكثركن عطاء .

٢ ـ علاقة المسببية : أن يكون اللفظ المذكور مسبباً عن المعنى المقصود .

فقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأكُلُوا الرِّبا أَضعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ** ﴾[2] .

نهى عن تعاطي الربا ، وتقريعهم لهذا التصرف ، فقد حرم الله أصل الربا ومضاعفته ، ومعنى لا تأكلوا الربا : لا تأخذوا الربا ، فعبر بالأكل لأنه مسبب عن الأخذ .

ومثل قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَموَالَكُم بَينَكُم بِالبَاطِلِ** ﴾[3] . أي لا تأخذوا أموالكم بالحرام كالربا والميسر ، والغصب والسرقة ، وشهادة الزور والخيانة والظلم ، ونحو ذلك ، فعبر بالأكل لأنه مسبب عن الأخذ .

ونحو قوله : ﴿ **وَالرُّجزَ فَاهْجُر** ﴾[4] .

فالمعنى الحقيقي للرجز العذاب الشديد ، والمراد هنا عبادة الأصنام ، فعبر بالرجز ـ وهو العذاب الشديد ـ لأنه مسبب عن عبادة الأصنام .

---

(١) سورة الروم آية ٣٥ .
(٢) سورة آل عمران آية ١٣٠ .
(٣) سورة النساء آية ٢٩ .
(٤) سورة المدثر آية ٥ .

وقوله تعالى في حق المشركين والمشركات : ﴿ أُولَئِكَ يَدعُونَ إِلَىٰ النَّارِ وَاللَّهُ يَدعُوا إِلَىَ الجَنَّةِ وَالمَغفِرَةِ بِإِذنِهِ ﴾(١) .

المراد بالمغفرة هنا التوبة ، فالعلاقة هنا المسببية ، لأن المغفرة مسببة عن التوبة .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا استَطَعتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الخَيلِ تُرهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم ﴾(٢) .

أي أعدوا لهم ما استطعتم من أسلحة لأنها تعطي القوة والثقة في النفس والقدرة على القتال ، فالقوة هنا مسببة عن السلاح .

وقوله تعالى حكاية عن قوم موسى : ﴿ قَالُوَا أَجِئتَنَا لِتَلفِتَنَا عَمَّا وَجَدنَا عَلَيهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الكِبرِيَآءُ فِي الأَرضِ وَمَا نَحنُ لَكُمَا بِمُؤمِنِينَ ﴾(٣) .

أي جئتنا لتصرفنا عن دين آبائنا ويكون لك أنت وأخيك الملك ، فعبر بالكبرياء وأراد الملك ، لأنه مسبب عنه .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ رِزقاً ﴾(٤) .

أي مطراً ، والرزق مسبب عن المطر .

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمتُم إِلَى الصَّلاَةِ فَاغسِلُوا وُجُوهَكُم وَأَيدِيَكُم إِلَى المَرَافِقِ وَامسَحُوا بِرءُوسِكُم وَأَرجُلَكُم إِلَى الكَعبَينِ ﴾(٥).

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢١ .
(٢) سورة الانفال آية ٦٠ .
(٣) سورة يونس آية ٧٨.
(٤) سورة غافر آية ١٣ .
(٥) سورة المائدة آية ٦ .

أي : إذا أردتم القيام إلى الصلاة فاغسلوا ، فالقيام هنا مسبب عن الإرادة .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَإِن حَكَمتَ فَاحكُم بَينَهُم بِالقِسطِ ﴾[1] .

أي : إذا أردت الحكم بينهم بالعدل ، والحكم مسبب عن الإرادة .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقتُمُ النِسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾[2] . .

أي : إذا أردتم طلاق النساء فطلقوهن لعدتهن ، والطلاق مسبب عن الإرادة .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلتُم فَاعدِلُوا وَلَو كَانَ ذَا قُربَى ﴾[3] .

أي : إذا أردتم القول فاعدلوا .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَم يُسرِفُوا وَلَم يَقتُرُوا وَكَان بَين ذَلِكَ قَوَاماً ﴾[4] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى ﴾[5] .

أي إذا أرادوا الإنفاق ، وإذا أرادوا القيام .

وقوله عليه السلام : إن من الكبائر شتم الرجل والديه ، قالوا يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم ، يسب أبا الرجل ، فيسب أباه ،

(١) سورة المائدة آية ٤٢ .
(٢) سورة الطلاق آية ١ .
(٣) سورة الانعام آية ١٥٢ .
(٤) سورة الفرقان آية ٦٧.
(٥) سورة النساء آية ١٤٢ .

ويسب أمه فيسب أمه » فشتم الرجل والديه مسبب عن شتمه لآباء غيره من الناس .

وقوله عليه السلام : (الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق) جعل القول وإماطة الأذى عن الطريق إيماناً ، وهما مسببان عن الإيمان القلبي .

ومثله قوله عليه السلام (هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تؤدوا خمساً من المغنم) .

جعل الشهادتين وما بعدها إيماناً ، لأنها مسببة عن إيمان الجنان .

٣ ـ **العلاقة الجزئية** : أن يكون اللفظ المذكور جزءاً من المعنى المقصود .

كالتعبير عن الصلاة بالقيام في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّها المُزَّمِّل * قُمِ اللَّيلَ إلاَّ قَلِيلاً** ﴾(١) .

أي صل الليل إلا قليلاً ، والقيام جزء من الصلاة ، فعبر بالجزء وهو القيام ، وأراد الكل وهو الصلاة .

وقوله تعالى : ﴿ **وَأَقِيْمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاركَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ** ﴾(٢) أي صلوا مع المصلين ، فعبر بالجزء وهو الركوع ، وأراد الكل وهو الصلاة .

وقوله تعالى : ﴿ **لَيْسُوا سَوَاءً مِن أَهْلِ الكِتابِ أُمَةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللهِ**

---

(١) سورة المزمل آية ١ ـ ٢ .
(٢) سورة البقرة آية ٤٣ .

أناءَ اللَّيْلِ وَهُم يَسْجُدُونَ ﴾[1] .

أي : وهم يصلون ، لأن التلاوة منهى عنها في السجود الحقيقي ، فلا يصح المدح بما نهى عنه ، فعبر بالجزء وهو السجود ، وأراد الكل وهو الصلاة.

وقوله تعالى : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذقانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾[2] .

أي للوجوه فعبر بالجزء وهو الأذقان ، وأراد الكل وهو الوجوه .

وقوله تعالى : ﴿ سَنَسِمُه عَلَى الخُرْطُومِ ﴾[3] .

والخرطوم معناه : الأنف ، وأراد به الوجه ، فعبر بالجزء وهو الخرطوم ، وأراد به الكل وهو الوجه .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقوُا بِأَيدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾[4] .

أي لا تلقوا أنفسكم إلى التهلكة ، فعبر بالأيدي وهي الجزء وأراد الأنفس وهي الكل .

وقوله تعالى : ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَ بَنَانٍ ﴾[5] .

والبنان الأصبع ، فعبر بالجزء وهو الأصبع ، وأراد الكل وهو الأيدي والأرجل .

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٣ .
(٢) سورة الاسراء آية ١٠٩ .
(٣) سورة القلم آية ١٦ .
(٤) سورة البقرة آية ١٩٥ .
(٥) سورة الانفال آية ١٢ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾[1] .

أي لا يقربوا الحرم وليس المسجد الحرام فقط ، والمراد منعهم من الحج وحضور مواضع النسك .

٤ ـ العلاقة الكلية : أن يكون اللفظ المذكور كلاًّ بالنسبة للمعنى المقصود .

كقوله تعالى عن المنافقين : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾[2] .

فهو لم ير جملتهم ، وإنما رأى وجوههم ، وما يبدو منهم غالباً ، فعبر بالكل وهو الأجسام وأراد الجزء وهو ما يبدو منهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[3] .

فالجلد لا يقع على جميع البدن ، إذ لا يجوز جلد وجوههم ولا سوءاتهم ولا مقاتلتهم ، فعبر بالكل وأراد الجزء .

وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾[4] .

المراد قطع الرسغ فقط فعبر بالكل وهو اليد ، وأراد الجزء وهو الرسغ .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ، وَقَالَ ادْخُلُوا

---

(١) سورة التوبة آية ٢٨ .
(٢) سورة المنافقون آية ٤ .
(٣) سورة النور آية ٤ .
(٤) سورة المائدة آية ٣٨ .

مِصرَ إن شَآء اللهُ آمِنِينَ ﴾[1] .

ومعلوم أنهم لا يستوعبون البلد كلها ، وإنما يدخلون جزءاً منها ، فعبر بالكل وأراد الجزء .

« وكقولك أمسكت الحبل ، وإنما أمسكت بعضه ، وقبلت الحجر ، وإنما قبلت بعضه ، وقبلت يده وإنما قبلت بعض كفه ، وشربت ماء النيل ، ومعلوم أنك لم تستوعب ذلك بفعلك »[2] .

٥ ـ العلاقة باعتبار ما كان : وذلك إذا سمى الشيء بما كان عليه .

كقوله تعالى : ﴿ **وَآتُوا اليَتَامَى أموَالَهُم وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأكُلُوا أموَالَهُم إلَى أموَالِكُم إنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً** ﴾[3] .

أي صونوا أموالهم ولا تتعرضوا لها بسوء ، وردوها إليهم سالمة ، حتى لا تقعوا في الإثم والمراد الذين كانوا يتامى ، لأن الرشيد لا يسمى يتيماً ، ولا يتم بعد البلوغ ، فتسليم الأموال لا يكون إلا للبالغ الرشيد ، والبالغ الرشيد لا يسمى يتيماً .

وقوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّونَ مِنكُم وَيَذَرُونَ أزوَاجاً يَتَرَبَّصنَ بِأنفُسِهِنَّ أربَعَةَ أشهُرٍ وَعَشراً** ﴾[4] .

فالمرأة التي توفى عنها زوجها لا تسمى زوجة بعد الوفاة ، لأن الزوجية تنقضي بالموت ، والمراد : اللائي كن أزواجاً لهم .

---

(١) سورة يوسف آية ٩٩.
(٢) الإشارة إلى الايجاز ٦٨.
(٣) سورة النساء آية ٢ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٣٤ .

وقوله تعالى : ﴿ إنَّه مَنْ يَأْتِ رَبَّه مُجْرِماً فإنَّ له جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى ﴾(١) .

وصفه بالإجرام باعتبار ما كانت عليه حاله في الدنيا .

وقوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمَا مائة جَلْدَةٍ ﴾(٢) .

سمي بالزاني وبالزانية باعتبار ما كان عليه كل منهما .

وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فاقطَعُوا أيدِيَهُما جَزاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٣) .

سميا بذلك على اعتبار أنهما كانا قد اقترفا هذا الفعل .

٦ - **العلاقة باعتبار ما سيكون** : وذلك إذا سمى الشيء بما سوف يكون عليه كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ في القَتْلَى الحُرُّ بالحُرِّ والعَبدُ بالعَبدِ والأُنثى بِالأُنثَى ﴾(٤) .

معناه الذين يئول أمرهم إلى القتل ، أو يشارفون القتل .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوجاً غَيرَهُ ﴾(٥) .

لا يسمى زوجاً إلا بعد العقد ، فهو زوج باعتبار ما سيكون .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ ﴾(٦) .

---

(١) سورة طه آية ٧٤.

(٢) سورة النور آية ٢ .

(٣) سورة المائدة آية ٣٨ .

(٤) سورة البقرة آية ١٧٨ .

(٥) سورة البقرة آية ٢٣٠ .

(٦) سورة الحجر آية ٥٣ .

فالانسان لا يولد غلاماً عليماً بالأمور ، وإنما يولد طفلاً لا يعلم شيئاً ، وأطلق عليه هذين اللفظين باعتبار ما سيكون .

وقوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِجنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدهُمَآ إِنِّي أَرَآنِي أَعصِرُ خمراً ﴾[1] .

فان الخمر لا يعصر ، وإنما يعصر العنب فيصير خمراً .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نُوحُ رَّبِ لَا تَذَر عَلَى الأَرضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرهُم يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾[2] .

أي : لا يلدوا إلا من سيفجر ويكفر ، فوصفهم بما يصيرون إليه .

وقوله عليه السلام « من قتل قتيلاً فله سلبه » .

فان القتيل لا يقتل ، وإنما سمي بذلك باعتبار ما سيئول إليه .

٧ ـ علاقة العموم : أن يدل اللفظ المذكور على العموم والمراد الخصوص .

كقوله تعالى : ﴿ وَإِذ قَتَلتُم نَفساً فَادَّارَأتُم فِيهَا وَاللَّهُ مُخرِجٌ مَّا كُنتُم تَكتُمُونَ ﴾[3] أي : ألقى كل منكم تهمة القتل على الآخر ، والقتل لم يصدر عن الجميع وإنما صدر عن واحد منهم ، فعبر بالعام وأراد الخاص .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلتُم يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللهَ جَهرَةً ﴾[4] . ولم يقولوا جميعاً ، وإنما قال بعضهم ، ويروون أنهم سبعون ، فعبر بالعام وأراد الخاص .

---

(١) سورة يوسف آية ٣٦ .
(٢) سورة نوح آية ٢٦ ـ ٢٧ .
(٣) سورة البقرة آية ٧٢.
(٤) سورة البقرة آية ٥٥ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذ نَجَّيناكُم مِن آلِ فِرعَونَ يَسُومُونَكُم سُوءَ العَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبناءَكُم ﴾[1] .

ذبحوا بعض الأبناء فقط ، لأنهم لم يذبحوا الأصاغر والأكابر .

وقوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوا عَن أَمرِ رَبِّهِم ﴾[2] .

أسند العقر إلى الجميع والعاقر لها واحد يسمى قدار .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن نَكَثُوا أَيمَانَهُم مِنّ بَعدِ عَهدِهِم وَطَعَنُوا فِي دِينِكُم فَقَاتِلُوا أَئِمَةَ الكُفرِ ﴾[3] .

والذي نكث بعضهم ، فذكر العام وأراد الخاص .

وقوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ ﴾[4] .

ولم يعن كل الشعراء وإنما أراد بعضهم .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعرَابُ آمَنَّا ﴾[5] .

وإنما قاله فريق منهم ، فعبر بالعام وأراد الخاص .

٨ ـ **علاقة الخصوص** : أن يدل اللفظ المذكور على الخاص والمراد العموم .

كقوله تعالى : ﴿ هُمُ العَدُوُّ فَاحذَرهُم ﴾[6] .

---

(١) سورة البقرة آية ٤٩ .
(٢) سورة الأعراف آية ٧٧ .
(٣) سورة التوبة آية ١٢ .
(٤) سورة الشعراء آية ٢٢٤ .
(٥) سورة الحجرات آية ١٤ .
(٦) سورة المنافقون آية ٤ .

أي : الأعداء ، فعبر بالخاص وأراد العام .

وقوله تعالى : ﴿ عَلِمَت نَفسٌ مَّآ أَحضَرَت ﴾(١) .

أي : كل نفس .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّها النَّبِي اتَّقِ الله وَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ ﴾(٢) .

الخطاب للنبي عليه السلام ، والمراد الناس جميعاً .

٩ ـ علاقة المحلية : وهي تسمية الشيء باسم محله .

كقوله تعالى : ﴿ فَليَدعُ نَادِيَهُ ﴾(٣) .

أي أهل ناديه ، والنادي لا يدعى ، وإنما هو مكان اجتماع الناس فعبر بالمحل وأراد ما يحل فيه .

وكقوله تعالى : ﴿ وَاسأَلِ القَريَةَ التي كُنَّا فِيهَا ﴾(٤) .

أي أهل القرية ، لأن السؤال لا يكون للجماد ، وإنما هي مكان لمن يسأل.

وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأفوَاهِهِم مَّا لَيسَ فِي قُلُوبِهِم ﴾(٥).

أي : يقولون بألسنتهم ، والأفواه مكان لها ، فعبر بالمكان وأراد ما يحل فيه .

١٠ ـ علاقة الحالية : وهي إطلاق اسم الحال على المحل .

---

(١) سورة التكوير آية ١٤ .
(٢) سورة الأحزاب آية ١ .
(٣) سورة العلق آية ١٧ .
(٤) سورة يوسف آية ٨٢.
(٥) سورة آل عمران آية ١٦٧ .

كقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابيَضَّت وُجُوهُهُم فَفِي رَحمَةِ اللهِ هُم فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1] .

أي : في جنة الله ، والرحمة حالة فيها ، فعبر بلفظ الرحمة وهي حالة ، وأراد الجنة وهي محل .

وقوله تعالى : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُم عِندَ كُلِّ مَسجِدٍ ﴾[2] .

أي : خذوا لباسكم ، والزينة حالة في اللباس ، فعبر بالحال وأراد المحل .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٧.
(٢) سورة الأعراف آية ٣١ .

الاستعارة

هي اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى الأصلي للكلمة والمعنى الذي نقلت إليه الكلمة مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي .

أو « هي استعارة الكلمة من شيء معروف بها إلى شيء لم يعرف بها »[١] .

أو « هي اللفظ المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي »[٢] .

أو « هي نقل المعنى من لفظ إلى لفظ لمشاركة بينهما ، مع طي ذكر المنقول إليه »[٣] .

أو « هي ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له »[٤] .

والتعريف الأول هو الذي استقر عليه علماء البلاغة .

والأركان التي تقوم عليها الاستعارة ثلاثة :

---

(١) البرهان ٣/٤٣٣ .
(٢) المعترك ١/٢٧٥ .
(٣) المثل السائر ٢/٨٣.
(٤) الشروح ٤/٤٥ .

المستعار منه: وهو المشبه به .
والمستعار له: وهو المشبه .
والمستعار : وهو اللفظ المنقول .

ففي قوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيباً ﴾[١] .

شبه الشيب بالنار في البياض والانبساط .

فالمستعار منه النار لأنه مشبه به .

والمستعار له الشيب لأنه مشبه .

ولفظ النار هو المستعار .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغَضَبُ ﴾[٢] .

شبه الغضب عندما يهدأ بالساكت في أن كلا منهما كف عما كان عليه .

فالمستعار منه الساكت لأنه مشبه به .

والمستعار له الغضب لأنه مشبه .

ولفظ السكوت هو المستعار[٣] .

يقول الزركشي : « لا بد في الاستعارة من ثلاثة أصول : مستعار ، ومستعار منه وهو اللفظ ، ومستعار له وهو المعنى »[٤] .

والاستعارة تغاير التشبيه وإن كانت مبنية عليه .

---

(١) سورة مريم آية ٤ .
(٢) سورة الاعراف آية ١٥٣ .
(٣) البرهان ٣/٤٤٢ والمعترك ١/٢٧٩ .
(٤) البرهان ٣/٤٣٥ .

فأركان التشبيه أربعة : مشبه ، ومشبه به ، وأداة تشبيه ، ووجه شبه .

والاستعارة لا بد فيها من حذف الوجه ، والأداة . أما المشبه ، والمشبه به فلا بد من حذف أحدهما ، أي لا يبقى في الاستعارة من أركان التشبيه الأربعة إلا طرف واحد : المشبه به (المستعار منه) أو المشبه (المستعار له).

ففي قوله تعالى : ﴿ فَاصدَعْ بِمَا تُؤْمَرْ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِين ﴾[1].

أي : بلغ ما تؤمر به ، فشبه التبليغ بالصدع - ثلم الزجاجة وكسرها - بجامع التأثير في كل منهما ، واستعار الصدع للتبليغ ، فالآية فيها استعارة ، وليس فيها من أركان التشبيه الأربعة إلا المشبه به ، بعد حذف المشبه ووجه الشبه والأداة ، لذلك كانت الاستعارة أبلغ من التشبيه ، لأن حذف معظم أركان التشبيه من الاستعارة يجعلنا نتناسى التشبيه ويعطينا صورة جديدة تعتمد على الإيهام والتأثير في النفس لا نجد لها مثيلاً في التشبيه المستوفي الأركان .

ولكن الاستعارة مثل التشبيه في تحويل الأشياء المعنوية إلى صورة حسية ، فتجعل الشيء مرئياً أو مسموعاً أو ملموساً أو مذاقاً ، فتيقظ النفس للاحساس به إحساساً قوياً كاملاً .

غير أن الإستعارة تفوق التشبيه في مزاياها ، فالتشبيه لوجود طرفيه - المشبه والمشبه به - يجعلنا نخطو في دائرة من الواقع لا نتعداها بخيالنا ، ولا يسمح لهذا الخيال أن يشرد ، فهو لا يمنحنا أكثر من صورة التقارب بين شيئين ، ودنو أحدهما من الآخر ، وليس امتزاج أحدهما في الآخر ، على عكس الاستعارة ، فان حذف أركان التشبيه كلها وبقاء المشبه فقط ، أو المشبه به فحسب يقوي اتحاد الطرفين ويمزج أحدهما في الآخر كأنهما شيء

---

(١) سورة الحج آية ٩٤ .

واحد ، بل هما شيء واحد في الظاهر ، فضلاً عن الإيجاز المشتمل في الحذف ففي التعبير بالاستعارة كقولك رأيت أسداً في ساحة القتال يلغي الفوارق بين الرجل الشجاع والأسد ، ويزيل مجرد التشابه بينهما ، بل يجعل الرجل الشجاع أسداً في ذاته وحقيقة أمره ، وهذا الاتحاد وشدة الامتزاج بين المشبه والمشبه به هو الذي يجعل الصورة في الاستعارة أكثر مبالغة منها في التشبيه ، وأبعد أثراً ، ولهذا تفوق الاستعارة ما بنيت عليه من التشبيه .

والتجربة الفنية التي تمر بالأديب في جوهرها تجربة نفسية ، ولا يسع عقل الأديب أن يبعد تجربته عن عالمه القائم على الأحلام والأخيلة والصور ، لذلك كان الخيال عنصراً هاماً من عناصر التجربة الفنية لأنه يساعد على بقاء الحلم واستمراره ، فننسى واقعنا وعالمنا الذي نرتبط به ، ونتصل بعالم خيالي جديد من صنع المجازات والاستعارات ، فاللجوء إلى الاستعارة أو المجاز ليس حلية للزينة يمكن الاستغناء عنه ، وإنما هو عمل جوهري يستمد منه الشاعر أجنحة خياله ليعبر به عن مكنون نفسه حين تعجز الألفاظ الوضعية عن التعبير عما يجول في خاطره وأعماقه ، فالخيال هنا مكمل لما تعجز الألفاظ أن تعبر عنه ، ويعتبر أداة لاستيفاء ما يشعر به من نقص إزاء لغته .

« فالخيال أو التصوير مرده إلى قصور الألفاظ ومعانيها الحقيقية عن التعبير عما يشاهده الأديب في حياته النفسية الداخلية من مشاعر ، . . . فيتحول من مجاز إلى مجاز ومن استعارة إلى استعارة ، وكأننا نقفز معه في سمائه من أفق إلى أفق ، فنشعر بغير قليل من البهجة ، أو قل كأننا معه في دار خيالة تعرض علينا صوراً متتابعة ننفصل بها عن حياتنا الواقعية ، فنسكن إليها،ونحس بغير قليل من المتعة ، إذ نشعر كأننا تخلصنا من أعباء الحياة وانزاحت عنا إلى حين »(١) .

---

(١) في النقد الأدبي ١٥٠ د. شوقي ضيف ط ٢ دار المعارف .

وهذا يفسر لنا ما يزعمه الأقدمون من علماء البلاغة حين يقولون « التشبيه من أعلى أنواع البلاغة وأشرفها . واتفق البلغاء على أن الاستعارة أبلغ منه ، لأنها مجاز . وهو حقيقة ، والمجاز أبلغ ، فاذن الاستعارة أبلغ وهي من أشرف ما يعد في القواعد المجازية وأرسخها عرقاً فيه »[1] .

فوظيفة المجاز أو الاستعارة أن تعطي الأديب إمكانية التعبير الذي يعجز عنه بالألفاظ المحددة ، وتسلمه إلى عالم من الخيال يتناسب مع حدة شعوره ، وشدة انفعاله . وليس وظيفة الاستعارة مجرد حلية تزين الكلام أو تنمق الأسلوب ، بل الخطر كل الخطر أن تقتصر وظيفتها على هذا الهدف المتواضع الذي قد يفسد المعنى أو يضعفه .

فالشاعر الذي يصف السحاب في يوم عاصف دون أن يرسم لنا صورته الداكنة ، ورعوده المزمجرة ، وبروقه الخاطفة ، والقتامة التي يعكسها على النفس ذلك المنظر الرهيب لا يكون قد نجح في تقديم الصورة المطلوبة إلينا كما أحسها هو ، وكما يريد لنا أن نشاركه هذا الإحساس بعد أن ينقل مشاعره إلينا ، ولو امتلأ شعره بالاستعارات والصور الجميلة ، فقول الشاعر :

تسربل وشياً من حرير تطرزت ... مطارفها لمعاً من البرق كالتبر
فوشي بلا رقم ونقش بلا يد ... ودمع بلا عين ، وضحك بلا ثغر

يزخر بالصور الجميلة « فالسحاب الذي رداؤه من حرير ، والرداء الذي طرزه لمع البرق ، والدمع الذي ينسكب من غير المحاجر ، والضحك الذي تنحدر قهقهته من غير الأفواه ، كل هذه صور جميلة ، ولكنها تفسد المعنى لأنها لا تترك في القارىء أثر السماء العاصفة ببرقها ورعودها »[2] .

(١) المعترك ١/٢٨٤ ، الأنوار ٢٢١ ، الطراز ٣/٣٣٤ .
(٢) فنون الأدب ٨ د. زكي نجيب محمود ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

وعلى غرار ذلك قول الشاعر :

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ... ورداً وعضت على العناب بالبرد

فالشاعر شكل لنا الدموع في صورة اللؤلؤ ، والعيون في شكل النرجس ، والخد في حمرة الورد ، والأنامل في رسم العناب ، والأسنان في لمعان البرد ، ورغم هذه الصورة الجميلة المتعددة إلا أنه لم ينفذ إلى أعماقنا لماذا ؟ لأنه لم يلحظ حالة المرأة وما يحيط بها من أسى ولوعة ، فالصور هنا مجرد وشي وترف ، وزينة وزخرف ، لأنها لم تبلور الأثر النفسي الذي يمكن أن تتركه المرأة الوالهة في مثل هذا الموقف ، ولم تصور عاطفة الحزن التي استولت على المرأة وأراد الشاعر أن يسوقها إلينا ، وبذلك فشل الشاعر في تحقيق هدفه ، ومثله قول أبي نواس :

تبكي فتذري الدر من نرجس ... وتـــلطم الـــورد بـــعـــنـــاب

ثم إن اتفاق التشبيهات في البيتين اتفاقاً تاماً يلفت نظرنا إلى أن الغرض هو مجرد الشكل ، وليس إبراز العاطفة التي تختلف من شاعر إلى شاعر ، بل تختلف مع الشاعر نفسه من حالة إلى حالة ، ومن لحظة إلى أخرى ، بل إنها إذا اتفقت في الشعور الصادق ، فلا بد أن تختلف في تصوير هذا الشعور ، مما يدل على أن العاطفة هنا زائفة ومفتعلة ، والاستعارة هنا لم تقم بدورها الأساسي في التعبير عن الموقف ، بل كانت مجرد حلية أضعفت الصورة على عكس ما أراد الشاعر أن يبهر بها الأبصار ، وهنا الخطر الكامن حين يستعمل المجاز في غير موضعه من الكلام..

بلاغة الاستعارة

يذكر الرماني « أن الاستعارة الحسنة هي التي توجب بلاغة بيان لا تنوب منابه الحقيقية ، وذلك أنه لو كان تقوم مقامه الحقيقة كانت أولى به ، ولم تجز الاستعارة ، وكل استعارة لا بد لها من حقيقة ، وهي أصل الدلالة على

المعنى »[1] . فالاستعارة عند الرماني تتميز بزيادة بيان ، وهذا البيان لا وجود له عند التعبير بالحقيقة ، ولو كانت الاستعارة تؤدي نفس المعنى الذي تؤديه الحقيقة ، وليس لها فضل بيان عليها ، لكان التعبير بالحقيقة أجدى . وبذلك ينص صراحة على أن أسلوب الاستعارة أقوى وأبلغ من أسلوب الحقيقة ، وكل استعارة لا بد لها من حقيقة ، وهذه الحقيقة هي التي تشير إلى أن الأسلوب استعارة ، فعندما نفطن إلى حقيقة الكلام ، كان ذلك قرينة على أن الأسلوب ليس حقيقة ، وإنما هو نوع من المجاز . ثم بين لنا فضل الاستعارة بحشد من أمثلة القرآن الكريم تبلغ أربعة وأربعين شاهداً ، مبيناً في كل شاهد المعنى الحقيقي والمعنى المجازي ، والجامع بين المعنيين ، ونكته التعبير بالاستعارة دون الحقيقة ، والسر البلاغي في الآية ، والأثر النفسي الذي يتداعى إلى القلوب عند سماع التعبير بالألفاظ التي دخلتها الاستعارة ، ولا يزال الرماني يقوم بهذا الجهد الكبير في كل آية من هذه الآيات بطريقة تدهش العقل ، وتغذي الشعور . وما عهدنا أحداً من السابقين أو اللاحقين يصنع هذا الصنيع ، أنظر إليه حين يتناول قول الله عز وجل : ﴿ **وَقَدِمنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعلنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً** ﴾ يقول : حقيقة قدمنا هنا عمدنا وقدمنا هنا أبلغ منه ، لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر ، لأنه من أجل امهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم ، ثم قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم ، وفي هذا تحذير من الاغترار بالامهال ، والمعنى الذي يجمعهما العدل ، لأن العمد إلى ابطال الفاسد عدل ، والقدوم أبلغ لما بينا « أو يقول في قوله تعالى : ﴿ **فَاصدَع بِمَا تُؤمَرُ** ﴾ حقيقته فبلغ ما تؤمر به ، والاستعارة ابلغ من الحقيقة ، لأن الصدع بالأمر لا بد له من تأثير كتأثير صدع الزجاجة ، والتبليغ قد يصعب حتى لا يكون له تأثير فيصير بمنزلة ما لم يقع ، والمعنى الذي يجمعهما

(١) النكت ٧٩.

الايصال ، إلا أن الايصال الذي له تأثير كصدع الزجاجة أبلغ »[1]. انظر إلى قول الرماني ، وتحليله الرائع وبيان العلة في أبلغية الاستعارة عن الحقيقة ، وسر الجمال في التعبير بلفظ فاصدع بدلاً من بلغ ، كل ذلك يجعل القارىء متمثلاً للسر البلاغي ، وموطن الجمال في التعبير بالاستعارة ، ثم أنظر إلى ما يقوله بعض المعاصرين في نفس الآية لبيان الاستعارة فيها : المراد بقوله (فاصدع) بلغ فقد شبه التبليغ بالصدع بجامع التأثير في كل منهما. . .ثم استعير الصدع للتبليغ، ثم اشتق من الصدع بمعنى التبليغ اصدع . بمعنى بلغ[2] على طريق الاستعارة التصريحية التبعية. . . والقرينة هنا هو الجار والمجرور وهو (بما تؤمر) فقد عرفنا منه أركان الاستعارة ونوعها وقرينتها فحسب ، ولم نعرف ما هو أكثر من ذلك من اسرار البيان وبلاغة القرآن ، وهي طريقة لا تجدي في تذوق الجمال وصقل المشاعر . فالرماني ليس كغيره ممن تناول البلاغة قديماً أو حديثاً يعني بالجوانب الاصطلاحية ولكنه يعني بالصور البلاغية ، والأثر النفسي ، وانفعال الوجدان ، وتحرك المشاعر ، فكان رائداً من الرواد القلائل الذين عالجوا الاستعارة بهذه الطريقة المثلى التي ينبغي أن نسير عليها في عصرنا الحديث . ولذلك فان الدهشة تعترينا ، وتبلغ منا كل مبلغ عندما يزعم أحد الدارسين المحدثين « أن بحوث القدماء في الحقيقة والمجاز رغم استفاضتها ، وحسن عرضها قد تجاهلت امرأ هاماً هو أثرهما في الفرد حين يسمع اللفظ أو يقرؤه. . . لأن شرط المجاز أن يثير في ذهن السامع أو القارىء دهشة أو غرابة أو طرافة »[3] فهل كان الرماني حقاً متجاهلاً لأثر الاستعارة ، وهي لون من المجاز في النفس ، وكل مداره حول هذا الأثر النفسي ، والتركيز عليه ، بحيث لا يبدو لنا أنه يريد بالاستعارة غير هذا الأثر ،

---

(١) النكت ٨٠ ، الفرقان آية ٢٢ ، الحجر آية ٩٤.
(٢) البلاغة التطبيقية ١٣١ .
(٣) دلالة الألفاظ ١٢٤ د. ابراهيم انيس ط أولى الانجلو.

وانفعال السامع أو القارىء بها دون الحقيقة التي يذكرها في كل مثال ، ثم يلجأ إلى الاستعارة ، ليوضح الفرق بين التعبيرين وما تخلفة الاستعارة من أثر نفسي لا نحصل عليه من التعبير بالحقيقة . وقد سار بعض المحدثين على منوال الرماني ، وتقفي آثاره في معالجة الاستعارة ، وبيان بلاغتها . فنقل كثيراً من أمثلته وعلق عليها تعليقاً أشبه إلى حد كبير - حتى كاد يكون نسخاً - بما ذكره الرماني في هذا الموطن دون أن يصرح باسم الرماني ، غير أنه زعم أن الأقدمين قد اقتصروا على ذكر أنواع الاستعارة . . إلا ما ندر من وقوف بعضهم يتأمل بعض هذه اللمحات الفنية المؤثرة ، ولا شك أنه يعني بهذا القول الرماني ، لأن المقارنة بينهما تبرز ما نقله عن الرماني في وضوح تام دون أن ينسب الفضل إليه[1] . وبلاغة الاستعارة التي تتمثل عند بعض الباحثين « في توكيد المعنى ، والباسه ثوب المبالغة مع ابرازه في صورة محسوسة ، ثم التعبير عنه بألفاظ موجزة[2]. هذه العناصر الثلاثة التي تتميز بها الاستعارة عن الحقيقة قد ذكرها الرماني . اقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ وتعقيبه عليها بقوله : « عريض ها هنا مستعار ، وحقيقته كبير ، والاستعارة فيه أبلغ ، لأنه أظهر بوقوع الحاسة عليه ، وليس كذلك كل كثرة »[3] ففي هذا التعبير تأكيد للمعنى ، وإبـرازه في صورة المحسوس . وفي قوله تعالى : ﴿ فَأَنشَرنَا بِهِ بَلدَةً مَّيتاً ﴾ النشر هـا هنا مستعار ، وحقيقته : أظهرنا به النبات والثمار والأشجار فكانت كمن أحييناه بعد إماتته ، فكأنه قيل : أحيينا به بلدة ميتا في قولك أنشر الله الموتى فنشروا . وهذه الاستعارة ابلغ من الحقيقة لتضمنها من المبالغة ما ليس في أظهرنا ، والإظهار في الإحياء والإثبات إلا أنه في الاحياء أبلغ »[4] أما اشتمال

(١) أنظر من بلاغة القرآن أحمد بدوي ص ٢١٧ - ٢٢٢ .
(٢) البلاغة التطبيقية ٢٦٨ .
(٣) النكت ٨٣ ، فصلت آية ٥١.
(٤) النكت ٨٢ الزخرف آية ١١ .

الاستعـارة على الايجاز فيتضـح في تعقيب الرمـاني على قولـه تعالى : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيرَ ذَاتِ الشَّوكَةِ تَكُونُ لَكُم ﴾[1] اللفظ ها هنـا بالشـوكة مستعار ، وهو أبلغ ، وحقيقته السلاح ، فذكر الحد الذي به تقع المخافة ، واعتمد على الايحاء إلى النكتة ، وإذا كان السلاح يشتمل على ما له حد وما ليس له حد ، فشوكة السلاح هي التي تبقى[2] فعبر هنا بلفظ الشوكة لتشمل كل أنواع السلاح ، ما له شوكة ، وما ليس له شوكة ، وهذا نهاية الايجاز وغاية الاختصار . ويتضح التأكيد في الاستعارة في قوله تعالى : ﴿ فَمَا زَالَت تِلكَ دَعواهُم حَتَّى جَعَلنَاهُم حَصِيداً خَامِـدِينَ ﴾[3] أصل الخمـود للنار ، وحقيقته هادئين والاستعارة أبلغ ، لأن خمود النار أقوى في الدلالة على الهلاك على حد قولهم « طفىء فلان كما يطفأ السراج »[4] فالتعبير بلفظ الخمود تأكيد للهلاك لا يتوافر في اللفظ الحقيقي . وعلى هذا النمط يمضي الرماني في جميع الأمثلة ، مصوراً بلاغة الاستعارة ، وأصلاً إلى أغوارها ، كاشفاً عن جمالها ، وتفردها عن الحقيقة بزيـادة بيان ، وإبـراز صورتهـا المحسوسة التي تحيط الحواس بأبعادها وأعماقها ، ومن ثم يحق لنا أن نقول إن الرماني كان أول من عالج الاستعارة بتلك الطريقة التي توخى فيها بيان أثرها في النفس ، وانفعال الوجدان بها ، وتحرك الشعور لها ، وهي طريقة لم تكن مألوفة عند أحد من السابقين ، كالجاحظ ، وابن قتيبة ، وثعلب ، وابن المعتز كما لم يألفها أحد من المتأخرين عن الرماني ـ إذا استثنينا الامام عبد القاهر ـ كابن رشيق وابن سنان ، والرازي ، وابن أبي الاصبع ، والسكاكي ، وأصحاب الشروح . حتى في عصرنا الحديث عالج الدارسون الاستعارة

---

(١) الأنفال آية ٧.
(٢) الأنبياء آية ١٥ .
(٣) النكت ٨٢ الأنفال آية ٨.
(٤) النكت ٨٥ الأنبياء آية ١٢ .

باحدى طريقتين : إما بطريقة مخالفة تماماً لطريقة الرماني احتذوا فيها بيان أركان الاستعارة ونوعها وطريقة اجرائها ، فلم يكن فيها غناء لالتزامها بالجفاف والبعد عن التماس الجمال . وإما بكيفية تتفق مع طريقة الرماني محتفظين بجوهرها ، وأمثلتها ، وبيان أثرها النفسي ، ولكنهم للأسف ملتزمون بالأمثلة الذي ذكرها الرماني فحسب ، فأعادوا آراءه ، بل نسخوها نسخاً ، ثم أغفلوا اسم الرماني ، وأضافوها لأنفسهم ، كأنهم أصحاب الفضل الأول في سلوك هذا السبيل مما يدعو إلى الابتسام حقاً ، وقد سبق أن وضحنا هاتين الطريقتين بما لا مزيد عليه من الأمثلة ، والإشارة إلى المراجع التي تكشف عن صدق قولنا ، وتؤيد وجهة نظرنا .

الاستعارة غير المفيدة

قال الأصمعي : يقال جاء حافياً مشقق الأظلاف ، إذا جاء مشقق القدمين وإنما الأظلاف للشاه والبقر ، كقول الفرزدق :

سأجعل مالي أو سأجعل أمره ... إلى ملك أظـلافـه لم تشقق

ويقال للرجل : إنه غليظ المشافر ، وإنه لغليظ الجحافل ، وإنما المشافر للإبل ، والجحافل لذوات الحوافر . قال الشاعر :

فلو كنت ضبياً عرفت قرابتي ... ولكن زنجيـاً غليظ المشـافـر

ويقال للصبيان توالب وإنما التولب ولد الاتان ، يقول الشاعر :

وذكـرت أهـلي بـالـعــراء ... لحـاجـة الشعث التـوالب(١)

وهذا النوع من الاستعارة غير محمود عند البلاغيين العرب ، فقد جعله قدامه من فاحش الاستعارة(٢) أو هو قبيح لا عذر فيه ، ويعده العسكري من

---

(١) الحروف لابن السكيت ٣٥ - ٣٩ .

(٢) نقد الشعر ١٠٣ .

رديء الاستعارة[1] أما شواهده من الشعر فهي عند ابن طباطبا من الشعر الرديء النسج[2] فهؤلاء البلاغيون يرون في هذا النوع من الاستعارة فحشاً وقبحاً لا جدوى من ورائه ويحسن العدول عنه ، غير أن عبد القاهر الجرجاني له رأي آخر : فقد قسم الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة ثم قال « واعلم أن الاستعارة في الحقيقة هي هذا الضرب (المفيدة) دون الأول (غير المفيدة)[3] وأراد بالاستعارة غير المفيدة التي لا تخرج عن مجرد التوسع اللغوي ، ولا تهدف إلى نكتة بلاغية ، أو مبالغة في تصوير ، كاستعمال كلمة (المرسن) الموضوعة لأنف البعير في أنف المرأة كقول رؤية :

ومقلة وحاجبا مرججا وفاحما ومرسنا مسرجا

وما شابه ذلك ، وإن كان السكاكي لم يسم هذا النوع استعارة ، بل جعله من المجاز المرسل العاري من الفائدة ، لأنه يقوم مقام أحد المترادفين كأسد وليث[4] .

ويرى صاحب أنوار الربيع أن الحكم بأنه من باب الاستعارة أو المجاز المرسل إنما هو تابع لقصد المتكلم وملاحظته ، كالمشفر : اصله شفة البعير السفلى المتدلية فاذا أطلق على شفة الانسان المتدلية ، فان لاحظ المتكلم في اطلاقة المشابه ، فاستعارة مصرحة ، وان لاحظ الاطلاق عن التقييد بكونه شفة بعير فمجاز مرسل[5] .

وليس القصد أن نعرف إذا كان هذا اللون من التعبير يدخل في الاستعارة

---

(١) الصناعتين ٣٠٠ .

(٢) عيار الشعر ١٠٢ . وانظر مقدمة كتاب الحروف لابن السكيت ٢٧ .

(٣) الأسرار ٤٨ .

(٤) المفتاح ١٧٢ ، وانظر بغية الإيضاح ٣/١٠٠ وشروح التلخيص ٤/٤٢ .

(٥) الأنوار ٢١٨ .

أو في المجاز المرسل ، فذلك لا يفيدنا كثيراً ، وإنما القصد أن ندرك الغرض البلاغي من التعبير بهذا الأسلوب. فابن قتيبة لا يفرق بين الاستعارة المفيدة التي تأتي لغرض بلاغي ، والاستعارة غير المفيدة التي هي من باب التوسع اللغوي ، ولا تأتي لفائدة بلاغية ، ويستشهد بأمثلة عديدة تدخل كلها في الاستعارة غير المفيدة إذا طبقنا عليها مقاييس عبد القاهر الجرجاني ، حيث إن ابن قتيبة يطلقها اطلاقاً قاصراً دون أن يلاحظ فيها المبالغة فما درى هو أو غيره « ان هذا النوع من الاستعارة يقصد به المبالغة في كثير من الأحيان ، فاذا قال الفرزدق :

ولكن زنجيـــاً غليظ المشـافـر

فإنما يعني أن شفتيه قد غلظت ، حتى لكأنها مشافر البعير »[٢].

فعندما يطلق ابن قتيبة أعضاء الحيوان على الانسان دون أن يشير إلى أن المراد من هذا الاطلاق هو المبالغة في الذم ، يعطينا الحق في إدراجها في الاستعارة غير المفيدة بمقياس عبد القاهر ، لأنها عندئذ لا تحمل معنى من المعاني ، ولا تهدف إلى غرض بلاغي ، وإنما كان هذا الاطلاق من باب التوسع اللغوي ، ويبدو أن كثيراً من العلماء ومنهم ابن قتيبة كانوا لا يرون في هذه الأمثلة غير مجرد نقل اللفظ من شيء إلى شيء آخر دون قصد إلى المبالغة في الذم فنرى عبد القاهر يبذل جهداً كبيراً[٣] ليؤكد لنا أن هذا الكلام يصدر عن العرب في مواضع الذم حين يريدون المبالغـة في الهجاء أو التهكم ، فتدخل حينئذ في الاستعارة المفيـدة ، لأنها أفـادت معنى من المعاني ، فالمعول عليه في وصف الاستعارة بأنها مفيدة أو غير مفيدة ـ عند

---

(١) المشكل ١١٦ ، ١١٧ .

(٢) مقدمة كتاب الحروف ٢٧ . والنقد الأدبي ٢٤٣ د. غنيمي .

(٣) الأسرار ٤١ ـ ٤٨ .

عبد القاهر ـ هو ما تحمله من مبالغة في الأولى ، وما تتجرد عنه من المبالغة في الثانية .

الاستعارة الأصلية والتبعية

إذا كان اللفظ المستعار اسماً جامداً ، فهي استعارة أصلية سواء كان الاسم لذات كأسد وبدر وبحر ، أم الاسم لمعنى كالقيام والقعود والنوم .

وإذا كان اللفظ المستعار فعلاً أو اسماً مشتقاً أو حرفاً فهي تبعية . فالأصلية ما كان التجوز فيها بطريق الأصالة .

والتبعية : ما كان التجوز فيها بطريق التبع(١) .

فاذا قلت مثلاً رأيت بحراً ينفق باليمين وباليسار ، فانك تستعير كلمة البحر نفسها للرجل الكريم ، دون أن تتوسط لفظة أخرى لإجراء هذه الاستعارة ، فالتجوز هنا في أصل الكلمة .

أما إذا قلت زيد قتل عمراً ، أو زيد قاتل بكراً ، بمعنى ضربه ضرباً شديداً فانك لا تستعير الفعل أو الاسم المشتق ـ اسم الفاعل ـ مباشرة للضرب الشديد ، وإنما تتوسل إلى ذلك باستعارة المصدر أولاً ، فتستعير القتل للضرب الشديد ثم بعد ذلك تستعير الفعل أو الاسم المشتق ، فكأن الاستعارة في الفعل والمشتقات تابعة لاستعارة المصدر ، ومن ثم سميت الاستعارة فيها تبعية .

وبالنسبة للحروف ، فلكل حرف معناه الحقيقي المحدد ، ففي تستعمل للظرفية . كالماء في الكوب ، وعلى للاستعلاء : كالكتاب على المنضدة واللام للتعليل : كذاكرت لأنجح ، وهلم جراً . . . فاذا استعمل حرف من هذه

---

(١) الشروح ١٠٨/٤ .

الحروف في غير معناه الحقيقي كان مجازاً (استعارة) مثل : محمد في نعمة ورفاهية ، فمن المستحيل أن تكون في هنا مستعملة في معناها الحقيقي ، أي : في الظرفية . إذ لا نتصور أن محمداً في النعمة وداخلها ، كما أن محمداً في الدار وداخله ، وانما هو استعمال مجازي يفيد أن محمداً يرفل في النعيم ويستمتع به ، فلفظ في هنا مستعمل في غير معناه الحقيقي : وهو الظرفية ، ليس مطلق الظرفية ، وإنما ظرفية جزئية مقيدة بالنعمة ، فالحروف لا يفهم معناها الحقيقي أو المجازي إلا إذا تعلقت بغيرها ، « فمعاني الحروف تابعة لمتعلق معانيها ، إذ معاني الحروف جزئية لا تتصور الاستعارة فيها إلا بواسطة كلي مستقل بالمفهومية ليتأتى كونها مشبهاً ومشبهاً به »[١] .

فالحروف معانيها جزئية ، والاستعارة في الحروف تجري في المعنى الكلي أولاً ، ثم تجري في المعنى الجزئي ثانياً ، فاجراؤها في المعنى الجزئي تابع لإجرائها في المعنى الكلي ، ومن ثم سميت تبعية .

ومن الاستعارة الأصلية قوله تعالى :

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾[٢] أي : تخرج الناس بدعوتك إياهم اتباع ما جاء في الكتاب من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الايمان والعلم ، وفي جمع الظلمات إشارة إلى أن طرق الكفر متشعبة وكثيرة ، وأفرد النور ، لأن طريق الإيمان واحد مستقيم ، وكل ما جاء في القرآن من ذكر الظلمات إلى النور فهو مستعار ، وحقيقته من الجهل إلى العلم ، والاستعارة أبلغ ، لاخراجه المعقول إلى المحسوس المدرك بالأبصار ، والظلمات والنور من الاسماء الجامدة .

وقوله تعالى حكاية عن النبي لوط في حوار مع قومه :

---

(١) الجواهر ٣١٣ .

(٢) سورة ابراهيم آية ١ .

﴿ قَالَ لَو أَنَّ لِي بِكُم قُوَّةً أَو آوِي إِلَىٰ رُكنٍ شَدِيدٍ ﴾[1] .

أي : ألجأ إلى عشيرة قوية تمنعني منكم ، لأنه كان غريباً فيهم . وهو حقيقة في أركان البناء التي يعتمد عليها البناء ، ثم يتجوز به عن العشيرة المعتمد عليها في النصرة والمؤازرة ، تشبيهاً للاعتماد عليها باعتماد البناء على الأركان . واستعارة الركن للمعين أبلغ ، لأن الركن مرئي وملموس في اعتماد البناء عليه ، بخلاف المعين فهو لا يحس من حيث هو معين . والركن هنا مصدر ، أي : اسم جامد غير مشتق ، فالاستعارة هنا أصلية .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِيْنَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ ﴾[2] .

أي : الذين يمنعون الناس عن طريق الهداية ، ويميلون عن الحق ، مآلهم جهنم لكفرهم فحقيقة المعوج : الخطأ ، والاستعارة ابلغ ، لأن الاعوجاج والعدول عن الاستقامة شيء مرئي محسوس ، وما يقع عليه الحس أقوى أثراً وتأكيداً مما لم يقع عليه الحس . والعوج اسم جامد غير مشتق فيدخل في الاستعارة الأصلية .

وقوله تعالى في وصف جهنم : ﴿ ذِا أُلقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيظِ * كُلَّمَآ أُلقِيَ فِيهَا فَوجٌ سَأَلَهُم خَزَنَتُها أَلَم يَأتِكُم نَذِيرٌ ؟ ﴾[3] أي : يسمع الكفار لها صوتاً منكراً عند إلقائهم فيها كصوت الحمير ، والنيران المشبوبة تهيج وتغلي حتى تكاد تتقطع من شدة الغضب عليهم ، وحقيقة الغيظ شدة الغليان ، والاستعارة أبلغ من الحقيقة ، لأن

---

(١) سورة هود آية ٨٠.
(٢) سورة الاعزاف آية ٤٥ .
(٣) سورة الملك آية ٦ ـ ٨.

مقدار شدة الغيظ على النفس محسوس مما يدعو إلى شدة الانتقام ، وفي ذلك أعظم الزجر ، وأكبر الوعظ .

والغيظ اسم جامد غير مشتق ، فالاستعارة أصلية .

والاستعارة التبعية

تكون في الفعل الماضي سواء أكان مبنياً للمعلوم أم المجهول .

فالمعلوم كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَىٰ المَاءُ حَمَلْنَاكُم فِي الجَارِيَةِ ﴾(١).

حقيقة طغى : علا ، لأن طغى : علا في شيء من القهر ، وفيه مبالغة لا نجدها في علا(٤) وقوله تعالى : ﴿ والصُّبحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾(٢).

الصبح يتنفس فتتنفس معه الحياة الوديعة الهادئة ، ويدب النشاط في الاحياء وحقيقة التنفس هنا بدء الانتشار والتنفس أبلغ ، لما فيه حق الترويح عن النفس .

والفعل المبني للمجهول ، كقوله تعالى :

﴿ أم حَسِبتُم أن تدخُلوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَواْ مِن قَبلِكُم مَّسَّتهُمُ البَأْسَآءُ والضَّرَّاءُ ، وَزُلزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصرُ اللهِ ؟ ﴾(٣) .

ومعنى الزلزلة هنا الازعاج ، بل لفظ الزلزلة هنا لا يقوم لفظ آخر غيره بالتعبير عما أصابهم من هول ، ولا شك أن استعارة الزلزلة هنا أبلغ من التعبير بلفظ الازعاج على الحقيقة .

---

(١) سورة الحاقة آية ١١ .

(٢) النكت ٨٠، البرهان ٣/ ٤٣٩.

(٣) سورة التكوير آية ١٨ .

(٤) سورة البقرة آية ٢١٤ .

وقوله تعالى : ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أنفُسِهِم فَقَالُوا إِنَّكُم أَنتُمُ الظَّالِمونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِم لَقَد عِلِمتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾[1].

أي : عادوا إلى ما كانوا عليه من الجدال بالباطل بعد اعترافهم بظلم أنفسهم ، لعبادتهم ما لا يدفع عنهم ضراً ولا يجلب لهم نفعاً ، وحقيقة نكسوا : أطرقوا للمذلة بعد إفحامهم بالحجة ، إلا أن لفظة نكسوا فيها من المبالغة بجعلهم كمن ينقلب على رأسه من شدة الحيرة ما لا نجده في أطرقوا .

وتأتي التبعية في الفعل المضارع .

كقوله تعالى : ﴿ سَنَفرُغُ لَكُم أَيُّها الثَقَلَانِ ﴾[2] .

وحقيقة سنفرغ : سنعمد ، إلا أن سنفرغ أبلغ ، لأن الذي يتفرغ للشيء لا يشغله عنه شيء آخر ، بخلاف من يعمد إلى شيء ، فربما ينشغل عنه بغيره فيقصر في أدائه ، وهذا أبلغ في الزجر ، والوعيد بالحساب والجزاء على ما قدم الإنس والجن من الأعمال . وقول الشاعر الشابي في قصيدته النبي المجهول :

إني ذاهب إلى الغاب ، عليِّ   في صميم الغابات أدفن بؤسي

وحقيقة أدفن : أنسى، إلا أن الدفن هنا أشد مبالغة في نسيان البؤس ومحوه من الوجود .

وفعل الأمر

كقوله تعالى : ﴿ فَاصدَع بِمَا تُؤمَرُ وَاعرِضْ عَنِ المُشرِكِينَ ﴾[3].

---

(١) سورة الانبياء آية ٦٤ـ ٦٥.

(٢) سورة الرحمن آية ٣١ .

(٣) سورة الحجر آية ٩٤.

وحقيقته بلغ ما تؤمر به ، والتبليغ قد لا يكون له تأثير ، بخلاف الصدع فلا بد له من تأثير كتأثير صدع الزجاجة ، لذا كان التعبير بالصدع أبلغ .

وقوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] .

فاستعمال البشارة هنا مجازي قصد به التهكم ، فالمعنى أنذرهم بعذاب أليم ، لأن العذاب لا يبشر به ، فاستعار التبشير للانذار بعد أن نزل التضاد منزلة التناسب تهكماً ، لذا كان التعبير بلفظ بشرهم أبلغ ، لأنه أشد لذعاً وإيلاماً من لفظ أنذرهم الحقيقي .

والاستعارة في الأفعال كلها تبعية ، لأن اجراءها في الفعل تابع لإجرائها في المصدر ، فنحن لا نستعير الفعل (فاصدع لبلغ) إلا بعد أن نستعير المصدر (الصدع للتبليغ) فالاستعارة في الفعل تجري تبعاً للمصدر ، وهكذا في بقية الأمثلة .

والاستعارة في الاسماء المشتقة :

اسم الفاعل : كقوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهلِكُوا بِرِيحٍ صَرصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾[2] .

هلكت ثمود بالضجة العالية والزلازل التي تجاوزت الحد ، وهلكت عاد بالريح الشديدة التي تجاوزت الحد في الشدة ، فلم يصمدوا لها على قوتهم وشدتهم ، فعاتية حقيقتها شديدة ، ولكن العتو أبلغ ، لأن فيه التمرد بالاضافة إلى الشدة ، والطاغية حقيقتها عالية ، والتعبير بالطاغية أبلغ ، لما فيها من القهر والغلبة .

---

(١) سورة آل عمران آية ٢١ .

(٢) سورة الحاقة آية ٥ ـ ٦ .

واسم المفعول : كقوله تعالى :

﴿ وَلَا تجعَل يَدَكَ مَغلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبسُطهَا كُلَّ البَسطِ ﴾[1] .

في الآية حث على الاعتدال والتوسط في انفاق المال ، فلا نقبض أيدينا عن الانفاق في سبل الخير ولا نبسطها فيما يعود علينا بالتلف والضرر .

وحقيقته ، لا تمنع ما تملكه كل المنع ، والاستعارة أبلغ ، لأنه جعل المنع بمنزلة غل اليدين إلى العنق ، وصورة القيود والاغلال أوضح وأبرز .

الصفة المشبهة

في قوله تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إذ أَرسَلنَا عَلَيهِمُ الرِيحَ العَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيءٍ أَتَت عَلَيهِ إِلَّا جَعَلَتهُ كَالرَّمِيمِ ﴾[2] .

أي : الريح الشديدة المهلكة التي لا خير فيها ، فلا تسقط مطراً ولا تلقح شجراً ، فأهلكتهم وقطعت نسلهم فأصبحت تشبه المرأة التي انقطع نسلها فلا تنجب ، ولا تمر بشيء إلا هشمته وفتتته فاستعار عقم المرأة التي لا تلد للريح التي لا تسقط مطراً ، ولا تلقح شجراً ، ولا شك أن عدم التوالد والإنجاب في عقم المرأة أظهر وأكثر تأكيداً منه في الريح التي لا تأتي بمطر .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِريَةٍ مِنهُ حَتَّى تَأتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغتَةً أَو يَأتِيَهُم عَذَابُ يَومٍ عَقِيمٍ ﴾[3] .

أي لا يزال الكافرون في شك من وقوع العذاب واليوم الآخر حتى تفجأهم الساعة . أو العذاب المهلك الشديد ، فاستعار العقم الذي لا ينتج

---

(١) سورة الاسراء آية ٢٩ .

(٢) سورة الذاريات آية ٤١ ـ ٤٢ .

(٣) سورة الحج آية ٥٥ .

خيراً لشدة العذاب الذي لا خير بعده للمعذبين .

وقوله : ﴿ إِذَآ أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ ﴾[1] .

أي : سمعوا لها صوتاً فظيعاً كشهيق الباكي أو منكراً كصوت الحمير ، واستعارة الشهيق لهذاالصوت أبلغ وأوجز ، والمعنى المشترك بينهما قبح الصوت .

ومن الاستعارة في الصفة المشبهة قوله تعالى :

﴿ قَالُوا يَا شُعَيبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّترُكَ مَا يَعبُدُ آباؤنَا أَو أَن نَّفعَلَ فِي أَموَالِنَا مَا نَشَاءُ * إِنَّكَ لَأَنتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾[2] .

كانوا يسخرون من شعيب عليه السلام لدوامه على الصلاة ، يستهزئون منه ، ويتضاحكون عليه إذا طلب منهم أن يوفوا الكيل بالقسط ، وقالوا إنك لأنت الحليم الرشيد بدلاً من قولهم السفيه الغوي سخرية منه وهزءاً به ، فاستعار الحليم الرشيد للسفيه الغوي ، بعد أن جعلوا التضاد بين الوصفين بمنزلة التناسب زيادة في تقريعة والنيل منه[3] .

اسم المكان

مثل قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا وَيلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحمَنُ وَصَدَقَ المُرسَلُونَ ﴾[4] .

---

(١) سورة الملك آية ٧.

(٢) سورة هود آية ٨٧.

(٣) الصفة المشبهة تجري الاستعارة أولاً في المصدر ، ثم نجريها بعد ذلك في الصفة : ففي قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ استعار أولاً الحلم والرشاد للسفاهة والغواية بعد تنزيل التضاد منزلة التناسب للتهكم والسخرية ، ثم تتبعه باستعارة الصفة . الحليم الرشيد للسفيه الغوي فاجراء الاستعارة في الصفة تابع لاجرائها في المصدر ، وهكذا في جميع المشتقات .

(٤) سورة يٓس آية ٥٢.

حقيقة الرقاد النوم ، وأراد به الموت ، أي من بعثنا من موتنا ، والاستعارة أبلغ ، لأن النوم أظهر من الموت ، والاستيقاظ من النوم أظهر من الاحياء من الموت ، نظراً لتكرر النوم واليقظة على الانسان كل يوم ، وليس الأمر كذلك بالنسبة للموت والحياة(١) .

ومثله اسم الزمان ، واسم التفضيل ، واسم الآلة ، فاجراء الاستعارة فيها تابع لإجرائها في المصدر(٢) .

الاستعارة في الحروف

كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٤) .

على في حقيقتها تفيد الاستعلاء ، وهو غير مقصود في الآية ، إذ الرسول عليه السلام لا يستعلي فوق الخلق العظيم ويمتطيه ، وإنما هو على المجاز والاستعارة أراد به تمكن الرسول عليه السلام من الخلق العظيم والسجايا الشريفة .

---

(١) أنظر النكت ٨٥.
واجراء الاستعارة في المصدر أولاً ، ثم في اسم المكان ثانياً ، فتستعير الرقاد للموت ثم نتبعه باستعارة المرقد لمكان الموت .

(٢) مثال اسم الزمان : هذا مقتل زيد مشيراً إلى زمان ضربه .
ومثال اسم التفضيل : هذا أقتل لعبيده من أخيه ، أي : أشد ضرباً لهم منه .
ومثال اسم الآلة : هذا مفتاح الملك أي : وزير الملك .
استعار الفتح للوزارة بجامع التوسل الى المقصود في كل ، ثم اشتق من الفتح مفتاح بمعنى وزير ، وواضح من الأمثلة أن اجرائها في المشتق تابع لاجرائها في المصدر . أنظر جواهر البلاغة هامش ٣١١.

(٣) سورة القلم آية ٤ .

(٤) شبه مطلق تمكن الرسول من الأخلاق الحميدة بمطلق تمكن الشيء المستعلي من المستعلى عليه بجامع التمكن ، ثم سرى التشبيه من الكلي إلى الجزئي ، وهو معنى الحرف ، ثم استعير على من الاستعلاء الحسي وهو الامتطاء للاستعلاء المعنوي وهو التمكن .

ومثله قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1][2].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[3].

فالرسول عليه السلام والمؤمنون على الهداية، بينما الكافرون والمجادلون في الضلال، فاستعمل (على، وفي) على مع الهداية، وفي مع الضلال، فصاحب الحق لظهور حجته وقوة إيمانه وتمكنه من دينه كأنه مستعل ظهر جواد يصرفه كيف يشاء، لذا عبر بلفظ (على) الدال على الاستعلاء. أما صاحب الباطل، فهو لمكابرته وفشله وتخبطه كأنه منغمس في ظلمة ليس فيها بصيص من نور، لذا عبر بلفظ (في) التي تدل على الظرفية والانغماس في الشيء.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ * وَالْغَارِمِينَ * وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ * وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾[4].

ذكر الله سبحانه ثمانية أنواع تصرف فيهم الصدقات، فهم أهل لها، ومستحقون لصرفها، فاللام في قوله للفقراء تدل على الملكية وأهلية الاستحقاق، في الانماط الأربعة الأولى، ولكنه استعمل (في) الدالة على الظرفية للأنماط الأربعة الاخيرة، لبيان أنهم أرسخ قدماً في استحقاقهم

---

(١) سورة البقرة آية ٥.

(٢) شبه مطلق ارتباط بين مهدي وهدى بمطلق ارتباط بين مستعل ومستعل عليه بجامع الارتباط، ثم سرى التشبيه من الكلي إلى الجزئي، ثم استعير على من معناها الحقيقي المحسوس الى معناها المجازي المقصود.

(٣) سورة سبأ آية ٢٤.

(٤) سورة التوبة آية ٦٠.

للصدقات ، فالصدقات ينبغي أن توضع فيهم كما يوضع الشيء في الوعاء فيحتويه من كل مكان . فلفظ (في) هنا مستعمل في غير حقيقته ، إذ أن الرقاب وما يليها ليست ظرفاً حقيقياً للصدقة . ولفظ في لمعناه الظرفي أكثر تأكيداً للمعنى من لفظ (على) الذي يدل على الاستعلاء (فعلى) تدل على الاستعلاء مع شيء من التمكن والاستقرار ، بخلاف (في) فانه يدل على شدة التمكن والاستقرار فضلاً على الاستعلاء . انظر إلى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَد كَرَّمنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلنَاهُم فِي البَرِّ وَالبَحرِ ﴾[1] .

حقيقة الكلام حملناهم على البر والبحر ولكنه عبر بفي بدلاً من على (إيذاناً بأن حرف الوعاء امكن من حرف الاستعلاء ، لأن على تشعر بالاستعلاء لا غير ، من غير تمكن واستقرار ، وفي تشعر ههنا بالاستقرار والتمكن ، ومن حق ما يكون مستقراً فيه متمكناً ، أن يكون مستعلياً له ، فلما كانت (في) تؤذن بالمعنيين جميعاً ، آثرها وعدل إليها ، وأعرض عن (على) دلالة على المبالغة »[2] .

وتقول : « ركبت في الخيل ، أي : عليها »[3] .

فلفظ في (معناه الظرف أو الوعاء ، تقول المال في الكيس ، واللص في السجن ، أي اشتمل الكيس على المال ، والسجن على اللص ، وقد يتسع فيها ذلك نحو قولك : فلان ينظر في العلم ، كأن العلم قد اشتمل عليه .

وزعم الكوفيون أنها تكون بمعنى على في قوله تعالى :

---

(١) سورة الاسراء آية ٧٠.

(٢) الطراز ٢/٥٥.

(٣) شبه مطلق استعلاء شيء على شيء ، بمطلق ظرفية شيء لشيء . وسرى التشبيه إلى الجزئيات ، واستعير لفظ في من جزئي من جزئيات المشبه به لجزئي من جزئيات المشبه .

﴿ لأصلبنكم في جذوع النخل ﴾[1][2] .

أي : على جذوع النخل ، فلفظ في مستعمل في غير حقيقته مجازاً ، ولكن بعض العلماء يرى أنه في الآية مستعمل في حقيقته (لأن على للاستعلاء ، والمصلوب لا يجعل على رءوس النخل ، وإنما يصلب في وسطها ، فكانت (في) احسن من (على)[3]

والأمثلة القرآنية التي استعمل فيها الحرف استعمالاً مجازياً كثيرة في القرآن .

كقوله تعالى : ﴿ بَل قُلُوبُهُم فِي غَمرَةٍ مِن هَذا ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَد كُنتَ فِي غَفلَةٍ مِن هَذَا ﴾[5] .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ المَلأ مِن قَومِهِ إنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[6] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإنَّهُم لَفِي شَكٍّ مِنهُ قَرِيب ﴾[7] .

وقوله تعالى : ﴿ وَارتَابَت قُلُوبُهُم فَهُم فِي رَيبِهِم يَتَرَدَّدُونَ ﴾[8] .

وقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرهُم فِي خَوضِهِم يَلعَبُونَ ﴾[9] .

شبههم بمن أحاط به شيء لا يقدر على الخروج منه ، أو شبه عظمة

---

١) سورة طه ، آية ٧١.

٢) كتاب معاني الحروف للرماني ٩٦ ط نهضة مصر .

(٣) البرهان ٤/١٧٦ . ٢ .

(٤) سورة المؤمنون آية ٦٣ .

(٥) سورة ق آية ٢٢ .

(٦) سورة الاعراف آية ٦٠ .

(٧) (اسناد خاطىء) .

(٨) سورة التوبة آية ٤٥ .

(٩) سورة الانعام آية ٩١ .

ذلك الشيء وإفراطهم فيه ، بالظرف الحاوي لمظروفه ، لأن الظرف أعظم مما حل فيه[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أفوَاجاً ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُدخِلَ اللهُ فِي رَحمَتِهِ مَن يَشَآءُ ﴾[3] .

أي : في دينه وملته ، وكذلك قولهم : دخل في الصلاة والصوم ، وهذا من مجاز التشبيه ، شبهت هذه الأشياء بمكان جثماني دخلت فيه الأجسام ، ولهذا يعبر بما يتصف به الانسان من المعاني بأنه مكانه ومكانته »[4] .

وقوله تعالى : ﴿ ألاَ فِي الفِتنَةِ سَقَطُوا ﴾[5] .

شبه اقتراف الذنوب بالتردي في مهواة مهلكة .

الاستعارة التصريحية

هي التي صرح فيها بلفظ المشبه به دون المشبه .

ففي قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِيْنَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُورِ وَالَّذِيْنَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِنَ النُّورِ إِلَىٰ الظُّلُمَاتِ ﴾[6] .

الطاغوت : كل ما يعبد من دون الله كالأصنام والأوثان ، لأنه يطغى على الانسان فيغلو في الكفر والمعاصي ، استعار الظلمات للكفر ، والنور

(١) الاشارة الى الايجاز ١٢٣ ، ٢٣ .
(٢) سورة النصر آية ٢ .
(٣) سورة الفتح آية ٢٥ .
(٤) الاشارة الى الايجاز ١٣٠ .
(٥) سورة التوبة آية ٤٩ .
(٦) سورة البقرة آية ٢٥٧ .

للايمان ، والمعنى المشترك بين الظلام والكفر هو الضلال ، وبين النور والإيمان هو الهداية ، فصرح بلفظ المشبه به ، وحذف المشبه .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَكفُر بِالطَاغُوتِ وَيُؤمِن بِاللهِ فَقَدِ استَمسَكَ بِالعُروَةِ الوُثقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾(١) .

أي : ثبت على أمره واستقام على الايمان ، فشبه الايمان الخالص بالعروة الوثقى في نجاة من يستمسك به ، وصرح بالمشبه به دون المشبه .

(ففي المثال الأول يستحيل الهدى والضلال نوراً وظلمة ، ثم تبدأ عملية الاخراج المتخيلة وما فيها من حركة ، وفي المثال الثاني يصبح الإيمان عروة ثم تبدأ الحركة المتخيلة في الاستمساك بها ، فتؤدي هذه الصورة المجسمة المتحركة إلى تمثل أوضح وأرسخ للمعنى الخيالي المجرد)(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَد مَكَرُوا مَكرَهُم وَعِندَ اللهِ مَكرُهُم وَإن كَانَ مَكرُهُم لِتَزُولَ مِنهُ الجِبَالُ ﴾(٣) .

والمعنى ما كان خداعهم وتكذيبهم لتزول منه هذه الأمور المستقرة الثابتة التي هي كالجبال في الرسوخ والاستقرار ، فاستعار الجبال لما أتى به الرسول عليه السلام من المعجزات والبراهين الدّالة على صدق رسالته . فصرح بلفظ المشبه به وحذف المشبه .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦ .

(٢) التصوير الفني ٧٢ سيد قطب .

اجراء الاستعارة في المثال الأول أنه شبه الكفر بالظلمات بجامع الضلال في كل ، وحذف المشبه واستعار المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية ، لأنه صرح بلفظ المشبه به ، الأصلية ، لأن المشبه به اسم جامد .

وشبه الايمان بالنور بجامع الهداية في كل ، ثم حذف المشبه واستعار المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

(٣) سورة ابراهيم آية ٤٦ .

وقوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُم الغَاوُونَ * أَلَم تَرَ أَنَّهُم فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾(١) .

أي : شعراء الكفار الذين يهجون الرسول عليه السلام عدواناً وظلماً ومن كان على شاكلتهم ممن يخوضون في الباطل فيمزقون الأعراض وينشرون المثالب فيقتدى بهم غواة الناس ويروون اشعارهم وينشرون ما فيها من مثالب (فاستعار الأودية للمقاصد الشعرية التي يلخصونها بأفئدتهم ، ويصوغونها بأفكارهم وخص الاستعارة بالأودية دون الطرق والمسالك ، لأن المعاني الشعرية تستخرج بالفكرة والروية ، وفيها خفاء وغموض ، فلهذا كانت الأودية أليق بالاستعارة(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَت بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصحَابُ النَّارِ هُم فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(٣) .

من يقترف الذنوب ويرتكب الآثام يعتاد عليها ، ولا يستطيع التخلص منها ، فكأن الخطايا قد أحاطت به من كل اتجاه فيعجز عن النفاذ منها ، والكف عنها ، فشبه المبالغة في اقتراف الذنوب بالشيء يحيط بالشيء ، والصفة المشتركة بينهما عدم التخلص في كل منهما « وهذا أبلغ استعارة ، وذلك أن الانسان إذا ارتكب ذنباً واستمر عليه ، دفعه إلى اتيان ما هو أعظم منه ، فلا يزال يرتقي حتى يطبع على قلبه ، فلا يمكنه أن يخرج عن تعاطيه »(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ قُل لَا يستوي الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَو أعجَبَكَ كَثرَةُ الخَبِيثِ

---

(١) سورة الشعراء آية ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .
(٢) الطراز ١/٢١٤ .
(٣) سورة البقرة آية ٨١.
(٤) بصائر ذوي التمييز ٢/١٢٦ .

فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ ﴾[1].

أي لا يستوي الحلال والحرام ، فشبه الحلال بالطيب في حلاوته وتقبل النفس له ترغيباً فيه ، وشبه الحرام بالخبيث في كراهيته وعزوف النفس عنه تنفيراً منه .

وقوله تعالى : ﴿ قَد خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ اللهِ حَتَّىٰ إِذَا جَآءَتهُمُ السَّاعَةُ بَغتَةً قَالُوا يَا حَسرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطنَـا فِيهَا * وَهُم يَحمِلُونَ أَوزَارَهُم عَلَىٰ ظُهُورِهِم أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[2] .

يحملون آثامهم وذنوبهم لكثرتها وثقلها على ظهورهم ، وهذا أبلغ في بيان شدة عذابهم والأهوال التي يلاقونها بسبب ذنوبهم ، فالشيء الثقيل قد يحمل باليد ، فان أفرط ثقله حمل على الكتف ، فان أفرط ثقله حمل على الظهر ، فشبه شدة مشقة العذاب بأثقل الأشياء المحمولة على الظهور لتعذر حملها على الاكتاف والأيدي .

والأوزار : الأثقال ، فشبه أيضاً الذنوب بالأثقال في مشقة حملها ، ففي الآية استعارتان الأولى حين استعار الحمل على الظهور الذي لا يكون إلا للثقيل من الاشياء ، للعذاب الشاق الشديد ، والثانية حين استعار الأوزار للذنوب ، وصرح بلفظ المشبه به فيها دون المشبه .

وقوله تعالى : ﴿ وَاحلُل عُقدَةً مِن لِسَاني * يَفقَهُوا قَولِي ﴾[3] .

أي : أزل ما أصابني من عيب في لساني حتى أبين في الكلام ، فيفهموا عني ما أود تبليغه لهم . فشبه الإزالة بالحل أولاً ، وشبه عيب اللسان باللثغة

---

(١) سورة المائدة آية ١٠٠ .

(٢) سورة الانعام آية ٣١.

(٣) سورة طه آية ٢٧ ـ ٢٨ .

بعيب الحبل بما يعقد فيه من العقد التي لا حاجة إليها ثانياً ، فمعنا استعارتان استعارة الحل للازالة ، واستعارة العقدة للعيب ، وفي كل منهما صرح بلفظ المشبه به دون المشبه .

وقوله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام :

﴿ وَتَوَلَّى عَنهُم وَقَالَ يَا أَسَفَي عَلَىٰ يُوسُفَ وَابيَضَّتْ عَينَاهُ مِنَ الحُزنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[1] .

امتلأ قلبه بالحزن ، فتذرع بالصبر ، دون أن يفضي بحزنه لأحد فيتخفف مما يثقل قلبه (فشبه امتلاء قلبه بالحزن على يوسف بامتلاء القربة بالماء ، وشبهه في صبره وتركه الشكوى إلى غير الله برابط ربط على فم القربة الملىء بالماء حتى لا يخرج منها شيء[2] .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَّنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾[3] .

والمعنى أن القرآن يستنكر على هؤلاء المنافقين أن يظنوا ما يضمرونه من ضغائن وأحقاد للرسول عليه السلام والمؤمنين ـ هذه الأحقاد التي تموج بها صدورهم ـ ستظل خفية مستورة لا تنكشف لأحد ، فحقيقة المرض هو الفساد الذي يعتري الأجسام فيفضي إلى الهلاك واستعمل هنا في الكفر والنفاق والحقد الذي يفسد القلب ويودي به إلى الهلاك .

فشبه المرض النفسي بالمرض الجسدي ، إذ أن كلًّا منهما يتلف المرء وينغص عليه حياته . وصرح هنا بالمشبه به دون المشبه . والاستعارة أبلغ لأن الامراض الجسدية ظاهرة للعين بادية الأثر .

---

(١) سورة يوسف آية ٨٤.
(٢) الإشارة إلى الايجاز ٩٥.
(٣) سورة محمد آية ٢٩ .

وقوله تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا * قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1] .

والمعنى : ان الله قادر على أن يدخل الرحمة واللين على القلوب بعد قسوتها وغلظتها ، كقدرته على إحياء الأرض بعد موتها ، وموت الأرض واحياؤها ليس حقيقة ، إذ لا روح فيها حتى يجري عليها الموت والحياة ، وإنما المراد أن تتحول الأرض القاحلة الجرداء إلى أرض مزدهرة بأنواع النبات ، فشبه يبس الأرض وجفافها ، بالموت ، وشبه ازدهار النبات فيها بالحياة ، وصرح بلفظ المشبه به دون المشبه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا * وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُّم عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَلَكُم عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[٣] .

أي : لا تتخذوا أيمانكم وسيلة للغدر والخيانة والإفساد ، فان من يقترف هذا الإثم شأنه شأن من يقف راسخاً بقدم ثابتة على أرض مطمئنة ، فاذا بقدمه تزل ، ويصيبه العثار ، والمراد أن يشبه من ينحرف عن الدين القويم ، وينأى عن حجة الإسلام ، بمن زلت قدمه عن طريقه ، وسقط خارجاً عنها ، وصرح هنا بلفظ المشبه به دون المشبه .

وقوله تعالى :﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوارَىٰ مِنَ القَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ * أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[٣] .

كان العرب في الجاهلية إذا بشر أحدهم بالأنثى اسود وجهه ألماً وغماً ، وامتلأ غيظاً وهماً ، وتوارى عن أنظار عشيرته ، فلا يدري أيبقى الوليد على

---

(١) سورة الحديد آية ١٧ .

(٢) سورة النحل آية ٩٤.

(٣) سورة النحل آية ٥٨ ـ ٥٩ .

هون ومذلة أم يئده في التراب ويدفنه حياً .

فشبه قبح الكآبة ، وقتامة الحزن الذي يعلو وجهه بسواد الوجه ، لاشتراكهما في القبح وبشاعة المنظر ، فصرح بذكر المشبه به وحذف المشبه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِن عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُم * نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِم كَأَنَّهُم لَا يَعْلَمُونَ ﴾(١) .

والمعنى أن اليهود الذين أوتوا التوراة كذبوا القرآن كتاب الله وخالفوه وكفروا بما جاء به ، ونبذ الشيء والقاؤه وراء الظهر دليل على عدم الاهتمام به (لأن ما يجعل ظهريا فقد زال النظر عنه جملة ، والعرب تقول جعل هذا الأمر وراء ظهره ، ودبر أذنه)(٢) إذا لم تعره التفاتاً ، فشبه ترك الالتفات إلى كتاب الله وعدم الاهتمام به واتباعه ، بمن ألقى شيئاً وراء ظهره ، فهو لا يقبل عليه ، ولا يكترث به . فالنبذ في حقيقته طرح الشيء ، واستعمل هنا في عدم الاتباع ليبدو في صورة محسوسة تقع أمام البصر ونتمثل رؤيته في وضوح .

ومثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ * فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِم * وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً * فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾(٣) .

فمن يحتقر الشيء ويزدريه يطرحه بحيث لا يقبل عليه ولا يلتفت إليه ،

---

(١) سورة البقرة آية ١٠١ .

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطيه ٣٦٦/١ تحقيق أحمد الملاح ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

(٣) سورة آل عمران آية ١٨٧ .

فشبه من يترك العمل بكتاب الله استهانة به بمن كان معه شيء محتقر فنبذه والقاه[1] .

وهكذا نرى القرآن في كثير من المواضع يعبر بالصورة الملموسة المحسوسة عن المعنى الذهني أو الحالة النفسية ، فتتوثق صلة القارىء بالمعنى ، وتستقر في ذهنه ، وتؤثر في فؤاده ، وتتجاوب أصداؤها في نفسه ، فيمتلىء بها إحساساً وشعوراً ، ويتيقظ إلى ما فيها من مغزى واضح جلي ، أو خفي مستور .

الاستعارة المكنية والتخييلية

الاستعارة المكنية تتمثل في حذف المشبه به ، وذكر شيء من لوازمه مع ذكر المشبه ، فالاستعارة في لفظ المشبه به المحذوف ، يستعار أولاً ، ثم يحذف ويرمز إليه بشيء من لوازمه ، وإثبات اللازم للمشبه هو ما يسمونه استعارة تخييلية . وإذا أردنا أن نستوضح ذلك ببيت الهذلي المشهور الذي يدور في كتب البلاغة دون استثناء .

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فالضمير المضاف إلى الأظفار العائد على المنية هو المشبه ، والمشبه به هو السبع الذي يغتال قهراً دون تخير ، والذي دلنا على هذا التشبيه لفظة الأظفار التي هي من خصائص السبع ولوازمه ، فالاستعارة المكنية هنا هي السبع لأنه المشبه به ، والاستعارة التخييلية هي الأظفار ، لأنها من لوازم المشبه به .

والسر في تسمية هذا النوع بالاستعارة بالكناية ، أننا أطلقنا لفظ المنية

---

(١) الاشارة الى الايجاز ١٢٥ .

وأردنا به اغتيال السبع ، أي عبرنا بالملزوم وأردنا اللازم ، وهذه هي الكناية ولكن اغتيال السبع لا يوجد في المنية بطريق الحقيقة ، بل عن طريق الادعاء والاستعارة ، فاجتمع فيها معنى الاستعارة ومعنى الكناية ، ومن ثم سميت استعارة مكنية .

(والصولي يعتبر الاستعارة بالكناية أجل استعارة وأحسنها ، وكلام العرب جار عليها)[1] .

---

(١) أخبار أبي تمام ٣٧ .

ملاحظة : الاستعارة المكنية عند الجمهور : هي لفظ المشبه به المحذوف ، المستعار في النفس للمشبه ، المرموز إليه باثبات شيء من لوازمه للمشبه هو الاستعارة التخيلية .

أما عند السكاكي : فهي لفظ المشبه المذكور ، المستعار للمشبه به بادعاء أنه عين المشبه به ، أي من جنسه ، واعترض على هذا التعريف بأن لفظ المشبه مصرح به في الكلام ، فلا وجه لتسميتها مكنية ، بل هي جديرة أن تسمى تصريحية ، كما أنه تعريف متكلف لما فيه من الادعاء والتأويل . فالاستعارة المكنية عنده في لفظ المنية الذي ادعي أنه سبع ومرادف له .

والاستعارة المكنية عند الخطيب : هي التشبيه الذي يلاحظه المتكلم ويضمره في نفسه ، وان لم يصرح بشيء من أركانه سوى المشبه ، المرموز إليه باثبات لازم المشبه به للمشبه . فالاستعارة المكنية عنده في تشبيه المنية بالسبع الذي أضمره في نفسه ، واعترض عليه أيضاً بأن اعتماد التعريف على التشبيه يجعل اطلاق اسم الاستعارة عليها بعيداً عن المناسبة . وبذلك يكون أرجح الآراء هو رأي الجمهور . أنظر شرح المختصر ٩٨/٢ ، النهاية د. عتيبة ٢/٢ ـ ٧، أمالي علي عبد الرازق ١١٦ ، ١١٧ .

رأي حديث : الاستعارة بالكناية لا علاقة لها مباشرة بالسبع والمشابه ، وانما هي العالم الخيالي الذي يعيش فيه الشاعر حين يعطي للمنية والسبع وظيفة جديدة ، فافتراس المنية عنده عنصر آخر متميز من ذلك السبع نفسه ، وهذه الجدة المتخيلة هي مصدر ما في الاستعارة من روعة ، والخيال حين يستعين ببعض العناصر الحسية في الاستعارة ، انما يريد صنع عالم خيالي ثان بديل منها ، مما يجعل الاحساس خصباً ، والفكر متجدداً ، والبلاغة في الاستعارة لا ترجع إلى الصفات الحسية إلا لكونها تعبيراً عن تجربة خيالية مبدعة متذوقة في صميمها ، فالأديب حين يطلق عبارة (اقدام الزمن) انما يريد أن يقرب إلى الأذهان الصورة التي تعيش في عالمه الخيالي ، ويعطينا فكرة جديدة عن الزمن والاقدام تختلف كلية عن الفكرة السائدة في أذهاننا عن كليهما . أنظر الصورة الأدبية ١٣٧ ، ٣٨ اجراء الاستعارة في قوله تعالى : =

وإذا رجعنا مرة أخرى إلى بيت الهذلي لاحظنا أن ليس للمنية شيء موجود يكون مشبهاً بالأظفار ، بل هو أمر موجود في المنية على سبيل التوهم والخيال ، فلذلك سميت استعارة تخييلية .

وأمثلة المكنية من القرآن عديدة ومتنوعة ، فالقرآن حين يصف المعاني بالمجيء والاقبال إنما يعطيها صورة طريفة ، ويخلع عليها خصائص انسانية جديدة لا تحددها الألفاظ حين نجزىء عناصر العبارة ، ونعطي لكل لفظ معناه الحقيقي ، ففي قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الخَوفُ رَأَيْتَهُم يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعيُنُهُم ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَا ذَهَبَ عَنْ إبراهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ البُشْرىٰ يُجادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾[4] .

فالنور والحق والخوف كل منها لا يأتي على الحقيقة ، فهي أشياء معنوية لا تتصف بالحركة حتى ننسب إليها المجيء ، وإنما شبهها بمن يأتي منه

= « قد جاءكم من الله نور » شبه النور بانسان يهدي الناس إلى الخير بجامع الهداية في كل ، وحذف المشبه به ، واستعار في النفس لفظ المشبه به المحذوف للمشبه ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وخصائصه وهو المجيء .

واجراء الاستعارة في قوله تعالى « فاذا جاء الخوف » شبه الخوف بحيوان مخيف مفترس بجامع القاء الرعب في كل ، وحذف المشبه به واستعار في النفس لفظ المشبه به ، ودل على هذا الخوف بشيء من لوازمه وهو المجيء .

(١) سورة المائدة اية ١٥ .

(٢) سورة يونس آية ١٠٨ .

(٣) سورة الأحزاب آية ١٩ .

(٤) سورة هود آية ٧٤.

المجيء فجعلنا نحيى في صورة خيالية طريفة ممتعة . وكذلك الروع والبشرى لا يكون منهما ذهاب أو مجيء على الحقيقة ، وإنما لجأ إلى التشخيص ليصح نسبة الذهاب والمجيء إليهما .

وقوله تعالى : ﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِن جِنَّةٍ إن هُوَ إلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[1].

فليس للعذاب يدان ، وإنما هو صورة خيالية ركبت من العذاب واليدين اللتين تمتدان إلى المكابرين فلا يفلت من براثنهما أحد ، وفي ذلك ما يجعل صورة العذاب مهولة بشعة .

وقوله تعالى : ﴿ وَأنزَلْنَا إلَيْكَ الكِتابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيهِ مِنَ الكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾[2].

أي : أنزلنا عليك القرآن الذي يشهد بالصحة على الكتب السماوية سابقة فيقرر أصولها ، ويؤيد شرائعها . فلا يدان للقرآن ، وإنما هو يعطينا عبير اليدين صورة حسية عن معنى سبق الكتب السماوية عنه ، فما بين يدي الانسان سابق عنه ومتقدم عليه ، فضلاً عما فيه من معنى الاحتواء بين اليدين الذي يضفي على ما يحتويه كثيراً من صفات الاعزاز به والمحبة له ، والنظر إليه ، والتأمل فيه .

وقوله تعالى : ﴿ وَالصُّبْحِ إذَا تَنَفَّسَ ﴾[3].

فالصبح هنا كائن حي مثل الانسان والنبات الذي تتردد أنفاسه ، وتدب فيه الحياة ، وليس طبيعة صامتة جامدة لا روح فيها ولا حس ، بل الحياة

---

(١) سورة سبأ آية ٤٦ .
(٢) سورة المائدة آية ٤٨.
(٣) سورة التكوير آية ١٨ .

تتجاوب أصداؤها فيه فتكسوه ثوباً جديداً غير الذي عهدناه عليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إذا يَسْرِ ﴾[1] .

صور القرآن لنا الليل بصفات الانسان الذي يسير الهوينى في تؤدة وهوادة ، فنحس بسريانه الناعم في هذا الكون ، والذي ملأنا بهذا الاحساس هو التعبير بالاستعارة المكنية .

وفي الحوار الذي يدور بين الخالق وبين السماء والأرض فيلقي عليها السؤال ويتلقى منهما الاجابة ، والسماء والأرض من الجمادات التي لا تسمع ولا تعي ولا تجيب ، فوهب لهما فكر الآدميين وعواطفهم الانسانية ، فهما يحسان ما حولهما ويرهفان السمع ، ويأنسان بكلام الله ، فيسرعان إلى تلبية الأمر ، والانقياد للقدرة الإلهية .

ترى ذلك في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرضِ ائتِيَا طَوْعاً أَو كَرهاً ، قَالَتَا أَتَينَا طَائِعِينَ ﴾[2] .
حيث جعل منهما انساناً يسمع ويجيب .

وفي قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأَتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾[3] .

أي ليس في جهنم من مزيد ، فقد امتلأت بالكافرين وعصاة المسلمين من الجن والإنس وفي تفسير النيسابوري : أن جهنم تغيظ على الكفار فتطلبهم ، ثم يبقى فيها موضع العصاة المسلمين ، فتطلب الامتلاء من الكفار كيلا ينقص ايمان العاصي حرها فاذا ادخل العصاة النار ، سكن غيظها وسكن

---

(١) سورة الفجر آية ٤ .
(٢) سورة فصلت آية ١١ .
(٣) سورة ق آية ٣٠ .

غضبها)[1] فحين يسوق الله اعداءه إلى جهنم زمراً ويقتحمونها فوجاً بعد فوج ، وجهنم لا تمتلىء ، قالت : الست قد أقسمت لتملأن من الجنة والناس اجمعين ؟ فالحوار يدور بين الله عز وجل وبين جهنم . فينشيء لنا هذا الحوار صورة بعد صورة فتتمثل الموقف تمثلاً واضحاً ، فالله يعد جهنم بالامتلاء من الكافرين والعصاة ، وجهنم لا ينفذ وقودها ، ولا يضيق مكانها ، فتطلب المزيد حتى تمتلىء ، ولا نجد مكاناً للمزيد بعد امتلائها ، حياة وحركة أضفاهما الحوار ، وتجاذب الحديث مع من لا ينطق ولا يتكلم ، فأعطانا هذا الحوار صورة رائعة لتمثل هول الجحيم ، وعنفها ، وشدة سعيرها .

وفي قوله تعالى : في شأن المنافقين : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي * أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكافِرِينَ ﴾[3] .

طلب رجل من المنافقين التخلف في المدينة وعدم الذهاب إلى القتال في غزوة تبوك حتى لا يقع في الإثم ، لأنه مغرم بالنساء ، ويخشى إذا رأى نساء بني الأصفر أن يفتتن بهن ، وهذا عذر من بين الأعذار الكاذبة التي أعلنها المنافقون للرسول عليه السلام حتى يقعدوا عن الغزو . فالفتنة لجة تزخر بالأمواج العاتية ، فتجرف المنافقين إليها ، وتدفعهم إلى السقوط في جوفها ، فما اشبه الفتنة باللجة ذات الأمواج العاتية التي تبتلع في جوفها من يقترب منها ، ولا ينأى عنها .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرجُفُ الأَرْضُ وَالجِبَالُ * وَكَانَتِ الجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾[3] .

---

(١) تفسير الطبري ٢٦/١٠٥ ، تفسير النيسابوري ٢٦/١١٩ ـ ط الأميرية .
(٢) سورة التوبة آية ٤٩ .
(٣) سورة المزمل آية ١٤ .

يصور العذاب يوم القيامة حيث تضطرب الأرض وتزلزل الجبال بما عليها حتى تصبح رملاً سائلاً متناثراً، فالأرض ترتجف ، والجبال تصطك كما يرتجف الآدمي وتصطك اسنانه حين يصيبه الهلع ، ويستبد به الخوف من هول ما يرى ، فالرجفة من سمات الأحياء ، وليس من صفات الجماد ، ولكن التعبير القرآني بعث في الجماد حياة ، ونفخ في الطبيعة روحاً ، فاستحالت آدمياً يجري عليه ما يجري على الأحياء .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الغَضَبُ خَذَ الألوَاحَ * وَفِي نُسخَتِهَا هُدىً وَرَحمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾[1].

فالتعبير القرآني يصور لنا الغضب رجلاً يغري موسى عليه السلام على ما فعل ، ويقول له : قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجر برأس أخيك إليك ، ثم كف عن الاغراء ، وانقطع عن التزيين . والتعبير بلفظ السكوت هنا شعبة من شعب البلاغة ، إذ لا تجد النفس عند التعبير بلفظ سكون مثلاً تلك الهزة ولا طرفاً من تلك الروعة[2].

والفراء (ت ٢١٠هـ) يذكر في كتابه معاني القرآن أساس هذا التشبيه بما فيه من قرينة صارفة عن معنى السكوت إلى معنى السكون بقوله : (والغضب لا يسكت وإنما يسكت صاحبه ، وإنما معناه سكن)[3] ثم يسوق لنا امثلة وفيرة على غرار هذا النوع من التعبير الاستعاري مما كان جارياً على ألسنة العرب ، حتى نطمئن إلى أنهم كانوا يلجئون إلى منح صفات الانسان إلى غير الانسان سواء كان حيواناً أم جماداً ، أم معنى من المعاني ، ويذكر قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامهُ ﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف آية ١٥٤ .

(٢) تفسير الزمخشري ١٢٨/٢ ط الاستقامة .

(٣) معاني القرآن ١٥٦/٢ .

(٤) سورة الكهف آية ٧٧.

ثم يعقب على ذلك بقوله (يقال كيف يريد الجدار أن ينقض ؟) وذلك من كلام العرب أن يقولوا : الجدار يريد أن يسقط ، وقال الشاعر :

شكا إلي جملي طول السرى صبراً جميلاً فكلانا مبتلى

والجمل لم يشكُ ، وإنما تكلم به على أنه لو نطق لقال ذلك .

وكذلك قول عنترة :

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلي بعبرة وتحمحم

فالفراء يوضح لنا كيف تكون أساليب القرآن حين تخرج عن أصل وضعها ، كما خرجت أساليب الشعر عن أصل الوضع، فأعطت الكلام صورة طريفة رائعة جعلت هذه الجمادات أو المعاني أو الحيوانات إنساناً له إرادة ، أو عزم أو شكاية)[١] .

وتأمل قول الشابي في قصيدته نشيد الأسى :[٢] .

مهما تضاحكت الحياة فإنني أبدا كئيب
أصغي لأوجاع الكآبة ، والكآبة لا تجيب
في مهجتي تتأوه البلوى ويعتلج النحيب
ويضج جبار الأسى وتجيش أمواج الكروب

فالكآبة لها أوجاع كالبدن حين يدب فيه السقم ، والكآبة لا تجيبه حين يصغي إليها ، كأنها إنسان ينتظر الشاعر منه جواباً ، والبلوى تتأوه كما يتأوه المريض من شدة ما يعتريه من الآلام ، والأسى مارد جبار يهدر بالضجيج ، والكروب بحر تتلاطم فيه الأمواج ، صور خيالية متعاقبة اعتلجت في نفس

---

(١) المرجع السابق والصفحة ، وانظر أثر النحاة في البحث البلاغي للمؤلف فصل الاستعارة بالكناية عند الفراء .

(٢) ديوان أغاني الحياة للشاذبي ١٢٦ .

الشاعر وتردد صداها في روحه فكونت عنده عالماً خيالياً آخر غير العالم الذي نعرفه ونأنس إليه ، عالم مريع يزخر بالأوجاع والآهات والنحيب ، ولكنها أوجاع وآهات ونحيب من نوع آخر غير ذلك النوع الذي يعتري الاجسام والأنفس والأرواح ، إنه عالم من صنع الشاعر وحده .

وكذلك قول الشاعر :

فتى كلما فاضت عيـون قبيلة دما ضحكت عنه الاحاديث والذكر

فقد شبه الشاعر عيون القبيلة بالأنهار التي تفيضُ مبالغة في غزارة المياه التي تتدفق منها ، والقرينة على تصور هذا التشبيه اسناد الفيضان إلى العيون التي لا تفيض ، فحين يجعل الشاعر عيون القبيلة تفيض ، يكون قد أخرج العيون عن المعنى المتعارف عنها إلى معنى جديد نراه في الأنهار أو البحار أو المحيطات التي يجري عليها وصف الفيضان ، وهذه هي الاستعارة المكنية . وإسناد الفيضان إلى العيون استعارة تخييلية ، فكل استعارة مكنية قرينتها تخييلية ويمكن ملاحظة ذلك في كل مثال من أمثلة الاستعارة المكنية ، إذ تجد التلازم والتماسك والترابط شديد بين هذين النوعين من الاستعارة ، ولا فكاك لأحدهما عن الآخر . وأبو اسحاق الخفاجي يصف الشمعة بقوله :

وصفراء تبكي لا لوجد ولوعة فتبسم والليـل البهيم مقـطب

فالبكاء والابتسام ليس من صفات الشمعة حقيقة ، وإنما هو مجاز وادعاء بأن لها صفات الأحياء الآدميين ، فشبه الشمعة بالآدمي الحي ، وهذه هي الاستعارة بالكناية ، والذي دلنا على هذا التشبيه كلمة تبكي وتبسم حين يجعلهما من صفات الشمعة على سبيل التخييـل ، وهذه هي الاستعـارة التخييلية . وكذلك حين يصف الليل بالتقطيب ، وذلك من صفات الانسان الحزين العابس ، فالليل عند الشاعر انسان ، وهذه الاستعارة المكنيـة ، ووصف الليل بأنه مقطب على سبيل التخييل هو الاستعارة التخييلية .

ومثله قول ابن المعتز :

زارني زائري وقد هرم الليل ودب المشيب في عارضيه .

وفي قول يوسف بن هارون :

أرى سكرات للسراج كأنه عليل هوى فوق الفراش يجود

تدرك أن السكرات لا تكون للسراج ، وإنما هي من شأن المحتضر الذي ينازع الروح ، ويشرف على الموت والهلاك ، فالسراج انسان يحتضر ، وهذه هي المكنية ، واضافة السكرات للسراج صورة خيالية للسراج وليست حقيقة فيه ، وهذه هي التخييلية .

الاستعارة المرشحة والمجردة والمطلقة

إذا قلت عن رجل شجاع : رأيت أسداً في ساحة الوغى ، كان الأسد استعارة ، وساحة الوغى قرينة لهذه الاستعارة ، وهذه الاستعارة لم يذكر معها ما يلائم المستعار منه (المشبه به) أو المستعار له (المشبه) .

فالاستعارة المرشحة : هي التي اقترن بها ما يلائم المستعار منه (المشبه به) .

والاستعارة المجردة : هي التي اقترن بها ما يلائم المستعار له (المشبه) .

والاستعارة المطلقة : هي التي لم تقترن بما يلائم واحد منهما ، أو اقترنت بما يلائم كل واحد منهما معاً .

ولا يحق لنا أن نطلق على الاستعارة بأنها مرشحة أو مجردة أو مطلقة إلا بعد استيفاء القرينة التي تدل على وجود الاستعارة في الكلام ، سواء كانت هذه القرينة لفظية أي : ملفوظ بها في الكلام ، أم كانت حالية ، أي :

مفهومة من السياق . فاذا قلت : رأيت اسداً يتكلم ، فهذه استعارة والتكلم هنا قرينة على الاستعارة ، ولم يذكر في العبارة بعد استيفاء القرينة ما يلائم المشبه وهو الرجل الشجاع حتى تكون مجردة ، أو ما يلائم المشبه به وهو الأسد حتى تكون مرشحة ، فاذا لم يذكر مع الاستعـارة ما يـلائم أحد الطرفين ، المستعار منه ، أو المستعار له سميت مطلقة ، ولقبت بذلك لأنها أطلقت عما يقوي أحد الطرفين .

أما إذا قلت : رأيت أسداً يحمل السلاح ، وينازل الفرسان ، كانت مجردة ، لأن حمل السلاح ومنازلة الفرسان من صفات الرجل الشجاع ، أي من صفات المشبه (المستعار له) وهذا ما يسمي استعارة مجردة ، لأنها اقترنت بما يلائم المستعار له ، ولقيت بهذا اللقب لأنك جردت الأسـد (المستعار منه) من خصائص الأسد ولوازمه ، فليس من شأن الأسد أن يحمل سلاحاً أو ينازل فرساناً ، ومن ثم يضعف الاتحاد بين المشبه والمشبه به .

ولكنك إذا قلت : رأيت أسداً دامي الأنياب ، طويل البراثن ، كانت الاستعارة مرشحة ، لأن ادماء الانياب ، وطول البراثن من صفات الأسد ، أي المشبه به (المستعار منه) وإذا اقترنت الاستعارة بما يلائم المشبه به ، كانت مرشحة لأنها ترشـح أي تقوي الاستعـارة ، بما فيهـا من مبالغـة وتناس للتشبيه ، .

ومن ثم كانت الاستعارة المرشحة ابلغ الجميع ، لما فيها من قوة الاتحاد بين المشبه والمشبه به .

والمجردة أضعف الجميع ، لضعف الاتحاد بين المشبه والمشبه به .

والمطلقة في المنزلة الوسطى بين هذين النوعين ، إذ ليس فيها ما يقوي أو يضعف الاتحاد بين الطرفين .

يقول ابن أبي الأصبع : (وأجل الاستعارات ، الاستعارة المرشحة)[1].

كقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحتْ تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾[2].

فالشراء هنا استعارة لما تركوا من الهدى واختاروا من الضلال . شبهوا بمن اشترى فكأنهم دفعوا في الضلالة هداهم[3] فاستعارة الشراء للاختيار رشحت بالربح والتجارة اللذين هما من دواعي الشراء .

ومن الاستعارة المجردة قوله تعالى : ﴿ فَأَذاقَها الله لباس الجوع والخوف ﴾[4]

أي أذاقها الجوع ، فاستعير اللباس للجوع ، ثم قرن الكلام بما يلائم الجوع ـ المستعار له ـ وهو الإذاقة .

ومن الاستعارة المجردة قول كُثيِّر :

غمر الرداء اذا تبسم ضاحكاً   علقلت لضَحْكته رقاب المال

فالرداء هنا مستعار للمعروف بجامع الصون والستر ، فان المعروف يستر عرض صاحبه ستر الرداء لما يلقى عليه ، وكلمة غمر صفة تلائم المعروف (المستعار له) لا الرداء (المستعار منه)[5] ومنها قولك (لا تتفكهوا بأعراض الناس فشر الخلق الغيبة).

استعار التفكه للكلام في حق الناس ، والغيبة من صفات الكلام

---

(١) تحرير التحبير ٩٩.
(٢) سورة البقرة آية ١٦ .
(٣) المحرر الوجيز (تفسير ابن عطية) ١٧٦/١ .
(٤) سورة النحل آية ١١٢ .
(٥) الشروح ٣٥٥/٤ .

المستعار له ، فهي استعارة مجردة ومن المطلقة قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِيْنَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّور ﴾(١) .

فاستعار الظلمات والنور للضلالة والهدى ، ولم يقترن الكلام بما يلائم المستعار منه أو المستعار له .

وقول الشاعر :

إن التباعد لا يضر   إذا تقاربت القلوب

استعار التقارب للتواد ، ولم يقترن الكلام بما يلائم المستعار منه ، أو له فهي مطلقة .

أما قول زهير :

لدى أسد شاكي السلاح مقذف   له لبد أظفاره لم تقلم

أي كامل السلاح والعدة ، ويقذف بنفسه في المعارك ، فهو من الاستعارة المطلقة ، فشاكي السلاح ومقذف من أوصاف المشبه ، وهو الرجل الشجاع ، واللبد ـ تلبد الشعر وكثافته على المنكبين ـ والأظفار التي لم تقلم من أوصاف المشبه به ، وهو الأسد . فقد قرنت الاستعارة بما يلائم كلا منهما من غير ترجيح ، وهذا هو الضرب الثاني من المطلقة .

ومما سبق تفصيله عن الحقيقة والمجاز ، والتشبيه والاستعارة نستخلص الآتي :

ان الاستعارة أبلغ من التشبيه ، وعلة ذلك أن التشبيه طريق يؤدي إلى الاستعارة ، وهي مترتبة عليه ، أي أنها تبدأ من حيث ينتهي التشبيه ، فهي اذن في منزلة أعلى منه .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٧ .

ان في الاستعارة إيجازاً لا نجده في التشبيه فاذا قلت : سلمت على بحر تريد رجلاً جواداً كريماً ـ كان ذلك أكثر إيجازاً من قولك رأيت رجلاً كريماً يشبه البحر في جوده أن في الاستعارة تأكيداً للمعنى المجازي ، ولا أدل على كرم الرجل في المثال السابق من أنه بحر .

نلمح في الاستعارة معنى المبالغة ، لأننا ندعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل في جنسه ، أي أن الرجل الكريم من جنس البحر واتخذ صورته . بخلاف التشبيه ، فالرجل الكريم يشبه البحر فقط ، وليس هو البحر ، ولا تستطيع أن تجزم بأنه بحر على الاطلاق .

فجمال الاستعارة يرجع إلى أنها تصور المعنى تصويراً يحقق الغرض مع إيجاز في اللفظ ، وشيء من المبالغة المقبولة .

الكناية

الكناية واد من أودية البلاغة ، وركن من أركان الفصاحة ، وتفتقر إلى شيء من الدقة لما فيها من الغموض . فالكناية معناها الستر ، يقال كنيت الشيء : إذا سترته . ولها تعريفات متعددة :

فهي عند بعض العلماء : التعبير عن المعنى القبيح باللفظ الحسن ، وعن الفاحش بالطاهر[1] . فمن عادة العرب أنها لا تكنى عن الشيء بغيره ، إلا إذا كان يقبح ذكره .

أو هي : ترك التصريح بالشيء إلى ما يساويه في اللزوم فينتقل منه إلى الملزوم[2] .

أو هي : لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه[3] .

فمن ذلك ما جاء في قول إحدى النسوة في حديث أم زرع (زوجي رفيع العماد ، طويل النجاد ، عظيم الرماد ، قريب البيت من الناد) كنتُ برفعة عماده عن شرفه ومنزلته ، لأن رفع العماد يلازم الشرف غالباً ، وكنت عن

---

(١) تحرير التحبير ١٤٣ ، كتاب الفوائد لابن قيم الجوزية ١٢٦ ط السعادة .

(٢) معترك الأقران ١/٢٨٦ ، الطراز ١/٣٦٧ .

(٣) الشروح ٤/٢٣٧ .

طول قامته بطول نجاد سيفه ، لأن من طالت قامته طال نجاد سيفه ، وكنت بعظم رماده عن كثرة ضيافته واطعامه ، لأن الرماد لا يعظم إلا عن كثرة الطبخ والاحراق للحطب الكثير ، وكنت بقرب بيته من المجلس عن كرمه لأن البخلاء كانوا يبعدون بيوتهم عن المجلس كيلا يستتبعون الأضياف منه ، فذكرت هنا المعاني الأصلية وارادت ما يلزم منها ، من رفعة المكانة ، وطول القامة ، وكرم الضيافة ، فاستعملت المعنى الحقيقي وأرادت المجازي ، والتعبير هنا يبيح الجمع بين المعنيين ، فما المانع أن يكون الرجل الممدوح بعلو المكانة رفيع العماد في الوقت نفسه ، والموصوف بطول القامة طويل النجاد حقيقة ، والمنعوت بالكرم وحسن الضيافة عظيم الرماد قريب الدار من موضع اشتعال النار بالفعل . فليس ثمة « ما يمنع من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه ، وإلى ذلك ذهب كثير من العلماء منهم الشافعي ، والقاضيان : أبو بكر وعبد الجبار ، وأبو علي الجبائي ، والغزالي ، وسائر المعتزلة »[1] .

فمبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم ، كالانتقال من طول النجاد إلى طول القامة ، ومن كثرة الرماد إلى الكرم ، أي أنه عبر باللازم وأراد الملزوم ، على عكس المجاز كقولك : رأيت أسداً يخطب ، فانه انتقال من الملزوم إلى اللازم : انتقال من الأسد إلى الشجاعة ، فعبر بالملزوم وهو الأسد ، وأراد اللازم وهو الشجاعة . هكذا زعم السكاكي .

والحق أن الكناية يمكن أن نطلق عليها انتقال من اللازم إلى الملزوم ، كما يمكن أن نطلق عليها ـ مثل المجاز ـ انتقال من الملزوم إلى اللازم ، لأن اللازم ما لم يكن ملزوماً لا يصح الانتقال منه إلى اللازم .

وبذا رد الخطيب والسبكي على زعم السكاكي ، واعتبر هذا الاختلاف

---

(١) الشروح ٢٣٩/٤ .

شكلياً لا قيمة له ، ولا يترتب عليه شيء(١).

واعلم أن أكثر علماء البيان قد عد الكناية من أنواع المجاز(٢) ، لأن اللفظ استعمل وأريد به معنى آخر غير معناه الأصلي .

ورأى بعضهم أنها ليست من المجاز ، لأنك تعتبر في ألفاظ الكناية معانيها الأصلية ، ثم تفيد بمعانيها معنى ثانياً هو المقصود(٣).

ويميل شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام إلى اعتبار الكناية نوعاً من الحقيقة « فالظاهر أن الكناية ليست من المجاز ، لأنها استعملت اللفظ فيما وضع له ، وأرادت به الدلالة على غيره ، ولم تخرجه عن أن يكون مستعملاً فيما وضع له »(٤) .

وهناك آراء أخر لا نلتفت إليها لتهافتها ، وعدم جدواها ، كالرأي القائل بأنها ليست حقيقة ولا مجازاً ! أو أنها حقيقة ومجاز ، على حسب هواك في التقدير ، ورغبتك في الاختيار(٥).

أما الكنية وهي : المبدوءة بأب أو أم كأبي الشهداء وأم كلثوم . فليست من الكناية ، لأن الكنية نوع من العلم ، والعلم الصريح في مسماه ، فلا فرق بين دلالة الكنية وما دلت عليه من اسم(٦) .

والمتقدمون لم يكونوا ينظرون إلى الكناية باعتبار أقسامها ، وأن المقصود بهذه الكناية صفة أو موصوف أو نسبة . أو أن هذه الكناية تسمى تعريضاً أو

---

(١) الشروح ٢٤٣/٤ ـ ٢٤٤ .
(٢) الطراز ٣٧٥/١ .
(٣) حسن التوسل ٨٣.
(٤) الاشارة الى الايجاز ٣٨٥ ، البرهان ٣٠١/٢.
(٥) المعترك ٢٦٦/١ .
(٦) عروس الأفراح ٢٥١/٤ .

تلويحاً أو رمزاً أو ايماء أو إشارة[1]. أو أنها قريبة أو بعيدة ظاهرة أو خفية إلى آخر هذه السلسلة من التقسيمات والتفريعات التي لا تنتهي دون أن تضيف شيئاً إلى إدراك فن التعبير، أو تعلم السامع كيف يصل في تعبيره إلى الغرض، دون أن يؤذي مشاعر الآخرين، هكذا كان يتناول المتأخرون وأصحاب الشروح الصورة الكنائية، ولكن هذا النهج في نظر المتقدمين لم يكن مجدياً، فسلكوا مسلكاً آخر، فنراهم يصنفون في الكناية كتباً بأكملها دون أن يطوف بأذهانهم شيء من هذه التقسيمات، وإنما يذكرون أسباباً أخرى تتعلق بفن الكناية. فالثعالبي يذكر في مقدمة كتاب (النهاية في فن الكناية) « بأن هذا الكتاب خفيف الحجم ثقيل الوزن، صغير الجرم، كبير الغنم، في الكنايات عما يستهجن ذكره، ويستقبح نشره، أو يستحيا من تسميته، أو يتطير منه، أو يترفع منه، ويصان عنه بألفاظ مقبولة تؤدي المعنى، وتفصح عن المغزى، وتحسن القبيح، وتلطف الكثيف... فيحصل المراد، ويلوح النجاح، مع العدول عما ينبو عنه السمع، ولا يأنس به الطبع، إلى ما يقوم مقامه، وينوب منابه من كلام تأذن له الأذن، ولا يحجبه القلب، وما ذلك إلا من خصائص البلاغة، ونتائج البراعة، ولطائف الصناعة)[2].

ولهذه الفوائد التي ذكرها الثعالبي، ألف القاضي الجرجاني (ت ٤٨٢هـ) كتابه المنتخب من كتابات الأدباء، فبعد أن يعدد فوائد الكناية على غرار الثعالبي يقول (واعلم أن الأصل في الكنايات عبارة الانسان عن الأفعال التي تستر عن العيون عادة بألفاظ تدل عليها غير موضوعة لها، تنزهاً عن ايرادها على جهتها، وتحرزاً عما وضع لأجلها، إذ الحاجة إلى ستر

---

(١) الشروح ٤/٢٦٥.

(٢) النهاية في فن الكناية ص ١ للثعالبي صنفه سنة(٤٠٠هـ).

أقوالها ، كالحاجة إلى ستر أفعالها ، فالكناية عنها حرز لمعانيها)(١) .

حقيقة أن الكناية ليست محصورة في هذا النطاق الضيق بحيث لا تخرج عن تغطية المعنى الهابط ، أو ستر اللفظ المستهجن ، وإنما هي أوسع مجالاً من ذلك ، فهي تضم في دائرتها - فضلاً عن ذلك - التعبير الذي يترك ظلالاً خفيفة يشتغل بها الذهن ، ويعمل فيها الخيال ، فيتشعب المعنى ويتسع ، ويزيد بالايحاء من دلاة الكلام ، وإن كان المعنى شريفاً ، واللفظ مقبولاً ، وسوف نذكر كثيراً من الأمثلة التي تشمل هذين النوعين .

فمن النوع الأول الألفاظ البذيئة التي يستقبح التصريح بها ، ما ذكر في كثير من آيات القرآن مثل كناية الله عن الجماع بالرفث كقوله تعالى :

﴿ أُحِلَّ لَكُم لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾(٢).

وبالمباشرة كقوله تعالى : ﴿ فَالآنَ باشِرُوهُنَّ وَابتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُم ﴾(٣).

والغشيان كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً ﴾(٤).

والحرث كقوله تعالى : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُم أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾(٥).

والإفضاء كقوله تعالى في حديثه عن المهر : ﴿ وَكَيفَ تَأْخُذُونَه وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾(٦).

---

(١) كتابات الأدباء ص ٤ الجرجاني .
(٢) سورة البقرة آية ١٨٧ .
(٣) سورة البقرة آية ١٨٧ .
(٤) سورة الأعراف آية ١٨٩ .
(٥) سورة البقرة آية ٢٢٣ .
(٦) سورة النساء اية ٢١ .

ومثل كنايته عن الأشياء المستهجنة باللغو في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ﴾[1].

أي لا يذكرون الشيء بألفاظه المستهجنة ، وإنما يكنون عن لفظه ، ويتنزهون عن قوله معرضين عنه منكرين له .

وعن عملية الطرد بأكل الطعام في قوله تعالى :

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ * وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾[2].

فكنى بأكل الطعام عما يخرج من السبيلين ، فمن يأكل لا بد أن يطرد ، فاستقبح ذلك ، فكنى عنه بالأكل ، وفي ذلك تشنيع وتحقير لمن اتخذهما آلهة .

ومن النوع الثاني الذي لا نجد في ألفاظه الحقيقية خدشاً للحياء أو جرحاً للشعور ، قوله تعالى في حديثه عن نساء الجنة : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾[3].

كناية عن العفة ، لأن المرأة التي تقصر طرفها ، وتغض بصرها ، ولا تطمح بعينيها إلى غير زوجها تتصف بالعفاف والطهر . والعفة أو الطهر ليست من المعاني المستهجنة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ﴾[4].

---

(١) سورة الفرقان آية ٧٢.
(٢) سورة المائدة آية ٧٥.
(٣) سورة الرحمن آية ٥٦.
(٤) سورة الاسراء آية ٢٩

كناية عن صفة الاعتدال والتوسط بين البخل والاسراف ، فاليد التي تغل إلى العنق لا تستطيع أن تمتد كيد البخيل التي لا تمتد بالعطاء والبذل ، واليد التي تنبسط فلا يبقى فيها شيء كالمبذر الذي لا يبقى من ماله على شيء ، والتصريح بلفظ البخل أو الإسراف ليس مستهجناً أو ممقوتاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ انفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾[1] .

فتقليب الكفين كناية عن صفة الندم والتحسر على ضياع ما أنفقه فيها من مال وجهد . فعبر باللازم وهو تقليب الكفين وأراد الملزوم وهو الندم والحسرة ، وان شئت فقل : عبر بالملزوم وأراد اللازم كما يرى الخطيب والسبكي .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا * قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ ﴾[٤] .

أي : ندموا أشد الندم على عبادتهم للعجل ، وتبين لهم أنهم قد ضلوا ، وأيقنوا بالهلاك ، فالآية كناية عن صفة الندم والتحير ، يقال للنادم المتحير : سقط في يده : أي سقط فمه في يده ، لأن من شأن الإنسان إذا اشتد ندمه على شيء أن يعض يده ، فتصير يده مسقوطاً فيها ، لأن فمه وقع فيها ، فسقوط الأيدي لازم للندم ، فعبر باللازم وأراد الملزوم .

وقوله تعالى : ﴿ سَنَسِمُه عَلَىٰ الخُرْطُومِ ﴾[٣] .

أي : سنعلمه على أنفه علامة لا يمحى أثرها ، فلا تخفى على أحد ،

---

(١) سورة الكهف آية ٤٢ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٤٩ .

(٣) سورة القلم آية ١٦ .

ومن يراه يعرف المهانة التي لحقت به ، والعار الذي ألم بسمعته فلا يفارقها كما لا تخفى العلامة التي تعلو الأنف . فالوسم على الأنف كناية عن صفة المهانة والإذلال .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً * أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ * وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١).

أي : لا يرفق بهم ، ولا يرحمهم ، ولا يحسن إليهم ، ولا يطهرهم بغفران ذنوبهم . ففي النظر هنا يلزم منه الإذلال والاحتقار ، لأن احتقار الشيء يصحبه في الغالب الاعراض عنه وعدم الالتفات إليه .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا * وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا * وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ * وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(٢) .

ففي قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾ كناية عن إحاطة الله سبحانه وتعالى بأقوالهم وأعمالهم ، وجميع أحوالهم ، لأن الحاضر مع القوم لا يخفي عليه شيء من ذلك ، فعبر بأنه معهم ، وأراد ما يلزم ذلك من وقوفه على أحوالهم كافة ، فأطلق اللازم وأراد الملزوم .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ * وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾(٣) .

---

(١) سورة آل عمران آية ٧٧.
(٢) سورة الحديد آية ٤ .
(٣) سورة القلم آية ٤٢ .

فكشف الساق كناية عن شدة الروع ، وهول الخطب يوم القيامة ، وليس هناك ساق ولا كشف عن الساق ، كما تقول للأقطع الشحيح : يده مغلولة ، ولا يد له ولا غل ، وإنما هو كناية عن البخل ، وأراد الله سبحانه بهذا التعبير المبالغة في حساب أعدائه ، وإهانتهم وعقوبتهم ، وكان من عادة العرب أن يقولوا لكل من يجد في أمر ويبالغ فيه (كشف عن ساقه) وأصل هذا التعبير ، أن من يجد في عمل من الأعمال سواء أكان حرباً أم غير حرب ، فانه يشمر عن ساقه حتى لا يعوقه عن الجد وسرعة الحركة ، كما نقول اليوم ، فلان شمر عن ساعد الجد ، وإن كان لا يرتدي قميصاً بأكمام ، فعبر في الآية بالملزوم وهو الكشف عن الساق ، وأراد ما يلزم منه من الجد والاهتمام بالأمر .

وقوله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَّبِّي ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾[1].

فخفض الجناح كناية عن التواضع ، ولين الجانب ، والمبالغة في الرحمة ، والبعد عن الترفع والغطرسة في حق الوالدين ، فالطائر يرفع جناحيه ويبسطهما إذا أراد الترفع إلى السماء ويخفض جناحيه ويقبضهما إذا أراد أن يهبط إلى الأرض ، فيلزم من خفض الجناح النزول والتواضع . وعدم الصعود والترفع . فمعنى الآية : واخفض لهما جانبك ، « فجانب الإنسان هو مظهر الغطرسة حين يشمخ بأنفه ، ومظهر التواضع حين يتطامن ، ولسنا بحاجة إلى أن نشبه الذل بطائر ، ثم نستعير جناحه ، ونضيفه للذل على أنه استعارة مكنية ، واختيار كلمة الجناح في هذا الموضع يوحي بما ينبغي أن يظل به الإبن أباه من رعاية وحب ، كما يظل الطائر فراخه »[2].

---

(١) سورة الاسراء آية ٢٤ .

(٢) من بلاغة القرآن ٢٢٢ ط ٣ نهضة مصر .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾(١) .

يقول العلوي صاحب الطراز (فهذه الآية قد اشتملت على نكت سبع ، كلها دالة على حسن المطابقة لمقصد الكناية التي وقعت من أجله)(٢) .

فالآية كناية عن حالة الاغتياب ، وتصوير لمدى كراهته عند الله ، فالنفس الطيبة تعافه وتنفر منه ، كما ينفر الإنسان من أكل لحم أخيه الميت ، فقد لاحظ القرآن أن الاغتياب محبوب عند كثير من النفوس ، إذ من شأنها أن تميل إلى الهوى ، وتكلف بالاصغاء إلى من يتناول عيوب الناس ، ويمزق أعراضهم ، كما يمزق المغتاب لحم من يغتابه ، وإذا كان أكل لحم الأجنبي مستكرهاً خبيثاً ، فما بالك بأكل لحم الأخ ، فلا شك أنه أشد كراهة وخبثاً ، فاذا أضفت إلى ذلك أنه ميت ، اشتد أمر الكراهة وعظم شأنها حتى تتقذره النفس وتتقيأ منه ، ومن المألوف أن يكون المغتاب غائباً ، فكان ذلك بمنزلة الميت الذي لا يسمع ولا يعي ما يتقول عليه من الأقاويل ، فلا يبدر منه دفاع ، ولا يند منه اعتراض ، فالاغتياب أمر ممقوت ، صورته الآية بهذه الصورة الكريهة في أدق جزئياتها ، وكلما مر بنا لفظ من ألفاظ هذا التعبير الكنائي زاد في نفوسنا استبشاع الغيبة ، حتى إذا انتهينا من الآية قر عندنا أنه لا مزيد على هذه الكراهة . فانظر إلى أي مدى بلغ التصوير الكنائي في إقناعنا بالنفور من اقتراف هذا الفعل الكريه ، والرغبة عن تناول أعراض الناس .

« وقد آثر القرآن هذه الألفاظ على ما يماثلها في تأدية معناها تعويلاً عن

---

(١) سورة الحجرات آية ١٢ .

(٢) الطراز ١/٤٠٠ ، ٣/٣٤٠ ، وانظر المثل السائر ٣/٦٢.

البلاغة ، وإعطاء لجانب الفصاحة ما يستحقه ، فنزل الآية على هذه الهيئة »[1].

والتعبير الكنائي في هذا الموضع له فائدة لا تكون لو قصد المعنى بلفظه الخاص به ، وذلك لما يحصل للسامع من زيادة التصوير المدلول عليه ، لأنه إذا صور في نفسه مثال ما خوطب به كان ذلك أسرع إلى الرغبة عنه »[2].

ولجمال هذا التعبير القرآني في إبراز صورة الغيبة وبشاعتها ، نراه يجري على ألسنة الناس والأدباء والشعراء في بساطة أخاذة فيصلون منه إلى دقة الغرض ومغزاه ، فيكون له فعل السحر في ازدراء الغيبة ومن يتصف بها .

واقرأ قصيدة نشيد الجبار للشابي التي مطلعها[3] :

سأعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء
أرنو إلى الشمس المضيئة هازئاً ... بالسحْب ، والأمطار ، والأنواء

واصغ إلى ما يردد :

وأقول للجمع الذين تجشموا ... هدمي وودوا لو يخرُّ بنائي
ورأوا على الأشواك ظِلّي هامدا ... فتخيلوا أني قضيت ذَمائي
وغدوا يشبون اللهيب بكل ما ... وجدوا . . ليشووا فوقه أشلائي
ومضوا يمدون الخوان ، ليأكلوا ... لحمي ، ويرتشفوا عليه دمائي
إني أقول لهم ووجهي مشرق ... وعلى شفاهي بسمة استهزاء
« إن المعاول لا تهد مناكبي ... والنار لا تأتي على أعضائي
فارموا إلى النار الحشائش والعبوا ... يا معشر الأطفال تحت سمائي »

---

(١) الطراز ١/٤٠٣ .
(٢) كتاب الفوائد ١٢٧
(٣) ديوان أغاني الحياة ٢٥٦ .

ثم قف عند قوله « ليأكلوا لحمي ، ويرتشفوا عليه دمائي » تجد تصويراً بارعاً لما يضمره أعداء الشاعر من حقد وضغينة ، فيبذلون جهدهم للنيل منه ، وتحطيم بنيانه ، فلم يدعوا سيئة إلا وألصقوها به ، ولا حسنة إلا جردوه منها ، عرضوا مثالبه ، وأبرزوا عيوبه ، وأكالوا له التهم ، ووصفوه بكل نقيصة على طريقتهم في الاغتياب والطعن من خلف الظهـور ، ولكن هذه المعـاني المجردة لا يكون لها من الوقع والتأثير على النفس ما نراه في الصورة التي رسمها الشاعر في أسلوب كنائي : فهم يشوون أشلاءه ، ويأكلون لحمه ، ويرتشفون دماءه ، وبهذه الصور المرسومة الواضحة أمام أعيننا نتعاطف مع الشاعر ، ونقف بجواره مؤازرين ، بقدر ما نبدي من النقمة والتحقير لهذا الصنف المسف من البشر ضائقين بهم ، مزورين عنهم .

ولكني أزعم أن الصورة التي رسمها شاعرنا الشابي في شمولها وتأكيدها وتركيبها ، بحيث بدا لنا الاغتياب وليمة شهية فيها الشواء والشراب مما يملأ نفوس المغتابين بالنشوة واللذة فيما يتناولون وينهشون ، هذه الصورة الطريفة التي ملأت نفس الشاعر بالتحدي والمواجهة والصمود ، وهو يستقبل ما يتقولونه عنه بوجه مشرق ، وابتسامة ساخرة تلعو شفتيه ، دون أن يفت في عضده شيء من مزاعمهم ، هو ينصت إلى افتراءاتهم وتخرصاتهم دون أن يحفل بالحجارة التي يقذفونه بها ، وعلى الرغم من ذلك فهي صورة لا تجعل القارىء يبغض الغيبة أو يستنكرها ، بل تدعوه إلى أن يتعالى عليها ، ويهز كتفيه إزاءها ، على خلاف الصورة التي رسمها القرآن للغيبة والمغتابين ، حيث جعلها بمثابة أكل اللحم الموصوف بأنه لحم أخ ميت ، فالآية القرآنية أضافت أبعاداً عميقة إلى المعنى وتركت من التأثير النفسي المقزز الذي يملأ المشاعر بالنفور من الغيبة ، ومن سلوك المغتابين ، فالتعبير القرآني يهز النفس الإنسانية هزاً عنيفاً لا يصل إلى أطرافه صورة الشاعر الشابي العظيم رغم ما فيها من تركيب ، وإضافات لعديد من الصور ، ولعل مرد ذلك كله إلى أن

تصويره أكل اللحم لم يردفه بصفة الأخوة وما فيها من تعاطف ، والموت وما فيه من رثاء ، يدعوان إلى الرأفة والرحمة ، وليس إلى الغيبة بما فيها من تمزيق للأوصال ، ونهش للأعراض .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيامَةِ وَالسَّمواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾(١).

يذكر السبكي أن في الآية « كناية استنبطها الزمخشري : وهي أن يعمد إلى جملة ، معناها على خلاف الظاهر ، فيأخذ الخلاصة منها من غير اعتبار مفرداتها بالحقيقة أو بالمجاز ، وهذه في الحقيقة من نوع الإيماء »(٢). فالآية كناية عن تصوير عظمة الله تعالى ومعرفة جلاله ، ونفاذ قدرته ، وتمثيل هذه الحالة بحال من يكون له قبضة تحوي الأرض جميعاً ، ويمين تطوي السموات بأسرها ، فالسبكي يرى الزمخشري يعد هذه الآية كناية عن صفة العظمة ، وإن كان السبكي نفسه يراها استعارة تمثيلية (٣).

وقوله تعالى في ذكر عرش بلقيس :

﴿ قَالَ الَّذِي عَنْدَه عِلْمٌ مِنَ الكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾(٤).

فالذي عنده علم من الكتاب رجل صالح من علماء بني إسرائيل ، كان وزيراً لسليمان عليه السلام تعهد باحضار عرش بلقيس قبل أن ينطبق الجفن على الجفن ، وهذا التعبير كناية عن سرعة الإتيان به على نحو خارق للعادة « وقد كثر في كلام الناس واشتهر على ألسنتهم قولهم : فعل كذا في طرفة

---

(١) سورة الزمر آية ٦٧.

(٢) عروس الأفراح ٢٦٢/٤ ، والمعترك ٢٨٩/١ ، وأنظر الكشاف ١١٠/٤ ط ٢.

(٣) العروس ٢٦٢/٤ ، .

(٤) سورة النمل آية ٤٠ .

عين ، ولحظة عين ، حتى جعلوا اللحظة عن الوقت من الزمان في الخفة والسرعة »[1].

والملاحظ أن جميع ما ذكرنا من الآيات ما هي إلا كناية عن صفات عند أناس من المصابين بولع التقسيم ، ومن اليسر « أن نقول : إن كل كناية عن وصف كناية عن نسبة ، لأنك إذا قلت : طويل النجاد فمعناه : طال نجاده ، فأثبت الطول لنجاده ، وإنما تريد إثباته لنفسه »[2]. وبذلك تقل أقسام الكناية ، وتصبح قسمين فقط : كناية عن موصوف ، وكناية عن نسبة ، بدلاً من ثلاثة أقسام : كناية عن صفة ، كناية عن موصوف ، كَناية عن نسبة .

ومن كنايات النسبة قوله تعالى :

﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتا عَلىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ ﴾[3].

والمراد أنه فرط في حق الله ، وعبادة الله ، وما أشبه ذلك ، لأنه إذا أثبت التفريط في جنب الله ـ وهذا لا يجوز حيث إنه جهة محسوسة ـ فقد أراد أن ينتقل منه إلى ما يصح وقوع التفريط فيه ، وهو حقوق الله التي أمره باتباعها . « وهذا التعبير عند الزمخشري من حسن الكناية وبلاغتها »[4].

ومن كنايات النسبة قوله تعالى :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾[5].

أي : موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب يوم القيامة . فأثبت خوف

---

(١) الجمان ١٣٧ .
(٢) العروس ٤/٢٦١ .
(٣) سورة الزمر آية ٥٦ .
(٤) الكشاف ٤/١٠٦ .
(٥) سورة الرحمن آية ٤٦ .

المؤمنين إلى قيام الله تعالى ـ وهذا لا يجوز في حقه تعالى باعتبار أنه شيء محسوس ـ وأراد هيمنة ربه عليه ، ومراقبته له ، وعلمه بما يسره وما يخفيه ، فيتجنب المعصية ويبتعد عن اقتراف الإثم .

ومن هذا النوع قول زياد الأعجم المشهور :

إن السماحة والمروءة والندى   في قبة ضربت على ابن الحشرج

أراد أن يقول : إن السماحة والمروءة والندى مجموعة فيه ، أو مقصورة عليه ، أو مختصة به ، لكنه عدل إلى ما هو أرق من ذلك ، وأدخل في الإعجاب والمدح ، فجعلها في قبة ، وكنى بها عن كونه فيها ، وأنه متمكن في الندى ، منسدل عليه كالقبة المضروبة على كل ما تحويه .

ومنه قول بعضهم يصف امرأة بالعفة والطهر :

يبيت بمنجـاة من اللوم بيتهـا   إذا ما بيوت بـالملامـة حلَّت

أراد الشاعر أن ينسب الطهر والعفاف لهذه المرأة ، فتلطف إلى ذلك بأسلوب الكناية ، ولم يعبر عن عفافها وطهرها تعبيراً صريحاً مباشراً ، بل نراه ينفي عن بيتها كل ما يسيء إلى سمعتها حتى لا تكون مضغة في الأفواه ، وأراد أن يصل من نفى اللوم عن بيتها إلى نفي اللوم عنها ، لأن نفي اللوم ، وإثبات العفة لا يصح أن يكون البيت محلاً له ، ومن ثم لزم أن يكون محله من يقطن هذا البيت ويقيم فيه ، وهذه هي الكناية عن النسبة .

وقول الشاعر :

وإذا صحبت رأى الوفاء مجسماً   في بردك الأصحاب والخلطاء

أراد هذا الشاعر أن يصف الممدوح بالوفاء ، ولكنه لم يصرح بذلك ، بل عبر عنه بأسلوب الكناية ، فأثبت الوفاء لبرده ـ والبرد لا يصلح أن يكون محلاً للوفاء ، وإنما الذي يصح هو ما يحتويه برده أعني الممدوح ، وهذا كناية عن نسبة .

ومن ذلك ما يجري على ألسنة الناس :

الذكاء بين عينيه ، والكرم بين ثوبيه ، والشرف بين ضلوعه ، فالمراد نسبة الذكاء ، والكرم ، والشرف للرجل نفسه ، ولكنه جعل العيون محلاً للذكاء ، والأثواب مكاناً للكرم ، والضلوع مقراً للشرف ، ولا يصح أن تكون هذه الأشياء موضعاً لهذه الصفات ، فلزم من ذلك أن تقوم هذه الأوصاف بمن يصح أن يكون محلاً لها ، وهو الممدوح ، وذلك كناية عن نسبة .

أما الكناية عن موصوف : فتتجلى في قوله تعالى :

﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾[1].

فالله سبحانه يستنكر من الكافرين زعمهم حين جعلوا الملائكة بنات الله ، واختار لهم البنين ، والعرب يتشاءمون بالأنثى ، وتمتلىء قلوبهم كآبة وغماً إذا بشر أحدهم بولادتها ، فهم يفترون على الله الكذب ، وينسبون إليه ما من شأنه أن يتربى في النعمة وينشأ في الزينة ، وحين يفتقر إلى مقارعة الخصوم ومنازلة الرجال ، لم يكن له بيان ، ولم يأت ببرهان ، فالتنشئة في الزينة ، وضعف الإبانة وقت الخصومة من صفات النساء ، فعبر الله بهذا القول ، وأراد المرأة ، والمرأة موصوف ، فالآية كناية عن موصوف .

ومن هذا النوع قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾[2].

---

(١) سورة الزخرف آية ١٦ ـ ١٨ .

(٢) سورة القمر آية ٩ ـ ١٣ .

فالدسر جمع دسار وهو المسمار ، والآية الأخيرة كناية موصوف أراد بها السفينة ، « وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوف فتنوب منابها ، وتؤدي معناها بحيث لا تجد فرقاً بين ما يدل عليه الوصف وما يحمله الموصوف من معنى ، ومن أجل ذلك لا يجوز هنا أن نجمع بين الموصوف وصفته ، أي بين السفينة وبين هذه الصفة ، وهذا من فصيح الكلام وبديعه »(1).

وقوله تعالى : ﴿ فَاصْبِر لِحُكْمِ رَبِّكَ * وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ إِذْ نَادىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾(2).

هم الرسول عليه السلام أن يدعو على ثقيف ، فنهاه الله أن يوجد منه مثل ما وجد من يونس عليه السلام صاحب الحوت من الضجر والغضب على قومه الذين لم يؤمنوا ، فدعا ربه وهو في بطن الحوت ، فالمعنى لا يوجد منك ما وجد من يونس فتبتلي ببلائه ، بل تذرع بالصبر حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً « فصاحب الحوت » كناية عن موصوف هو يونس ـ عليه السلام »(3).

ومن ذلك قول المتنبي يهجو أعداء سيف الدولة :

ومن في كفه منهم قناة   كمن في كفه منهم خضاب

ومعنى البيت أن أعداء سيف الدولة قد ضعفوا أمام سطوته ، وتخاذلوا بجانب قوته ، حتى صار الرجل منهم والمرأة بمنزلة سواء ، فكنى المتنبي عن الرجل بمن يحمل القناة ، لأن الرجل من شأنه الحرب ، وحمل أدواتها من القناة والرمح والسيف والسهم ، وكنى عن المرأة بمن في كفه الخضاب ، لأن المرأة من شأنها أن تخضب يدها بالحناء . والرجل والمرأة كلاهما موصوف ،

(1) أنظر الكشاف ٣٤٥/٤ ، ٣٤٦ ، والنظم القرآني في كشاف الزمخشري ١٩٦ د. درويش الجندي ط نهضة مصر .
(2) سورة القلم آية ٤٨ .
(3) أنظر الكشاف ٤٧٧/٤ .

ففي بيت المتنبي إذن كنايتان ، كل منهما كناية عن موصوف . وانظر إلى أثر الكناية في البيت حيث عبر عن الرجل والمرأة بهذه الصورة التي تصف الرجل بما يميزه عن المرأة ، ويصف المرأة بما يميزها عن الرجل ، فالرجل من شأنه القتال ، وحمل القناة من دواعي الحرب والنزال والجراءة ، كما أن المرأة من شأنها التزين ، والخضاب من مظاهر الزينة والترفه والنعومة ، فصورة كل من الرجل والمرأة بارزة لا تختلط أمام العين إحداهما بالأخرى ، فلكل مميزاته وخصائصه ، ولكن سيف الدولة قد حول رجالهم نساء ، وقنواتهم خضاباً وصلابتهم تهافتاً ، وخشونتهم طراوة ونعومة ، وهذا الأثر لا يبدو واضحاً ، لو أنه قال بدلاً من ذلك أنه حول الرجال من أعدائه إلى نساء .

أما قول الزركشي في قوله تعالى :

﴿ وَعِنْدَهُم قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾[1]

ان البيض كناية عن موصوف وهو النساء ، أو على حد قوله « ان العرب كان من عاداتهم الكناية عن حرائر النساء بالبيض»[2] . فهذا غير مقبول ، لأن القرآن أراد تشبيه نساء أهل الجنة بالبيض في النعومة والصفاء ، ولو كان المراد بالبيض هنا النساء لكان المعنى كأن نساء أهل الجنة نساء ، والمعنى لا يستقيم ، ولذلك كان الزمخشري أعدل من الزركشي حين عرض لهذه الآية بقوله « شبههن ببيض النعام المكنون ، وبها تشبه العرب النساء »[3] أما قصر الطرف واعتباره كناية عن صفة العفة فهذا مسلم به .

ومن الكناية عن الموصوف قول القاضي الأرجاني :

وأخو الليالي ما يزال مراوحاً ما بين أدهم خيلها والأشهب

---

(١) سورة الصافات آية ٤٨ .

(٢) البرهان ٢/٣٠٧ .

(٣) الكشاف ٤/٣٤ .

فالأدهم كناية عن الليل ، والأشهب كناية عن النهار ، ومراوحاً أي : مداولاً بينهما مرة هذا ومرة هذا[1].

ونستخلص مما ذكرنا أن من الأسباب التي تدعونا للتعبير بالأسلوب الكنائي بدلاً من الأسلوب الصريح ، أن الأسلوب الكنائي يستعمل أحياناً للستر والخفاء في المعاني التي يجمل اخفاؤها وعدم التصريح بها ، لمنافاتها الذوق السليم ، على ألا يؤدي هذا الخفاء والستر إلى التعمية والتعقيد .

وأن الأسلوب الكنائي يعطينا المعنى الحقيقي مصحوباً بالدليل ، فهي مثلاً عفيفة ، لأن بيتها بمنجاة من اللوم ، وهي مترفة ، لأنها تنام حتى الضحى . وهو بخيل ، لأن يده مغلولة ، ومسرف ، لأنه يبسط يده كل البسط ، مما يزيد الكلام تأكيداً ، الأمر الذي لا يفيده التعبير القائم على غير دليل .

كما أن الأسلوب الكنائي يبرز المعنى المجرد في صورة محسوسة ، فيترك أثراً في النفس لا نجده في هذا المعنى ، فالتعبير مثلاً بأن محمداً كريم أو سيد في قومه ، لا يبرز للسامع في صورة واضحة ، كما يبرز لو عبر عنه في صورة ملموسة مشاهدة .

فالمثال الذي ذكرناه حكاية عن بعض النسوة في حديث أم زرع حيث قالت : (زوجي رفيع العماد ، عظيم الرماد ، قريب البيت من الناد) نجد فقراته كلها صوراً محسوسة تدل على عظم القدر ، وشدة الكرم ، وكثرة الثروة ، ولكن التعبير بالصورة أقرب إلى النفس ، وأشد إقناعاً من المعنى المجرد .

ويمكن أيضاً أن نلحظ الإيجاز ، ودلالة الكلمة الواحدة على عدة معان ، يحتاج كل معنى فيها إلى التعبير عنه بلفظ خاص ، والاستعاضة عن هذا

---

(١) كتاب نشر العلم في شرح لامية العجم لجمال الدين الحضرمي ص ١٢ ط ١٣٥٣ هـ .

التطويل بلفظ الكناية الذي يحمل في طياته العديد من المعاني . ففي المثال السابق « أرادت المرأة مدح زوجها بتمام الخلق ، والتقدم على قومه ، ونهاية الكرم ، ولو عبرت عن هذه المعاني بألفاظها لاحتاجت بازاء كل معنى لفظاً يخصه ، فتكثر الألفاظ ، ولا يدل كل لفظ إلا على معناه فقط ، وألفاظ الكناية يدل كل لفظ منها على جميع ما أرادت من صفات المدح على انفراد ، لأن قولها (رفيع العماد) يدل على تمام الخلق ، إذ بناء البيوت على مقادير أجسام الداخلين لها غالباً ، ويدل على عظم قدر صاحبه ، إذ لا يقدر على أن يرفع بيته على البيوت إلا من ارتفع قدره على الأقدار ، ويدل على الكرم أيضاً ، لأن الوفود والضيفان يقصدون البيوت المرتفعة دون بيوت الصرم ، وكذلك عظم الرماد ، يدل على عظم القدر ، وعظم الكرم ، وكثرة الثروة ، ومثله قريب البيت من الناد ، ليسبق إليه الضيف ، لأن الضيف يقصد النادي ـ وهو موضع رجال الحي للحديث ـ فاذا كان البيت قريباً منه ، كان صاحبه إلى الضيف أسبق ، ولا تحصل هذه المعاني إلا من لفظ الكناية »[1].

وانظر أيضاً إلى قصد المبالغة والبلاغة في الأسلوب الكنائي ، ففي قوله تعالى : ﴿ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾[2].

كنى عن النساء بأنهن ينشأن في الحلية ويرفلن في النعيم ، ولا شأن لهن بالاشتغال بعويص الأمور وحل المشكلات ، أو النظر في دقيق المعاني ، والقدرة على مواجهة الصعاب ، بل يصرفن همهن للتجمل وإبداء الزينة ، والولع بكل ما هو لافت ، وجاذب للأنظار ، ولو أنه عبر بلفظ النساء لم نشعر بشيء من قوة البلاغة وشدة المبالغة .

ومن أجل هذه الأسباب يحتل الأسلوب الكنائي مكانة عالية بين الأساليب ويتسنم الذروة منها .

---

(١) تحرير التحبير ٢٠٨ .

(٢) سورة الزخرف آية ١٨ .

المراجع لكتاب القرآن والصورة البيانية

١ ـ الاتقان في علوم القرآن ـ السيوطي ط ٢ ١٣٥٤هـ .

٢ ـ أثر القرآن في تطور النقد ـ د. زغلول سلام ـ دار المعارف ط ٢ .

٣ ـ أثر النحاة في البحث البلاغي ـ د. عبد القادر حسين ـ نهضة مصر .

٤ ـ أسرار البلاغة ـ عبد القاهر الجرجاني ـ الاستقامة .

٥ ـ الأسس الجمالية في النقد العربي ـ د. عز الدين اسماعيل ـ دار الفكر العربي .

٦ ـ الإشارة إلى الايجاز في بعض أنواع المجاز ـ عز الدين بن عبد السلام ـ المكتبة العلمية المدينة المنورة .

٧ ـ اعراب القرآن ـ الزجاج ـ المؤسسة المصرية ١٩٦٣ .

٨ ـ اعلام الموقعين ـ ابن القيم الجوزية ـ الطباعة المنيرية .

٩ ـ أمالي الزجاجي ـ الزجاجي ـ المؤسسة العربية الحديثة .

١٠ ـ الأمثال في القرآن ـ محمود بن الشريف ـ دار المعارف .

١١ ـ أنوار الربيع ـ الشيخ محمود العالم ـ ط بولاق ١٣٠٢هـ .

١٢ ـ الايمان ـ ابن تيمية ـ الامام .

١٣ ـ بديع القرآن ـ ابن ابي الاصبع المصري ـ نهضة مصر .

١٤ ـ البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي ـ عيسى الحلبي .

١٥ ـ البرهان في وجوه البيان ـ ابن وهب ـ بغداد .

١٦ ـ بصائر ذوي التمييز ـ الفيروزابادي ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .
١٧ ـ بغية الإيضاح ـ عبد المتعال الصعيدي ـ النموذجية .
١٨ ـ البلاغة التطبيقية ـ د. أحمد موسى ـ دار المعرفة .
١٩ ـ البلاغة عند السكاكي ـ د. أحمد مطلوب ـ بغداد ٦٤.
٢٠ ـ تأويل مشكل القرآن ـ ابن قتيبة ـ عيسى الحلبي .
٢١ ـ التحرير والتحبير ـ ابن ابي الاصبع المصري ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .
٢٢ ـ التشبيه بين عبد القاهر وابن الاثير ـ د. الكردي ط السعادة .
٢٣ ـ التصوير الفني ـ سيد قطب ـ ط ١٩٦٦ .
٢٤ ـ تفسير ابن عطيه ـ (المحرر الوجيز ـ ابن عطيه ـ المجلس الاعلى للشئون الاسلامية).
٢٥ ـ تفسير الطبري ـ الطبري ـ بولاق .
٢٦ ـ تفسبر النيسابوري ـ النيسابوري ـ بولاق .
٢٧ ـ التفضيل بين بلاغتي العجم والعرب ـ أبو أحمد العسكري ـ الجوائب ١٣٠٢.
٢٨ ـ الجمان في تشبيهات القرآن ـ ابن ناقيا البغدادي ـ بغداد .
٢٩ ـ جواهر البلاغة ـ الهامشي ـ بيروت ط ١٢.
٣٠ ـ الحروف لابن السكيت ـ ابن السكيت ـ جامعة عين شمس .
٣١ ـ حازم القرطاجني ونظريات ارسطو في الشعر والبلاغة ـ د. عبد الرحمن بدوي القاهرة ١٩٦١ .
٣٢ ـ حسن التوسل إلى صناعة الترسل ـ الحلبي ـ هندية ١٣١٥هـ .
٣٣ ـ الحقيقة والمجاز في القرآن الكريم ـ د. علي العمّاري .
٣٤ ـ الحيوان ـ الجاحظ ـ مصطفى الحلبي .
٣٥ ـ الخصائص ـ ابن جنى ـ دار الكتب .

٣٦ ـ دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر ـ عبد الهادي العدل ـ ط ٣ .
٣٧ ـ دلائل الاعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ـ المنار ط ٥ .
٣٨ ـ دلالة الألفاظ ـ د. ابراهيم أنيس ـ الانجلو ط ١ .
٣٩ ـ ديوان أغاني الحياة ـ الشابي ـ تونس .
٤٠ ـ أبو زكريا الفراء ـ د. أحمد مكي الانصاري ـ المجلس الأعلى لرعاية الشئون والآداب .
٤١ ـ سر صناعة الاعراب ـ ابن جنى ـ مصطفى الحلبي .
٤٢ ـ شرح المختصر ـ التفتازاني ـ التجارية .
٤٣ ـ شرح المقدمة الأدبية ـ المرزوقي ـ تونس .
٤٤ ـ شروح التلخيص ـ القزويني وغيره ـ عيسى الحلبي .
٤٥ ـ الصاحبي ـ ابن فارس ـ المؤيد ١٩١٠ .
٤٦ ـ الصناعتين ـ العسكري ـ عيسى الحلبي .
٤٧ ـ الصورة الأدبية ـ د. مصطفى ناصف ـ دار مصر للطباعة .
٤٨ ـ الصورة البيانية ـ د. حفني شرف ـ نهضة مصر .
٤٩ ـ الطراز ـ العلوي ـ المقتطف ١٩٣٤ .
٥٠ ـ عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده ـ د. مطلوب ـ الكويت .
٥١ ـ العمدة ـ ابن رشيق ـ السعادة ط ٣ .
٥٢ ـ عقود الجمان ـ السيوطي ـ مصطفى الحلبي .
٥٣ ـ عيار الشعر ـ ابن طباطبا ـ التجارية ١٩٥٦ .
٥٤ ـ فقه اللغة وسر العربية ـ الثعالبي ـ مصطفى الحلبي .
٥٥ ـ فن البلاغة ـ د. عبد القادر حسين ـ نهضة مصر .
٥٦ ـ فن التشبيه ـ علي الجندي ـ الانجلو .
٥٧ ـ فن الشعر ـ د. مندور ـ المكتبة الثقافية .
٥٨ ـ فنون لأدب ـ د. زكي نجيب محمود ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٥٩ ـ في النقد الأدبي ـ د. شوقي ضيف ـ دار المعارف ط ٢ .
٦٠ ـ القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ـ عبد العال سالم مكرم دار المعارف .
٦١ ـ الكامل ـ المبرد ـ التجارية .
٦٢ ـ الكتاب ـ سيبويه ـ الاميرية .
٦٣ ـ كتاب التشبيهات من أشعار أهل الاندلس ـ ابن الكتاني .
٦٤ ـ كتاب الفوائد ـ ابن قيم الجوزية ـ السعادة .
٦٥ ـ كتاب معاني الحروف ـ الرماني ـ نهضة مصر .
٦٦ ـ كتاب نشر العلم في شرح لامية العجم ـ الحضرمي ـ مطبعة المعاهد .
٦٧ ـ الكشاف ـ الزمخشري ـ الاستقامة .
٦٨ ـ كنايات الأدباء ـ الجرجاني ـ السعادة .
٦٩ ـ المثل السائر ـ ابن الأثير ـ نهضة مصر ١٩٥٩ .
٧٠ ـ مجاز القرآن ـ أبو عبيدة ـ الخانجي ١٩٥٤ .
٧١ ـ المحتسب ـ ابن جنى ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .
٧٢ ـ المزهر ـ السيوطي ـ عيسى الحلبي .
٧٣ ـ المصون في الأدب ـ أبو أحمد العسكري ـ الكويت ١٩٦٠ .
٧٤ ـ معاني القرآن ـ الفراء ـ دار الكتب .
٧٥ ـ معترك الاقتران ـ السيوطي ـ دار الفكر العربي .
٧٦ ـ المفتاح ـ السكاكي ـ مصطفى الحلبي .
٧٧ ـ المفصل ـ الزمخشري ـ ط ١٣٢٣هـ .
٧٨ ـ مقدمة بديع القرآن ـ د. حفني شرف ـ نهضة مصر .
٧٩ ـ مقدمة تلخيص البيان ـ محمد عبد الغني حسن ـ عيسى الحلبي .
٨٠ ـ مقدمة الجمان ـ د. مطلوب ـ بغداد .
٨١ ـ مقدمة كتاب الحروف لابن السكيت ـ د. عبد التواب رمضان ـ جامعة عين شمس .

٨٢ ـ مناهج تجديد ـ أمين الخولي ـ دار المعرفة .
٨٣ ـ من بلاغة القرآن ـ.أحمد بدوي ـ نهضة مصر ط ٣ .
٨٤ ـ من النقد والأدب ـ أحمد بدوي ـ نهضة مصر ط ٣ .
٨٥ ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ـ حازم القرطاجني ـ تونس ١٩٦٦ .
٨٦ ـ االنظم القرآني في كشاف الزمخشري ـ د. درويش الجندي ـ نهضة مصر .
٨٧ ـ النقائض بين جرير والفرزدق ـ أبو عبيدة ـ الصاوي ١٩٣٥ .
٨٨ ـ النقد الأدبي ـ د. غنيمي هلال ـ دار النهضة العربية .
٨٩ ـ نقد الشعر ـ قدامة ـ المليجية .
٩٠ ـ نقد النثر ـ المنسوب لقدامه ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر .
٩١ ـ النكت في اعجاز القرآن ـ الرماني ـ دار المعارف .
٩٢ ـ النهاية في فن الكناية ـ الثعالبي ـ السعادة .
٩٣ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه ـ القاضي الجرجاني ـ عيسى الحلبي .

الفهرس

المحتويات

مقدمة ٣

الباب الأول

١ ــ التشبيه والجانب النقدي ٧
٢ ــ التشبيه والجانب التاريخي ١٥
٣ ــ التشبيه والجانب البياني ٤٥
وجه الشبه ٥٩
أدوات التشبيه ٧٥
أغراض التشبيه ٨٩
التشبيه المقلوب ١٠٥

الباب الثاني

١ ــ الحقيقة والمجاز ١١٧
٢ ــ فكرة المجاز وتطورها ١٢٧
٣ ــ المجاز المرسل ١٥٥
٤ ــ الاستعارة ١٧١
٥ ــ الكناية ٢١٧
٦ ــ المراجع ٢٣٧